النصارى في العصر العباسي

مع مقدمة في حالهم في الأدوار السابقة

وهي رسالة قدمت الى دائرة التاريخ في كلية العلوم والآداب
بجامعة بيروت الأميركية لنيل شهادة

أستاذ في العلوم

بقلم
عبد العزيز علوني

بيروت - الجامعة الأميركية
١٩٤٢

ـ الاهـــــــــــداء ـ

*الى الذين تطلعوا الى فجـر النهضـــة المباركـــة ....

*الى الذين ارخصوا نفوسهم لخدمة الوطن الكبيـــــــر ....

*الى الذين اطرحوا العادات البالية والعنعنات الممقوتة ....

*الى الذين تحرروا من هوج العصبيـة وجموح العاطفـة ....

*الى الذين يعملون للتآلف والتآخي ....

*الى الذين يريدون بناء المجـد ونيل العزة القوميـة ....

*الى المخلصين للعروبـــــة

* من نصارى ومسلميـــن

*الى هؤلاء جميعـا اهدى رسالتي المتواضعة هذه ....

* عبد العزيز علوني *

مقدمـــــــــــة

رافق تاريخ النصارى في العصور الاسلامية غموض شديد جعل الباحثين اليوم في تردد وشك فيما يكتبون ويدونون . ومنشأ هذا الغموض ان العلماء المسلمين لم يهتموا قليلا ولا كثيرا في تاريخ النصارى . والنصارى انفسهم سكتوا كذلك عن تدوين تاريخهم الصحيح . وجل ما خلف لنا من تقدم من نصارى ومسلمين ، معلومات طفيفة متضاربة متناقضة لعب الخيال دوراكبيرا في حقائقها وهي مبعثرة هنا وهناك في متون الكتب التاريخية العامة او الادبية . بحيث يجد الكاتب صعوبة كبرى في التوفيق بينها وجمع اجزاءها المتناثرة المتنافرة في حيز الحقيقة .

وما ان تنبه الغربيون خاصة في العصور المنصرمة الى تاريخ النصرانية في الاسلام حتى اطلقوا لخيالهم العنان وصاروا يدرسون هذا التاريخ حسب ما توحيه لهم عصبيتهم الدينية . فمثلوا تاريخ الكنيسة الشرقية بقصة شهداء ودماء وضحايا كثيرة . ولم يتورع جمهرة منهم ان يصرحوا انه بقيام محمد كانت النصرانية بحكم المائتة ، فسحقها الاسلام بيده الشديدة وانتزع ما فيها من رمق وتركها جثة هامدة .

ولعل ما جعل هؤلاء يندفعون في خطأهم الى هذا الحد ان قيام الاسلام رافقه كثير من الحروب الشديدة التي جرت فيها الدماء غزيرة على الاخص لما اجبر المسلمون المشركين من العرب على قبول الاسلام بحد السيف . فبالاحرى اذن ان يكون النصارى كذلك قد جرد عليهم السيف وعذبوا واضطهدوا كما يدعون . وفي هذا ما فيه من خطل الرأى وفساد المقابلة ووهي التعميم وجهل التاريخ جهلا فاضحا .

او لأن الدولة العربية الاســـــلامية مرت بها في الفترات المتأخرة محن وشدائد كثيرة فوهنت وضعفت وضيق على الناس اجمعين ونيل من حريتهم نظريا وعمليا وكان نصيب النصارى من هذه الويلات كنصيب المسلمين وبقية العناصر الاخرى ولم ينفردوا بهذا الويل وحدهم نوعا ما .

نحن لا ننكر ان النصارى لاقوا من ضروب العذاب الوانا كثيرة في فترات محدودة جدا ، لكنهم كانوا في الفترات الاخرى الواسعة في جو من الرخاء والسيادة . ويجب ان لا نعزو سبب هذه التقييدات الى العداء الديني . وانما سنرى ان سببها يعود الى عوامل كثيرة الاسلام براء منها ابدا ودوما . اسباب تعود الى ضعف الدولة الداخلي الذى ترافقه الفوضى وبضرب الشغب

في الارجاء ، والى ضيق عقلية بعض الخلفاء والحكام ورجعيتهم ، والى النصارى انفسهم في كيدهم للمسلمين واستبدادهم في الامور ، والى وشاياتهم ببعضهم الى اخره من الاسباب الاخرى التي سنعرض اليها في فصول الرسالة المختلفة .

ومما تجدر ملاحظته ان بعض العلماء اليوم والكتاب قد تحرروا نوعا ما من قيود آثار من سلفهم وتجردوا الى حد ما وصاروا يدرسون علاقات النصارى بالمسلمين على ضوء الحقائق العلمية الراهنة . وطلعوا بنتيجة واحدة ان الاسلام تسامح مع النصارى الى حد كبير وان من مثل تلك العلاقات مصبوغة بالدماء بعيد عن الصواب ، ضعيف الحجة والبرهان .

فالمسلمون بقوا زمانا طويلا في احتكاك مع النصارى ولم تكن العلاقات التي كانت قائمة بينهما في اكثر الاحيان علاقة سيد بمسود او قاهر بمغلوب . اما الضغط فقد لعب دورا صغيرا جدا محدودا ، وقد سنحت الصدف والظروف للكنيسة النصرانية ان تزدهر وتنمو في ادوار كثيرة جهلها الكثيرون حتى في العصر الحاضر ويا للاسف . وبعبارة ثانية نقول ان هناك تاريخا لا يزال بحاجة الى الدرس والاستقصاء لايضاح تلك العلاقات ، تاريخا يلقي نورا على علاقاتنا الحاضرة لعله يحررنا من ربقة العصبية والاوهام ، والجهل الذى رافقنا عصورا مديدة : عصبية املاها علينا ظلام الايام السوداء ، واوهاما رزقناها من مخلفات الماضين في عصور الانحطاط ، وجهلا اتحفتنا به الشعوب المسلمة المتأخرة البربرية . ولّت تلك العصور وانكشفت تلك الظلمة وانقرضت تلك الشعوب وبقي بعضها اليوم ينكر ما كان يعزى اليه ، وبقينا متمسكين بتلك العادات الباطلة ونحن على رأى من قال "رمتني بدائها وانسلت . "

ان هذا الدرس سيفهمنا روح الاسلام وجوهره الصحيحين ويعلمنا خلقه وصفاته السمحين، ويقرر في آذاننا ان الديانة الاسلامية هي ابنة للنصرانية او اختها الصغرى ، وانه لا يعدم وجود في صفوف النصارى من فهموا هذه الحقيقة وسندوها .

صرنا نفهم اليوم ان سياسة الدولة مع الديانات يجب ان يراعى فيها الحقوق الخاصة اولا ثم حقوق المواطنين او الذين يعيشون ضمن حدودها سامحة لهم بحريتهم الدينية الكاملة . وهذا يعني ان اطلاق الدولة لحرية العبادة هو قسم او جزء من الحقوق الانسانية المكتسبة . فاذا سلمنا بهذه الحقيقة ونسجنا على منوالها ، يتحتم على الدولة ان لا تناهض مذهبا على آخر او تفضل دينا على غيره . وعليها ان تعتبر كل الذين يعيشون في ولاياتها ليسوا اتباع دين ما

ولكن مجرد مواطنين ، افراد وجماعات يستوجبون حمايتها لهم . وبكلمة اخرى ان تلك الدولة تراعي الاعمال الخاصة التي تتعلق بالامور المدنية ، اما ما يعتقده او يعتنقه الانسان او لا يعتقده هو مسألة بينه وبين الخالق ولا يحرمه هذا من اى الحقوق المدنية .

ولكن الحرية الدينية المطلقة مستحيلة عندما تستمد السلطة احكامها وسننها من الديانة المسيطرة . وهذا ما كان من امر الدولة العباسية خاصة مع النصارى وغيرهم . فلم تعد هناك مساواة في جميع الحقوق ولكنه تسامح في مبدئه الاساسي . ومعناه ان يرخص دين حاكم للاديان الاخرى التي تعيش في كنفه ان تجاهر بعقيدتها وتمارس طقوسها الدينية وعاداتها التقليدية ولكن تحت بعض التقييدات المعينة . ويجب ان لا نتطلب اكثر من هذا من المسلمين في تلك العصور في الوقت الذى تشذب به ما لحق النصارى من التضييق والشدة .

ولا اظن احدا يصرح اليوم ان ايدى المسلمين ملطخة بدماء النصارى في الشرق وانما هي ايدى الغرب النصراني : في الاضطهادات الدينية التي سفكت بها دماء المسيحيين انفسهم ، وفي الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش التي جرت بها الدماء غزيرة وازهقت بها ارواح الالاف من النصارى والمسلمين واليهود معا .

هل هناك مجال للمقارنة بين تسامح المسلمين مع أهل المذاهب الأخرى في تلك العصور ؟ هل المسلمون على الرغم مما قام به بعضهم من الاضطهاد هم المتعصبون ؟ اترك الجواب على هذا للمنصفين ورواد الحقيقة العلمية .

نحن ندرس الآن تاريخ النصارى في العصر العباسي في مختلف نواحيه السياسية والاجتماعية والثقافية . وحرى بنا ان نشير ان الدولة العباسية لم تبق متماسكة الاطراف موحدة الاركان . وانما بدأت اوصالها تتقطع شيئا فشيئا منذ خلافة المأمون . ففي منتصف القرن الثالث استقلت مصر تحت حكم ابن طولون . وفي مبدأ القرن الرابع استولى البويهيون على الحكم في بغداد . وبعده بسنوات تغلب الفاطميون على مصر ثم سوريا وبقوا فيهما مدة قرنين ونصف . وفي فاتحة القرن الخامس شكل السلاجقة مملكتهم واستولوا على بغداد ولم يبق للخليفة الا سلطة شكلية ، وكان الحكم كله بيد الاتراك السلاجقة . ولما اضمحلت هذه الدولة توزع العالم الاسلامي الى دويلات صغيرة متعددة كانت اعظمها بغداد مركز الخلافة . الى ان اتى المغول فاغتصبوا

بغداد ومحوا تلك الدويلات في القرن السابع الهجري . وعلى الرغم من انقسام الدولة العباسية بقي للخليفة العباسي سلطة روحية معترف بها في اكثر الاحيان من جميع الحكام المستقلين .

فدراستنا لحياة النصارى تشمل هذا الدور الممتد من سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) الى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) والمعروف بالدور او العصر العباسي ، مع مقدمة في حالهم في الادوار التي سبقت هذا العصر .

وقد يكون من الخير ان اذكر انني لا نيت عناء كبيرا في درس تلك الحياة لندورة المعلومات التامة الشاملة واضطراب المصادر المختلفة ، وعدم توصلي الى المراجع الاخرى غير العربية الاولية من يونانية وسريانية . هذا على الرغم من انني قد اطلعت الى حد ما على وجهة النظر النصرانية القديمة في الكتب والمؤلفات الحديثة .

ويجب ان اعترف ايضا انني قمت بمحاولة اولى لايضاح تلك الحياة وهي ليست نهائية . وهناك مجال كبير للدرس اتركه لابناء العربية من نصارى ومسلمين ليحققوه وينصفوا منه انفسهم . وجل ما توخيته من رسالتي هذه خدمة بلادي ووطني العربي الكبير وكانت الحقيقة العلمية رائدي . عسى ان تكون محاولتي هذه لها صداها عند المخلصين من ابناء العروبة فيعكفون على استعراض الماضي بتجرد علهم يتبينون انهم في واد يعمهون وان الاسلاف على الرغم من اخطائهم كانوا اكثر منا صوابا في تلك العصور المظلمة ، ونحن في عصر المدنية والنور .

اننا نصارى ومسلمون تضمنا بلاد واحدة وتظللنا سماء واحدة وتجمعنا غايات ومصالح واحدة . لنا عواطف ومشاعر واحدة ومشارب واهواء موحدة . لكننا لا نزال نتقيد ببضاعة الاقدمين التي اطرحها جل سكان المعمورة وسبقونا في مدارج الرقي والمدنية ، وكلنا يحدث نفسه بخطلها ولكنه لا يجرؤ على التصريح وفي هذا ما فيه من تاخرنا وعدم رقينا . فالى متى ؟!

ولا يسعني قبل الختام الا ان اشكر لاستاذي الكريم الدكتور قسطنطين زريق معونته الكبرى لي ، في نصائحه وارشاداته وآرائه التي عادت علي بالفضل العميم . والى اساتذتي الافاضل الدكتور اسد رستم والاستاذ انيس المقدسي والاستاذ جبرائيل جبور فيما اسدوه الي من المعلومات القيمة والاراء الصائبة والملاحظات الدقيقة . والى جميع من شجع العمل وعطف عليه . والسلام .

عبد العزيز علوني

الجامعة الاميركية في بيروت في ١ ايار سنة ١٩٤٢ .

صفحة

الفهـــرس المـــوجـــز

تمهيد

لمحة موجزة عن النصارى تحت الحكم الاسلامي قبل العصر العباسي

تمهيد

لمحة موجزة عن النصارى تحت الحكم الاسلامي قبل العصر العباسي

الفصل الاول

القبائل والشعوب النصرانية والاسلام

عرفت الجزيرة العربية النصارى قبل الفتح الاسلامي وكانت لهم فيها مواطن عديدة في اكثر انحائها . ولما انتشر الدين الاسلامي في الجزيرة وتكونت النواة الاولى للدولة العربية المقبلة بسبب الفتح لبلاد السواد وفارس والشام ومصر ، اصبح النصارى يمثلون عنصرا هاما فعالا في كيان الدولة الجديدة ، فقد كان جل سكان الشام ومصر واكثر سكان السواد يدينون بدين النصرانيه على اختلاف نحله .

ولما كان البحث يقتصر على وصف الحياة النصرانية العامة في العصر العباسي ارى من الفائدة قبل الخوض في الموضوع ان القي نظرة عامة تاريخية على القبائل النصرانية العربية التي استوطنت الجزيرة ، وعلى الشعوب النصرانية الاخرى التي احتك بها العرب المسلمون في الشام ومصر وباقي الاقطار بعد الفتح الاسلامي ، لنكون على بينة من تسلسل حوادث الدور الذى لعبه النصارى في عصر الراشدين وعصر الامويين حتى حلول العصر العباسي .

لم تقبل القبائل العربية كلها الدين الاسلامي في ابان الدعوة النبوية ولا حتى في زمن الخلفاء الراشدين والعصور التي تلت ، وانما بقيت قبائل كثيرة متمسكة بدينها القديم النصراني او اليهودى او الوثني .

اما من تنصر من احياء العرب فقوم من قريش بن اسد بن عبد العزة وورقة بن نوفل

ابن اسد ، ومن بني تميم بنوامرئ القيس بن زيد مناة ، ومن ربيعه بنو تغلب ومن اليمن طي ومذحج وبهراء وسليح وتنوخ وغسان ولخم (١) . وكان علية اهل الحيرة نصارى ، كآل عدى ابن زيد العبادى ، ومن سليم ومن طى وغيرهم . (٢) وكانت قبيله كلب المشهورة تقطن كذلك الحيرة وما جاورها (٣) .

ويروى الجاحظ : "ان العرب كانت النصرانيه فيها فاشيه وعليها غالبة الا مضر ؛ فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية . ولم تفش فيها النصرانية الا ما كان من قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العباد فانهم كانوا نصارى ، وهم مغمورون مع نبذ يسير في بعض القبائل . ولم تعرف مضر الا دين العرب ثم الاسلام . وغلبت النصرانيه على ملوك العرب وقبائلها ؛ على لخم وغسان والحارث بن كعب بنجران وقضاعه وطئ في قبائل كثيرة واحياء معروفة . ثم ظهرت في ربيعه فغلبت على تغلب وعبد القيس وافناء بكر ثم آل ذى الجدين خاصة " (٤)

ويقول ابن قتيبه في المعارف : "كانت النصرانية في ربيعه وغسان وبعض قضاعة (٥) " وقد تحرى الاستاذ تريتون Tritton القبائل النصرانية في الجزيرة فوجد : سليح وغسان وجذام ولخم وتغلب وبكر وعجيل وحنيفة وربيعه وتميم وتنوخ وطئ وثعلبه وبعض قضاعه ؛ (٦)

غسان وقد كان لبعض هذه القبائل سلطه وملك في شمالي الجزيرة وشرقها . يذكر المؤرخون ان القبيله النصرانيه الاولى التي تولت على بادية الشام باسم الرومان انما كانت قضاعة من قبائل اليمن ، ثم غلبتها على الامر سليح . ثم جاءت بعدها قبيلة غسان تملكت

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ١ص٢٩٨ (٢) اليعقوبي - البلدان - ص٣٠٩

(٣) البلاذرى ص ٢٤٤ و٢٨٢ Lammens: Moawia p. 291

(٤) ثلاث رسائل ص ١٥ (٥) ص٢٩٩

(٦) (Nasara. E.I. III : 848)

على تلك الجهات وبقي ملكها الى ظهور الاسلام .[1] وقال اليعقوبي : "ان قضاعة اول من قدم الشام من العرب فصارت الى ملوك الروم فملكوهم ، فكان اول الملك لتنوخ بن مالك ابن فهم .... فدخلوا في دين النصرانية فملكهم ملك الروم على من ببلاد الشام من العرب".[2] اما سليح فقد وردت الشام وتغلبت على تنوخ وتنصرت فملكها الروم على العرب الذين بالشام[3] وظلت قبيلة غسان على نصرانيتها حتى بعد الفتح العربي والتحق قسم كبير منها بالروم البزنطيين وحاربوا الى جانبهم . قيل ان هرقل ملك الروم كان بحمص لما فتح المسلمون طبرية فلسطين والساحل فبلغه ذلك فتوجه الى انطاكيه واستجلب المستعربة من غسان وجذام ولخم وكل من قدم عليه وقدم عليهم بطريقا اسمه ماهان ووجه به الى دمشق وجعل على مستعربة الشام جبلة بن الايهم الغساني ، وكتب الى منصور عامله بان يمدهم بالمال[4] ولكن هذه القبائل تعود فتفترق عن الروم وتتحد مع اخوانهم العرب المسلمين فيفتحون البلاد معاً . ومن الاسباب التي دفعت هذه القبائل الى النفور من الروم قصور الامبراطور البزنطي عن دفع المال اليهم جزاء عن خدماتهم بسبب الحالة المالية السيئة التي كانت يعانيها البزنطيون انذاك[5] .

وسرعان ما استكنت هذه القبائل الى الحكم العربي لانهم رؤا في العرب الغزاة اخوانا لهم تربطهم معهم اللغة والدم . ولان من عادة العرب "اذا فتحوا بلدا اقروا اهله على ما كانوا عليه من قبل لايتعرضون لهم في شيء من دينهم اومعاملاتهم او احكامهم المدنيه او القضائية او سائر احوالهم"[6] قيل ان الوليد بن عقبة خرج غازيا للروم فلقيهم فقاتلوه . فقال له رجل من العرب نصراني : لست على دينكم ولكني انصحكم للنسب ، فالقوم

---

١) العقد الفريد ج ٣ص٣٧٢ ، شيخو – النصرانيه وادابها – ص٧٢

٢) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص٢٣٤ (٣) المسعودى – مروج ج ٣ص٢١٦

٤) البلاذرى ص١٣٥ – ١٣٦ ، المكين ص٢٦ (٥) Wismar p.69 نولدكه امراغسان ص٤٩

٦) زيدان – تمدن ج ١ص٩٦

مقاتلوكم الى نصف النهار فان راوكم ضعفاء انتوكم وان صبرتم هربوا وتركوكم (١) .

امتزجت قبيلة غسان والقبائل الاخرى القاطنه في شمالي الجزيرة بالعرب الفاتحين وقبلت الجزية التي فرضت عليها . والتاريخ فيما بعد لايحدثنا عن دور بارز لعبته هذه القبائل على مسرح الحياة العربية . ويظهر انه بزوال البلاط الغساني تفرقت القبائل التي كانت تعضده ، فمنها من اسلم ومنها من انصهر في بوتقة الحياة النصرانية العامة في بلاد الشام (٢) .

نصارى نجران ومن مواطن النصارى العرب في الجزيرة العربية نجران اليمن او كعبة نجران . وقد كان لمدينة نجران اهمية كبرى في عصور خلت ولاقى اهلها النصارى من ضروب الاضطهاد الشيء الكثير . وكان اضطهادهم على يد الملك ذي نواس الذي تعصب لليهود ودعاهم الى اليهودية فامتنعوا فحفر لهم اخاديد اشار اليها القران الكريم ، اضرم فيها النيران والقى فيها على ما روى ابن اسحق عشرين الفا . وبحقهم نزلت الاية الكريمة "قتل اصحاب الاخدود . النار ذات الوقود . اذ هم عليها قعود .." ص٩٨ ي ٤-٦) (٣)

وعلى الرغم من كل ذلك بقوا على دينهم بمساعدة قيصر الروم ونجاشي الحبشه فقد قهرا ذي نواس واستوليا على بلاد اليمن (٤) .

ولما ظهر الاسلام ونجحت الدعوة الاسلامية اتى رسول الله (صلعم) السيد والعاقب (+) وافدا اهل نجران اليمن لسالاه الصلح ، فصالحهما عن اهل نجران بعد ان عرض عليهما الاسلام فاعتذرا . وكتب لهم عهدا هذا نصه : "بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما كتب النبي

---

١) الاغاني ج ١ص١٨٧ (٢) راجع Arnold 51

٣) ابن هشام ص ٢٤ (٤) المصدر نفسه ص ٢٦

+) العاقب اميرالقوم ، والسيد صاحب الرحل .

رسول الله محمد لنجران اذ كان له عليهم حكمه في كل ثمرة وصفراء وبيضاء وسوداء ورقيق ، فافضل عليهم وترك ذلك ، الفي حلة حلل الاواقي · في كل رجب الف حلة وفي كل صفر الف حلة كل حلة اوقية ··· وعلى نجران مثواة رسلي شهرا فدونه ··· وعليهم عارية ثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا اذا كان كيد باليمن ذو مغدرة (اى اذا كان كيد بغدر منهم)"··

ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على انفسهم وملتهم وارضهم واموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم وبعثهم وامثلتهم ، لايغتنى اسقف عن اسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا واقه من وقاهته ، على ما تحت ايديهم من قليل او كثير ، وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولايعشرون ولا يطأ ارضهم جيش ، من سال منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولامظلومين بنجران · ومن اكل منهم ربا من ذى قبل فذمتي منه بريئة ولايؤخذ منهم رجل بظلم اخر ، ولهم على ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي ابدا حتى يأتي امر الله ما نصحوا واصلحوا فيما عليهم غير مكلفين شيئا بظلم · شهد ابو سفيان بن حرب وغيلان ابن عمرو ومالك بن عوف من بني نصر والاقرع بن حابس الحنظلي والمغيره وكتب ··· "(١)

فلما استخلف عمر بن الخطاب اصابوا الربا كما يذكر المؤرخون وكثروا فخافهم على الاسلام فاجلاهم من ارض اليمن وكتب لهم : "اما بعد فمن وقعوا به من اهل الشام او العراق فليوسعهم من حرث الارض ، وما اعتملوا من شيء فهو لهم مكان ارضهم اليمن" · وتفرقوا فنزل بعضهم الشام ونزل بعضهم النجرانية ـ بناحية الكوفة ـ وبهم سميت·(٢)

ويظهر ان حالهم ساءت بالعراق · فلما تولى عثمان بن عفان الخلافة اتوه الى المدينه وسالوه العدل فكتب لهم الى الوليد بن عقبه ـ عامله على الكوفه ـ : "بسم الله الرحمن الرحيم ··· من عبد الله عثمان امير المؤمنين الى الوليد بن عقبه سلام عليك ···· (اما بعد) فان الاسقف العاقب وسراة اهل نجران الذين بالعراق اتوني فشكوا الى واروني شرط عمر لهم وقد

---

١) البلاذرى ص ٦٥ ، ابو يوسف ص ٨٧ ، الاموال ـ ابي عبيد ص ١٨٨ ·

٢) البلاذرى ص ٦٦ ·

علمت ما اصابهم من المسلمين ░░░░ واني قد خففت عنهم (ثلاثين) حلة من جزيتهم تركتها لوجه الله تعالى جل ثناؤه ، وان وفيت لهم بكل ارضهم الذى تصدق عليهم عمر عليى مكان ارضهم باليمن فاستوص بهم خيرا فانهم اقوام لهم ذمة ، وكانت بيني وبينهم معرفة . وانظر صحيفة كان عمر كتبها لهم فاوفهم ما فيها . . .»(١)

ولقي اهل نجران بعد ان خفف عنهم عثمان الجزية صعوبة كبرى في جمع الحلل المطلوب منهم تاديتها فيما بعد . يقول البلاذرى : "ان صاحب النجرانية بالكوفة كان يبعث رسله الى جميع من بالشام والنواحي من اهل نجران فيجبونهم مالا يقسم عليهم لاقامة الحلل ، فلما ولي معاويه او يزيد بن معاويه شكوا اليه تفرقهم وموت من مات واسلام من اسلم منهم واحضروه كتاب عثمان بن عفان بما حطهم من الحلل وقالوا انما ازددنا نقصانا وضعفا ، فوضع عنهم مائتي حلة تتمة اربعمائة حلة . فلما ولي الحجاج بن يوسف العراق وخرج ابن الاشعث عليه اتهم الدهاقين بموالاته واتهمهم (اى اهل نجران) معهم فردهم الى الف وثمانمائة حلة واخذهم بحلل وشي . فلما ولي عمر بن عبد العزيز شكوا اليه فناءهم ونقصانهم والحاح الاعراب بالغارة عليهم وتحميلهم اياهم المؤن المجحفة بهم وظلم الحجاج اياهم . فأمر فاحصوا فوجدوا على العشر من عدتهم الاولى فقال ارى هذا الصلح جزية على رؤوسهم وليس هو بصلح عن ارضهم وجزية الميت والمسلم ساقطة ، فالزمهم مائتي حلة قيمتها ثمانية الف درهم . فلما ولي يوسف بن عمر العراق في ايام الوليد بن يزيد ردهم الى امرهم الاول عصبية للحجاج . فلما استخلف امير المؤمنين ابو العباس رحمه الله عمدوا الى طريقه يوم ظهر بالكوفة فالقوا فيه الريحان ونثروا عليه وهو منصرف الى منزله المسجد فاعجبه ذلك من فعلهم ، ثم انهم رفعوا اليه في امرهم واعلموه قلتهم وما كان من عمر بن عبد العزيز ويوسف بن عمر وقالوا ان لنا نسبا في اخوالك بني الحارث بن كعب . وتكلم فيهم عبد الله بن الربيع الحارثي وصدقهم الحجاج بن ارطاة

---

(١) ابو يوسف ص ٨٨ . يذكر ابو عبيد في الاموال ان عثمان خفف عنهم مائتي حلة ص ١٨٦ ، وكذلك البلاذرى ص ٦٧ والارجح ذلك كما سيأتي .

فيما ادعوا فردهم ابو العباس صلوات الله عليه الى مائتي حلة قيمتها ثمانية الف درهم ... ولما استخلف الرشيد هارون امير المؤمنين وشخص الى الكوفة يريد الحج رفعوا اليه في امرهم وشكوا تعنت العمال اياهم فأمر فكتب لهم كتابا بالمائتي حلة ... وأمر ان يعفوا من معاملة العمال وان يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة " . [1] وعلى هذا يكون اهل نجران اول من اعطى الجزية من اهل الكتاب وكانت لهم معاملة خاصة دون غيرهم من اهل الذمة .[2]

عرب الحيرة : اما في شمالي شرقي الجزيرة فنجد مدينة الحيرة وجل سكانها وما يجاورها من النصارى العرب من بطون مختلفة كتنوخ والعباد ولخم والاحلاف . وكان المتولي عليهم ابان الفتح العربي المنذر المغرور ابن النعمان ابي قابوس من آل لخم ثم اياس بن قبيصه الطائي [3] . وفي زمن الخليفة ابي بكر سار خالد بن الوليد لفتح الحيرة وما جاورها وحاصرها ودعا خالد اهلها الى احدى ثلاث : الاسلام او الجزاء او المنابذة . فاختاروا المنابذة وتحصن اهل القصور في قصورهم ، فضيق عليهم جيش خالد كثيرا واكثر الفتك بهم . فنادى القسيسون والرهبان: يا اهل القصور ما يقتلنا غيركم ! فنادى اهل القصور يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث فادعوا بنا وكفوا عنا . فخرج اياس بن قبيصه واخوه وعدى بن عدى وزيد بن عدى وعمرو بن عبد المسيح وابن اكال واجتمعوا بخالد بن الوليد فقال لهم : ويحكم ما انتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ! او عجم ، فما تنقمون من الانصاف والعدل . فقال له عدى : بل عرب عاربة واخرى متعربة . فصالحوه على مائتي وتسعين الفا .[4] على ان يكونوا له عيونا على الفرس . [5]

رحب عرب الحيرة النصارى بالعرب المسلمين الفاتحين ولم تكن مقاومة بعض اهل القصور الا حبا بالمنفعة الشخصية وضنا بالجاه الذى كانوا يتمتعون به ، او حذرا من بطش

---

(1) البلاذرى ص ٦٧ ، (2) المصدر نفسه ص ٦٨ ، (3) الطبرى ١ : ٢٠١٧ ، (4) المصدر نفسه ١ : ٢٠٣٩ - ٢٠٤١ ، (5) المصدر نفسه ١ : ٢٠١١

الحكومة الساسانية بهم ورميهم بالخيانة العظمى . " ومما لا ريب فيه ان دم العروبة المتغلغل في عروق عرب الحيرة كان ينزع الى ابناء عنصرهم الذين تجمعهم واياهم جامعة العنصرية واللغة والعادات، ولم يكن الحيريون قبل الفتح على وئام مع حكومة المدائن لسببين : اولهما قتل النعمان بن المنذر والفتك به وبأولاده وازالة الملك من آل نصر وتنصيب اياس بن قبيصة تنصيبا اسميا وايداع الحكم لرجل فارسي ، وثانيهما حرب ذي قار التي اشتركت فيها العرب ضد العجم(١) وقد برهن عرب الحيره النصارى بعد الفتح على موالاتهم لاخوانهم العرب المسلمين فنصروهم وحاربوا الفرس الى جانبهم . فأنس بن هلال النمرى قدم مددا للمثنى بن حارثة الشيباني في اناس من النمر نصارى . وقدم ابن مردى الفهر التغلبي في اناس من بني تغلب وجلاب جلبوا خيلا . وقالوا حين راوا نزول العرب بالعجم : "نقاتل مع قومنا " . وكذلك قاتلت فتية من بني تغلب في يوم البويب لما جلبوا خيلا للعرب . والذى قتل مهران القائد الفارسي غلام نصراني من بني تغلب (٢) . وابو زيد الطائي حارب مع المسلمين حمية للعرب في واقعة الجسر حتى قتل وهو نصراني (٣).

ولما سار الوليد ابن عقبه لفتح العراق والجزيره انضمت اليه عربها النصارى الا قبيلة اياد فانهم تحملوا الى بلاد الروم . فكتب الوليد الى عمر بن الخطاب بذلك . فكتب عمر الى ملك الروم : " بلغني ان حيا من احياء العرب ترك دارنا واتى دارك فوالله لتخرجنه الينا او لنبذن الى النصارى ثم لنخرجنهم اليك " .(٤) فاخرجهم ملك الروم .

وقد حفظ العرب المسلمون لنصارى العراق العرب هذا الجميل ، ولما هموا بوضع الجزية عليهم وفي جملتهم عرب اياد وتغلب والنمر ابى هؤلاء الجزية . فاستشار الخليفة عمر اصحابه فقال له بعضهم "انهم عرب يانفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية فلا تعن عدوك

---

١) قنيمه ـ الحيرة ـ ص ٢٣٢ (٢) الطبرى ا : ٢١٩٠ ـ ٢١٩٣ .

٣) ابن الاثيرج ٢ ص ٣٣٨ (٤) الطبرى ا : ٢٥٠٧ ـ ٢٥٠٨

فرضت عليهم الصدقة كما تفرض على المسلمين [1] .

تفرق اللخميون ومن والاهم من القبائل بعد زوال ملكهم ايدى سبا فمنهم من اسلم واندمج في الحياة الاسلامية وكان لهم شان فيما بعد ، كالامير ظهير الدين الذى اقامه السلطان نور الدين اميرا على سفح لبنان سنه ٥٥٦ هـ واوكل اليه القنيطرة وبروج صيدا والدامور وامده بالمال والسلاح لمحاربة الفرنج . ويقال ان الامير ظهير الدين هو احد اولاد النعمان ا بن المنذر الذى سار بعد قتل ابيه الى لبنان بقبائل من العرب فثبتت الامارة لاعقابه [2] . وكان لبقاياهم ملك اشبيليا في الاندلس وهى دولة بن العباد . وذكر القضاعي في خطط مصر انهم حضروا فتح مصر واختلطوا بهم ، ومن خالطهم جذام ، وقال الحمداني ، وبصعيد مصر قوم منهم مساكنهم بالبر الشرقي [3] . ومنهم من بقي على نصرانيته يدفع الجزية التى فرضت عليه منخرطا في سلك الحياة النصرانية العامة .

قبيلة تغلب — ومن القبائل النصرانية التي ثبتت على نصرانيتها حتى عصور متاخرة قبيله بني تغلب وكان لها ~~فقد~~ في التاريخ الاسلامي شان يذكر .

ولقد اراد الخليفة عمر بن الخطاب ان يعاملهم كبقية النصارى ويضع عليهم الجزية " فانطلقوا هاربين فقال له زرعه بن النعمان او النعمان بن زرعه التغلبي انشدك الله فيهم فانهم قوم عرب يانفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية فلا تعن عدوك عليك فاضعف عليهم الصدقة وشرط عليهم ان لا ينصروا اولادهم [4] . فكل نصراني من بني تغلب له غنم سائمة فليس فيها شي ء حتى تبلغ اربعين شاة فاذا بلغت اربعين سائمة ففيها شاتان الى عشرين ومائة . وكذلك البقر والابل اذا وجب على المسلم شي ء في ذلك فعلى النصراني التغلبي مثله

---

١) ابن قتيبه — المعارف — ص١٩٣ (٢) غنيمة الحيرة ص٢٢٦ و٢٢٧

٣) المصدر نفسه ص٢٣٥ عن النويرى ص٣٢٦ — ابن خلكان ج ٢ ص٢٦ وما بعد

٤) ابن قتيبه المعارف ص٢٨٢ .

مرتين .[١] وقيل ان عمر بن الخطاب اضعف الصدقة على نصارى تغلب عوضا عن الخراج[٢]

قاست التغلب كثيرا من الويلات في زمن عبد الملك بن مروان عندما ثارت الفتنه بين قيس وتغلب وعند قيام ابن الزبير على الامويين . ولما كانت سنه ٧٣ هـ وقتل عبد الله بن الزبير هدات الفتنة واجتمع الناس على عبد الملك بن مروان وتكافت قيس وتغلب عن المغازن في الشام والجزيرة وظن كل واحد من الفريقين ان عنده فضلا لصاحبه . وتكلم عبد الملك بن مروان في ذلك ولم يحكم الصلح . فبينما هم على تلك الحال انشد الاخطل عبد الملك وعنده وجوه قيس وعلى راسهم الجحاف بن قيس قوله :

الا سائل الجحاف هل هو ثائر	بقتلي اصيبت من سليم وعامر
اجحاف ان تهبط عليك تقتلني	عليك بحور طاميات الزواخـر
تكن مثل ابداء الحباب الذى جرى	به البحر تزهاه رياح الصراصر

فوثب الجحاف يجر مطرفه وما يعلم من الغضب . فقال عبد الملك للاخطل : ما احسبك الا قد كسبت قومك شرا . فافتعل الجحاف عهدا من عبد الملك على صدقات بكر وتغلب ، وصحبه من قومه نحو من الف فارس فثار بهم حتى بلغ الرصافة . ثم كشف لهم امره وانشدهم شعر الاخطل وقال لهم : انما هى النار او العار فمن صبر فليقدم ومن كره فليرجع . فقالوا نحن معك فيما كنت فيه من خير وشر . فارتحلوا واغاروا على بني تغلب ليلا فقتلوهم وبقروا بطون النساء الحوامل . ثم ان الجحاف هرب بعد فعلته هذه وتفرق عنه اصحابه ولحق بالروم ثم عفى عنه عبد الملك بعد ان رجته القبائل القيسية ، وحمله دية القتلى [٣] .

وكان لبني تغلب فضل كبير على الدولة الجديدة فهم الذين ساروا الى الحجاز لقمع ثورة ابن الزبير ، وهم الذين ارتحلوا الى العراق لقمع الفتنه التى ثارت في

---

١) ابو يوسف ١٤٤ (٢) المصدر نفسه ١٤٤

٣) الاغاني ج ١١ ص ٥٦

خراسان على الدولة الاموية في زمن الخليفة عبد الملك .[١]

وهناك قبائل نصرانية اخرى كان لها بعض الاحداث في العصور الاسلامية كبني ثعلبة وحادثتهم مع عمر بن عبد العزيز معروفة : "روي ان بني ثعلبه دخلوا على عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) فقالوا يا امير المؤمنين انا قوم من العرب افرض لنا : قال : نصارى؟ قالوا : نصارى . قال : ادعوا لي حجاما ففعلوا ، فجز نواصيهم وشق من ارديتهم حزما يحتزمون بها وامرهم ان لايركبوا بالسروج وان يركبوا على الاكف من شق واحد".[٢]

ويذكر السمعاني في المكتبة الشرقية ان هناك ثلاث اساقفه كانوا يدبرون امور قبائل العرب النصرانية ، وهم اسقف بيت رامان او بيت رزيق ، ثم اسقف بني جرم واسقف بني ثعلبة [٣]

هذه هي اهم القبائل التي كان لها اثر ظاهر بعد الفتح الاسلامي ولابد من ان نذكر ان هناك عدة بطون من طي‌ء وسليم بقيت على نصرانيتها حتى زمن متاخر .

وتعد الجزيرة فيما بين النهرين اوما يسمى ديار ربيعه اكبر موطن للقبائل النصرانية ، وكانت لهم اقامة طويلة في ديار بكر ثم شمالي الجزيرة الفراتية [٤]



الشعوب النصرانيــة

بسطنا على سبيل الايجاز سيرة القبائل النصرانية العربية التي احتك بها العرب المسلمون في ايام الفتح وبعده . وكانت اكبر نصير للعرب على اعدائهم من الاجناس الاخرى . على ان العرب المسلمين عندما غزوا العراق والشام ومصر وجدوا امامهم نصارى

---

١) ١) البستاني ـ المشرق مج ٣٦ ص٨٨ (٢) المستطرف ص ١٠٤

٣) السمعاني ـ المكتبة الشرقية ـ ٢: ١٠٤١ عن شعراء النصرانيه وادابها ص٤٩

٤) ابن قتيبة ـ المعارف ص ١٠٥ ، العقد الفريد ٣ : ١٠٢ ص٣٦١ ، الالوسي ج٢ ص ٢٤

من شعوب مختلفة . ففي العراق وارز السواد الانباط وفي الشام السريان الاراميون والجراجمة او المردة والموارنة ، وفي مصر الانباط وغيرهم من شعوب اخرى تقطن شمالي سوريا وشرقها وغربها .

هذه الشعوب كانت تمثل سكان البلاد الاصليين في السواد والشام ومصر وعليهم يرتكز عصب الحياتين الاجتماعية والعمرانية فكان لابد اذن للعرب الفاتحين من الاتصال بهم وحمايتهم ورعايتهم حتى يستتب ملكهم الجديد .

وقد تنبه العرب لهذا الامر فالنبي مثلا اوصى قبيل وفاته بقبط مصر خيرا . وكان الخلفاء الراشدون اذا انفذوا جيشا للفتح اوصوا قوادهم باهل الذمة ولاسيما النصارى ورهبانهم واذا جاءهم اهل المدن بالصلح صالحوهم وعاهدوهم على الحماية مقابل مايؤدونه من الجزية عن رؤوسهم [١] . وقد رحب نصارى الشام بالعرب الفاتحين الذين تسامحوا معهم في دينهم بخلاف مايقوله الاستاذ زيدان انهم لم ينصروهم ويعاونوهم . وفضلوهم على الروم البزنطيين الذين ضغطوا عليهم . وكتب بعضهم الى المسلمين "يامعشر المسلمين انتم احب الينا من الروم وان كانوا على ديننا ، انتم اوفى لنا وارحم بنا واردف بنا واكف عن ظلمنا واحسن ولاية علينا ، ولكنهم قد غلبونا على امرنا وعلى منازلنا" [٢] .

وقد رد المسلمون الخراج لاهل حمص لما جمع هرقل الجموع لمهاجمة المسلمين وقالوا لهم : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على امركم فقال اهل حمص: لولايتكم وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم [٣] .

وفي تاريخ الفتوح عهود كثيرة كتبت لاهل الذمة النصارى خاصة تعهد فيها المسلمون بحمايتهم وتسهيل اعمالهم مقابل ما يؤدونه من الجزية ، ككتاب النبي محمد الى ايلة (العقبة) .

---

١) زيدان ج ٤ ص ٩٧ ، ابو يوسف ص١٦٧ (٢) الازدي فتوح الشام ص٩٧ Arnold 54
٣) البلاذري ص١٣٧

واقتدى الخلفاء الراشدون بالنبي اثناء الفتح وكتبوا عهودا جمة مقابل دفع الجزية لكل بلد من البلدان بالشام والعراق ومصر وفارس . منها عهد خالد لاهل دمشق . وعهد ابي عبيده الى اهل بعلبك وحمص ، وعهود سائر الفاتحين كعمرو بن العاص وسعد ابن ابي وقاص وغيرهم

اما شروط الصلح فكانت تختلف شدة ورفقا باختلاف الاحوال التى فتحت بها فصلح مصر يختلف عن صلح الشام وصلح الشام يختلف عن صلح العراق وهكذا [١] . ولكن بالرغم من العهود والمواثيق سياسة الفاتحين تختلف باختلاف الظروف والمناسبات وباختلاف الحكام واهوائهم الخاصة . ومهما تكن سياسة العرب المسلمين المحتلين عادلة ضامنة للاحوال الشخصية والمدنيه والمنافع العاملة سيكون للرابطة الدينية بعض الاثر فى النفوس فاثر الروم البزنطيين لم يزل بعد ، وكان بعض نصارى الشام يعترفون لصاحب القسطنطينه بسيادته عليهم . فاذا حدث مايمس هذه السيادة احتج ملك الروم على الخليفة وخصوصا بالامور التى تتعلق بالكنائس . وكان الخلفاء يراعون عهودهم فى هذا الشان . قيل ان الوليد بن عبد الملك سمع صوت ناقوس وهو فى الجامع فقال ما هذا ؟ قيل بيعه . فامر بهدمها وتولى بعض ذلك بيده فتسابق الناس يهدمون ، فرفع النصارى امرهم الى ملك القسطنطينيه فكتب الى الوليد : ان هذه البيعه قد اقرها من كان قبلك فان يكونوا اصابوا فقد اخطات ، وان تكن اصبت فقد اخطاوا [٢]

ولا ينكر ان بعض النصارى كانوا عيونا للروم على المسلمين فى صدر الاسلام . ولاندرى مبلغ صحة قول الاستاذ زيدان من ان العهد الذى كتبه عمر لنصارى الشام او استكتبه لهم للسبب فيما حواه من الشدة خوفه من نصارى الشام لانهم اقرب نصارى الشرق الى كنيسه القسطنطينيه [٣] على ان الحقيقة الواقعة لاتخفى وهى ان نصارى الشام ساعدوا الامويين فيما بعد فى

---

١) زيدان ج ٤ ص ٩٧ - ٩٩ (٢) المسعودى - مروج ح ٥ ص ٣٨١ زيدان ج ٤ ص ١٠٧

٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٠٨ .

توطيد ملكهم الاداري والسياسي . وسرعان ما ادركوا ان العرب المسلمين ليسوا اعداء لهم ولا غزاة وانما هم منقذوهم من دولة شديدة الوطأة اثقلتهم بضرائبها الكثيرة وضايقتهم في ممارسة شعائرهم الدينية [1]. ولقد ترك الامويون الاعمال الادارية في ايدي اربابها من اهل البلاد النصارى وظل للوطنيين لغتهم ودينهم ومحاكمهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وظلوا يديرون بلادهم بانفسهم وينظمون شرطتهم وكانهم متمتعين باستقلال داخلي .

وتولى منصور بن سرجون الذي فاوض العرب بدخول دمشق مالية دمشق وكان له الفضل الاكبر في ادارة الامور المالية في الدولة الاموية وهو لا يزال متعلقا بنصرانيته متمسكا بها ولم يكن منصور النصراني الوحيد الذي تولى منصبا هاما في العهد وانما تبعه بضعة اشخاص كان لهم نفوذ لا يقل عن نفوذه . منهم الطبيب ابن اثال ، طبيب معاويه وصاحب خراج حمص يقول ابن عساكر عنه انه كان اركونا من اراكنة النصارى عظيما [2]. ومنهم الراهب ماريانوس مؤدب خالد بن الوليد وكثير من الاطباء والادباء والمغنين والندامى مما سياتي معنا ذكره . ولقد بلغ الامر ببعض رجال بني اميه ان الف شرطة ايلة (العقبة من مائتي نصراني وعهد الوليد بن عقبة بادارة سجون الكوفة الى رجل نصراني [3] .

ولقد برهنت الوقائع ان نصارى الشام كانوا اكبر عون للدولة الاموية اعتمدوهم ليس في الادارة فحسب وانما في الجيش ايضا وفي بناء الاسطول [4] ترايناهم يمشون الى الحجاز لقمع ثورة ابن الزبير وامامهم الصليب مرتفعا وراية مارسرجيس ترفرف فوق الويتهم وبهذا يقول الاخطل :

لما راونا والصليب طالعا　　　ومارسرجيس وسما ناقعا [5]

---

١) البستاني - المشرق مج ٣٦ ص ٧٧　　(٢) التاريخ الكبير ج ٥ ص ٨٠

٣) الاغاني ج ٤ ص ١٥٤ ، ١٥٦　　(٤) البلاذري ص ١٦٣

٥) ديوان الاخطل - صالحاني - ص ٣٠٩

ولا مجال لذكر الاعمال الاخرى التي قام بها نصارى الشام في نقل العلوم الى اليونانية والسريانية الى العربية والتي كان لها اعظم الاثر في تاريخ الثقافة عامة والثقافة العربية خاصة وسنفصل هذا الامر عندما نعود لندرس اثر النصارى في العلم والادب .

على ان هذه المكانة التي بلغها النصارى في بعض ادوار العهد الاموى لا تلبث ان تزول بالتدريج تمشيا مع اهواء بعض الخلفاء والامراء . فيعزل اكثرهم من مناصبهم وتنزع الادارة المالية من ال سرجون التي اضطلعوا بها مقدار قرن كامل ، ويضطهدون وتهدم كنائسهم ويصادرون ويضيق عليهم في كل مجالي حياتهم مما سنفصله في ابحاث قادمة .

المردة - الجراجمة : ومن النصارى الذين احتك بهم العرب في الشام الجراجمة او المردة نسبة الى مدينة باللكام تدعى الجرجومة (في جبال طوروس) فلما جاء العرب لفتح الشام ارسل ابوعبيدة حبيب بن مسلمة الفهرى لغزوها . يقول البلاذرى : " فلم يقاتله اهلها ولكنهم بادروا بطلب الامان والصلح فصالحوه على ان يكونوا اعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح في جبل اللكام ، وان لا يؤخذوا بالجزية وان ينفلوا اسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا حربا في مغازيهم ... فكان الجراجمة يستقيمون للولاة مرة ويعوجون مرة اخرى فيكاتبون الروم ويمالؤنهم (١) .

وفي خلافة معاويه أرسل الامبراطور البزنطي قسطنطين الرابع هؤلاء الجراجمة لغزو الشام وبلغوا بجيشهم المنظم قلب لبنان يساعدهم قادة من الجيش البزنطي حتى بلغوا حدود فلسطين (٢) فاضطر معاويه لعقد الصلح معهم لانشغاله بحرب اهل العراق على ان يؤدي اليهم مالا وارتهن منهم رهناء وضعهم ببعلبك (٣) . وفي زمن عبد الملك بن مروان "خرجت خيل للروم الى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت الى لبنان وقد

---

١) فتوح البلدان ص١٥٩و١٦٠

Lammens - Mardaites E.I. III p. 272. (2)

٣) البلاذرى ص١٦٠

ضوت اليها جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين ، فاضطر عبدالملك الى ان صالحهم على الف دينار في كل جمعه وصالح طاغية الروم على لأمال يؤديه اليه لشغله عن محاربته وتخوفه ان يخرج الى الشام فيغلب عليه " (١) . والامر الذي حدى بعبد الملك الى مصالحة الروم والجراجمة هو انشغاله بثورة مصعب بن الزبير في العراق وارساله جيشا لقمعها ، وقيام سعيد بن عمرو بن العاص ٧٠ هـ في دمشق عليه ومطالبته له بالخلافه (٢) وبقي عبد الملك يخشاهم ويحسن اليهم زمنا . ثم ارسل اليهم احد قواده سحيم بن المهاجر فقاتلهم وشتت شملهم فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع اكثرهم الى مدينتهم باللكام (٣) .

ولما كانت سنه ٨٩ هـ "اجتمع الجراجمه الى مدينتهم واتاهم قوم من الروم .... توجه الوليد بن عبد الملك اليهم مسلمة بن عبد الملك فاناخ عليهم في خلق كثير من الخلق فافتتحها على ان ينزلوا بحيث احبوا من الشام ويجرى على كل امرئ منهم ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت ... وعلى ان لايكرهوا ولااحد من اولادهم ونسائهم على ترك النصرانية وعلى ان يلبسوا لباس المسلمين ولايؤخذ منهم ولامن اولادهم ونسائهم جزية ، وعلى ان يغزوا مع المسلمين ... وعلى ان يؤخذ من تجاراتهم واموال موسريهم ما يؤخذ من اموال المسلمين . فاخرب مدينتهم وانزلهم فاسكنهم جبل الحوار وسنح اللولون (٢) وعمق تيزين ، وصار بعضهم الى حمص . ونزل بطريق الجرجومة في جماعة معه الى انطاكيه ثم هرب الى بلاد الروم ". وكان بعض العمال الزم الجراجمه بانطاكيه جزية رؤوسهم فرفعوا ذلك الى الخليفة الواثق بالله العباسي فامر باسقاطها عنهم .وقيل ان الخليفه المتوكل على الله امر باخذ الجزية من هؤلاء الجراجمة وان يجرى عليهم -

---

١) البلاذري ص ١٦٠ (٢) المصدر نفسه ص ١٦٠

٣) المصدر نفسه ص ١٦٠ .

الارزاق اذا كانوا ممن يستعان في المصالح وغير ذلك [1] .

ينتمي هؤلاء الجراجمة الى النصارى اليعاقبة ، اما اصلهم وجنسهم فالرواة يختلفون فيهما وعلى كل هم قوم هاجروا الى نواحي اسيا الصغرى واستقروا فيها ثم دفعهم الروم البيزنطيين الى الشام للغزو ولصد غارات العرب .

وتطابق هذه الرواية التي ذكرها البلاذري عن الجراجمة ما رواه المؤرخ البيزنطي تيوفانس عن "المردة" لما دخلوا الى لبنان في زمن الملك اللحياني قسطنطين [2] فالجراجمة والمردة قوم واحد عرفوا باسمين مختلفين وقد ايد هذا القول ابن العبري في تاريخه السرياني [3] .

لكن بقيت هناك مشكلة اخرى لم يتفق عليها الباحثون بعد وهي اصل المردة وجنسهم يقول الاب لامانس ان بعض الائمة ومنهم العلامة السمعاني والحاقلاني ومرهج بن نمرون والدويهي ومن تبعهم من علماء الموارنة وبعض الكتبة الاوربيين كبارنيوس ولوكيان وغيرهما ارتاوا ان المردة هم الموارنة . واقوى حججهم لتاييد ذلك ان المردة كانوا قوما من النصارى يسكنون لبنان ولايعرف في القرن ~~السابع~~ السابع شعب يدين بدين النصرانية ويسكن لبنان غير الموارنة . اما الذين ينكرون توحيد المردة والموارنة يسندون رايهم الى كون المردة ليسوا وطنيين كالموارنة بل غرباء عن لبنان اتوه من الخارج ثم استولوا عليه لحصنوه في وجه العدو مدة الى ان برحوه بعد زمن قليل . ومن ادلتهم ايضا ان المردة كانوا خاضعين لملك الروم . قال ابن العبري في تاريخه السرياني (ص١١٥) " ان المردة جنود للملك قسطنطين اللحيان ارسلهم الى الشام للمدافعة عنها ". وكل هذا لايوافق الموارنة الذين خضعوا ~~xxxxx~~ بعد عن ربقة ملوك الروم كما يظهر من تواريخهم ومن

---

١) البلاذري ص ١٦١ (٢) الكرملي - المردة والجراجمة مشرق ٦: ٣٠٤

٣) ابن العبري طبعة الاب بدجان ص ١٠٩ عن الكرملي المشرق ٦: ٣٠٩

علائقهم مع الملكيين انصار بيزنطيه وملوكها (١) . ويختم الاب لامانس بحثه بقوله : "ومن المقرر الثابت ان ظهور الموارنه كامة مستقلة قد اتفق مع عهد حروب المردة في لبنان . وان لم يسلم القراء بان الموارنه هم المردة فان لاسبيل الى النكران بانه وجدت بين الفئتين علاقات ودية . ومما يتضح ايضا من تاريخ ذلك العصر ان الموارنة عند خروج المردة من لبنان لم يتبعهم في مهاجرتهم الى اسيه الصغرى بل ثبت معظمهم في جبلهم (٢). يؤيد هذا ماذكره البلاذري في زمن عبد الملك عندما سار الروم الى بلاد الشام فانضمت اليهم جماعة الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين ولعل الموارنه من هؤلاء الوطنيين . فاطلق على هؤلاء جميعهم اسم الجراجمة من باب تسمية الكل بالجزء على عادة الاخباريين العرب .

الموارنـة انتشر اسم الموارنة بعد خمود اخبار المردة في التاريخ العربي وهم عبارة عن زمر ارامية لم يمسها العنصر اليوناني وتمدنه ، هاجرت الى سوريا واقامت خصوصا على مقربة من افامية (قرب انطاكية) في جهات دير مارون ومنه اتخذوا اسمهم ومن ثم انتشروا في وادي العاصي حول معرة النعمان وشيزر وحماه ، وحمص كما اشار الى ذلك المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف (ص١٥٣ و١٥٤)

اما مهاجرتهم الى لبنان ومبارحتهم وادي العاصي فهو تملصا من اضطهادات مجاوريهم كاليعاقبة وغيرهم . وقد صادفت مهاجرتهم دخول المردة او الجراجمة الى الشام (٣) الا انه لايعدم وجودهم في بعض المناطق الاخرى كعينتاب وبلاد ما بين النهرين وحلب. وقد هاجر قسم منهم كذلك الى فلسطين لاسيما القدس وكان لهم بها عدة كنائس، ووجدت شرذمة منهم في نواحي العراق ما بين الموصل وبغداد (٤).

---

١) لامانس - تسريح الابصار - المشرق ٥ : ٨٢٨ (٢) المصدر نفسه المشرق ٥ : ٨٣٠

٣) المصدر نفسه المشرق ٦ - ١٣٠، ١٣٤ (٤) المصدر نفسه ٦ - ١٦٧ - ١٧٢

ومن الحوادث التاريخية التي جرت بعد سكنى الموارنة لبنان ماذكره البلاذري وهو شكوى اهل الجبل من عامل بعلبك . وكان الشيخ الامام محمد الاوزاعي ممن دافعوا عنهم وانتصروا لهم . قال البلاذري : "خرج بجبل لبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك فوجه صالح بن علي بن عبد الله بن عباس من قتل مقاتلتهم واقر من بقي منهم على دينه وردهم الى قراهم واجلى قوما من اهل لبنان ". فكتب الاوزاعي الى صالح رسالة طويلة حفظ منها "وقد كان من اجلاء اهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئا لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ماقد علمت ، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم واموالهم وحكم الله تعالى ان "لا تزر وازرة وزر اخرى" (قران كريم) . وهو احق ماوقف عنده ، واقتدى به ، واحق الوصايا ان تحفظ وترعى وصية رسول الله (صلعم) فانه قال : من ظلم معاهدا وكلفه فوق طاقته فانا حجيجه (١)

ويذكر البطريرك مار اسطفان الدويهي عن مختصر ابن القلاعي ان الموارنة كانوا متصلين بملوك الروم البزنطيين يستمدون سلطتهم منهم حتى ان ملكهم المدعو كسرى كان ذا سطوة وباس جرت له وقائع عديدة مع المسلمين وذهب الى القسطنطينيه وقابل ملك الروم وصادف منه احسن قبول ووهب له هبات جليلة واقره على بلاد كسروان وصرفه بسلام (٢) وكانت لهم حوادث اخرى وحروب مع المسلمين سنه ٢٦٢ هـ في ايام المتوكل على الله العباسي (٣) .

ولما دخل الصليبيون البلاد الشاميه ورتبوا امور مدينه انطاكية (٤٩٢ هـ ١٠٩٩ م) وهموا بالمسير الى القدس واتاهم قوم من المردة (الموارنة) ؟ من جبل سير والظنيه (في لبنان الشمالي) وبلاد جبيل وتلك التخوم وعرفوا ورحبوا بهم . وسار معهم جماعة يهدونهم الطرقات والمسالك حتى اوصلوهم الى القدس وكانوا ينجدونهم في مواقعهم مع

---

١) البلاذري ص ١٦٢ ، الاموال ابي عبيده ص ١٧٠ (٢) تاريخ الطائفة المارونية ص ٩١

(٣) التاريخ الاكبر عن الدويهي ص ١٠٠

المسلمين ويمدونهم بالميرة والذخائر وما لديهم من صنوف السلاح .(١)

وقد ساعد الموارنة كذلك الصليبيين في حصارهم لبيروت وفتحها ، وتتابع عطفهم على الصليبيين ومساعدتهم لهم طيلة الحروب الصليبية وكانوا لهم خبرعون وسند من اهل البلاد (٢)

ومما يشهد بهذا الكتاب الذى لاندرى مبلغ صحته والذى ارسله الملك لويس التاسع سنه ٦٤٨ هـ ١٢٤٩ م - وقد كان بعكار - الى امير الموارنه في جبل لبنان ورد فيه : "الى امير الموارنه في جبل لبنان والى بطريرك واساقفة الطائفة المذكورة : ان قلبنا امتلأ فرحا لما راينا ولدكم سمعان قد اتى مع ٢٥ الفا حاملا الينا شهادة حاستكم الحبيه ومقدما لنا الهدايا الفاخرة ، وبالحقيقة أن محبتنا الخالصة التى ابتدانا ان نستشعرها نحو امة الموارنة ايام حلولنا في قبرص حيث هم مقيمون قد تضاعفت اليوم بزيادة ونحن موقنون ان هذه الامة التى قامت تحت اسم القديس مارون هى قسم من الامة الفرنسية لان محبتها للفرنسيين تشبه محبة الفرنسيين بعضهم لبعض . وعليه يجب من قبيل العدل ان تتمتعوا انتم وجميع الموارنة بنفس الحماية التى يتمتع بها الفرنسيون من جانبا وان تقبلوا في الوظائف كما هم يقبلون . ولذلك فاننا نستحثك ايها الامير الربيع الشان على ان تسعى كل السعي فيما يعود على اهل لبنان بالسعادة الخ . . . ."(٣)

وقد نبغ كثير من الرجال الموارنة وكان لهم بعض الشان في البلاط العباسي منهم " ثوفيل بن توما النصراني المنجم الرهاوي وهو رئيس منجمي المهدى ، وله كتاب تاريخ حسن . ونقل كتاب اميروس الشاعر على فتح مدينه ايليون في قديم الدهر من اليونانية الى السريانية بغاية مايكون من الفصاحة (٤) ومنهم القس ابو الفرج (٥٣٥ هـ) المعروف بابن الطبيب في العراق ، ترجم كتاب الانجيل ترجمة فصيحة وشرح كتاب

---

١) الدويهي - تاريخ المسلمين - عن كتابه تاريخ الطائفة المارونية ص١٠١ - ١٠٢

٢) انظر راجع الدويهي ص٩٧-١١١ (٣) بوديكور عن الدويهي ص ١١٠-١١١

٤) ابن العبرى - مختصر الدول ص٢١٩ -

ارسطاطاليس وكتب جالينوس في امور الحكمة والمنطق والطب شرحا وانبا [1] .

الانباط دخل العرب مصر وكان جل سكانها من الانباط النصارى وقليل من الروم البزنطيين حكام البلاد . قال المقريزي : " ان ارض مصر لما دخلها المسلمون كانت باجمعها مشحونة بالنصارى وهم على قسمين متباينين في اجناسهم وعقائدهم ، احدهما اهل الدولة وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم ورايهم وديانتهم باجمعهم ديانة الملكية .... والقسم الاخر عامة مصر ويقال لهم القبط وانسابهم مختلطة لايكاد يتميز منهم القبطي من الحبشي من النوبي من الاسرائيلي الاصل من غيره ، وكلهم يعاقبة ، فمنهم كتاب المملكة ومنهم التجار والباعة ومنهم الاساقفة والقسوس ونحوهم ، ومنهم اهل الفلاحة والزرع ومنهم اهل الخدمة والمهنة وبينهم وبين الملكية اهل الدولة من العداوة مايمنع مناكحتهم ويوجب قتل بعضهم بعضا " [2] .

لاقي القبط قبل الفتح العربي لبلاد مصر ضروب الاضطهاد من حكامهم البزنطيين لسبب النزاع الذى كان قائما بين الكنائس المسيحية حول طبيعة السيد المسيح . وقد نشأت اذ ذاك كنيستان خرجتا على الكنيسة الرسمية الملكية ، كنيسة النساطرة بان للمسيح طبيعتين مستقلتين وكنيسة اليعاقبة القائلة بان للمسيح طبيعة واحدة الهية . وكان انباط مصر من القائلين بان للمسيح طبيعة واحدة الهية . ولما احتدم النزاع بين الكنيستين حاول الامبراطور البزنطي هرقل ان يزيل الخلاف وذلك بنشره عقيدة جديدة توهي ان للسيد المسيح طبيعتين وكلتا هاتين الطبيعتين متحدتان في ارادة واحدة ومشيئة واحدة . ولكن هذا الحل الاخير بدلا من ان يزيل الخلاف زاد في شدته فانبثقت كنيسة اخرى جديدة سمي اتباعها باصحاب المشيئة الواحدة .

---

(١) اصيبعة ج ١ ص ٢٢٩ ، الدويهي ص ١٠٤ (٢) الخطط ج ٢ ص ٤٩٢

ولما نشر هرقل قوانينه الكنسية هذه انتدب سايروس Cyrus او المقوقس كما تدعوه المصادر العربية - وكان رئيس اساقفة احدى المدن في بلاد القوقاز - وارسله الى مصر لينفذ قوانينه السياسية وشرائعه الدينية فسعى هذا لتطبيقها باشد الوسائل وزاد على ذلك بأن فرض على السكان الضرائب الفادحة ليرسل الاموال الكافية الى هرقل التي تحملها بسبب الحملات الفارسية على بلاد الشام ومصر . ولكن القبط رفضوا تعاليمه وقاوموا البدعة الجديدة فاضطهدوا اضطهادا شديدا دام عشر سنوات شتتوا فيه وشردوا وعذبوا وهدمت كنائسهم . يقول ساويرس "لقد كانت هذه السنين هي المدة التي حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر . وقد فتن في اثنائها كثير من الناس لما نالهم عسف الاضطهاد والظلم ومن شدة العذاب الذي كان يوقعه هرقل بهم لكي يحولهم على الرغم منهم الى مذهب خلقيدونيه" (١)

فكان من الطبيعي اذن ان يرحب القبط بالفتح العربي وبالعرب الذين رأوا فيهم خلاصا لهم من الاضطهاد ، وواطأوا المسلمين على الروم وسهلوا لهم الفتح ، من هذا ماذكره ابن عبد الحكم عن خروج جماعة من رؤساء القبط مع عمرو بن العاص والمسلمين وقد اصلحوا لهم الطرق واقاموا لهم الجسور والاسواق . وصاروا لهم اعوانا على ما ارادوا من قتال الروم (٢) . ولما حاصر عمرو بن العاص الاسكندرية وجد اهلها مستعدين لقتاله الا ان القبط في ذلك كانوا يحبون الموادعة (٣) . ويذكر ابن عبد الحكم ان رجلا من القبط يقال له ابن بسامه كان خفيرا لاحدى ابواب الاسكندرية "فسأل عمرو بن العاص ان يؤمنه على نفسه وارضه واهل بيته ويفتح له الباب فاجابه عمرو الى ذلك" ففتح له ابن بسامة الباب فدخل (٤) .

---

(١) بتلر فتح العرب لمصر ص١٦٣ الترجمة العربية ، Wismar 84 - 85
ميخائيل السرياني ١١ ص٤١٢ - ٤١٣ عن Wismar (٢) فتوح مصر ص ٧٣ ، زيدان ٤ ، ١٠٨
(٣) البلاذري ص ٢٢٠ (٤) فتوح مصر ص ٨٠ .

لم يتعرض العرب على عادتهم لاهل البلاد القبط في شيء من دينهم وسائر معاملاتهم وجعلوا امورهم لانفسهم وحتى في معاملاتهم قضاة منهم . وقد ساوى المسلمون كذلك بين الجميع من قبط وملكانية ورعوهما بحمايتهم . حتى ان اعمال الدولة في بلاد مصر اصبحت جميعها للمسيحيين الاقباط بعد ان بارح العمال الروم الديار المصرية فجعل العرب في مكانهم عمالا من القبط .(١)

وكانت الجزية التي وضعها عمرو بن العاص على اهل مصر خفيفة جدا بالنسبة الى ما كان يتقاضاه الروم منهم : ديناران على كل رجل الى جانب ما يؤخذ من خراج ارضهم .(٢) ولكن الظاهر ان الحالة ساءت بعد انقضاء عهد الراشدين فكلف القبط بالضرائب فوق طاقتهم . كتب معاوية الى عامله في مصر ان يزيد على كل امرئ من القبط قيراطا فكتب اليه : "كيف ازيد وفي عهدهم ان لا يزاد عليهم ."(٣) فقد كان عمرو بن العاص كتب لهم انهم آمنون على اموالهم ودمائهم ونسائهم واولادهم لا يباع منهم احد وفرض عليهم خراجا لا يزاد عليهم وان يدفع عنهم خوف عدوهم .(٤)

ولما اشتد عسف الحكام وعمال الخراج انتقض القبط على الدولة وقاموا بعدة ثورات على الامويين . ففي سنة ١٠٧ هـ . في خلافة هشام بن عبد الملك "لما ولي مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان اشتد على النصارى واقتدى به قرة بن شريك ايضا في ولايته على مصر وانزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها (٥) . وكان عبد الله بن الحبحاب متولي الخراج كتب الى هشام بن عبد الملك "بان ارض مصر تحتمل الزيادة فزاد على كل دينار قيراطا ، فانتقضت كورة (تنودمي) ؟ وقربيط وطرابية وعامة الحوف الشرقي ، فبعث اليهم الحر بن يوسف امير مصر بأهل الديوان فقتل منهم بشرا كثيرا وذلك اول انتقاض من القبط بمصر"(٦) . وحدث مثل ذلك على يد اسامة ابن زيد

---

(١) زيدان ج ١ ص ٦٩ ، بتلر ص ٣٩١ ، (٢) البلاذري ص ٢١٨ ، (٣) المصدر نفسه ص ٢١٧

(٤) المصدر نفسه ص ٢١٨ (٥) المقريزي ج ٢ ص ٤٩٣ ، (٦) المصدر نفسه ج ١ ، ص ٧٨ . الكندي ٧٣ ، ٩٤ .

التنوخي متولي الخراج فقد اوقع بالنصارى واخذ اموالهم . ويلاحظ في زمانه كثرة الالتجاء الى الرهبنة فاراد ان يمنع ذلك لانه يضر في الجزية التي اعفى منها الرهبان حسب شروط الصلح بين المسلمين والنصارى عند الفتح فقام باحصاء الرهبان ووسم ايديهم بحلقة حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه ، فكل من وجد بغير وسم قطع يده . وكتب الى الاعمال بان من وجد من النصارى وليس معه منشور ان يؤخذ منه عشرة دنانير . ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم فضرب اعناق بعضهم . والخليفة يومئذ يزيد بن عبد الملك [1] .

على ان امثال هذه الحوادث لم ترض الخليفة هشام فلما تسنم الخلافة كتب الى مصر بان يجرى النصارى على عوايدهم وما بايديهم من العهد [2] . ولم يبطل العمل بهذا الامر وعاد العمال الى عسفهم وظلمهم . منهم حنظلة بن صفوان الذي تشدد كثيرا عليهم وزاد في الخراج واحصى النساء والبهائم ، وجعل على كل نصراني وسما صورة اسد وتتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده [3] .

ثم خروج القبط على الدولة ففي سنة ١٣٢ هـ ، خرج قبط سمنود بالوجه البحرى فحاربهم ابو عون والي مصر وقتلهم [4] . وفي سنة ١٣٤ خالفت قبط الرشيد فبعث اليهم مروان بن محمد لما قدم مصر من قاتلهم وهزمهم [5] .

وقد استمرت هذه الثورات حتى العصر العباسي بين (١٤٤ - ١٥٢ هـ) وكان خروج القبط بناحية سمنها بالوجه البحرى فجهز اليهم يزيد بن حاتم وانيها جيشا كثيفا فقاتله القبط وكسروه وانهزم الجيش فاشتد البلاء على النصارى وهدمت كنائسهم [6] .

وفي حدود سنة ١٥٦ هـ خرج القبط في مصر على واليهم موسى بن علي بن رباح المصرى وتجمعوا ببعض البلاد ، فبعث موسى هذا بعسكر فقاتلوهم حتى هزموهم وقتل منهم جماعة وعفى عن جماعة

---

(١) المقريزى ج ٢ ص ٤٩٣ - ٤٩٤ ، (٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٩٣ ، (٣) المصدر نفسه ج ٢ ، ٤٩٤ ، الكندى ص ٨١ (٤) تغرى بردى ج ١ ص ٣٢٥ ، الكندى ص ١٠٢ ،

(٥) المقريزى ج ١ ص ٧٩ ، الكندى ص ٩٤ (٦) تغرى بردى ج ٢ ص ٣ ، المقريزى ج ٢ ص ٤٩٣ الكندى ص ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ .

وبعد امور مصر [1] . وكانت اخر ثورة لهم سنة ٢١٦ هـ . "فاوقع بهم القائد الافشين حتى نزلوا على حكم امير المؤمنين عبد الله المأمون فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والذرية فبيعوا وسبي اكثرهم . ومن حينئذ ذلت القبط في جميع ارض مصر ولم يقدر احد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان ، وغلبهم المسلمون على عامة القرى فرجعوا من المحاربة الى المكايدة ." [2] والعرب انه في تلك السنة (٢١٦ هـ) " انتقض اسفل مصر باسره عرب البلاد وقبطها واخرجوا العمال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيهم . فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب امتدت الى ان قدم الخليفة عبد الله امير المؤمنين المأمون الى مصر (٢١٧ هـ) ... فسخط على عيسى بن منصور الرافقي — وكان على امارة مصر ... وعاقبه عقابا صارما ووبخه قائلا : "لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلتك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتني الخبر حتى تفاقم الامر واضطرب البلد ." [3] هذا ما كان من امر القبط على ان لهم حوادث اخرى كان لها اثر بارز في التاريخ الاسلامي سنذكر على الاخص ما يتعلق منها بالامور الاجتماعية والحياة الثقافية والعمرانية في فصول تلي .

وبهذا نكون حتى الآن قد انتهينا من القاء لمحة موجزة عن تاريخ الاقوام المسيحية في الشام والعراق ومصر عند ظهور الاسلام وبعده لنكون على بينة من الحوادث التي ستمثل على مسرح الحياة في العصر العباسي . فسكان مصر كانوا من النصارى الاقباط مع قسم قليل من بقايا الروم البزنطيين . وسكان الشام والعراق كان معظمهم من بقايا الاراميين الاصليين وبقايا الانباط ، ... يليهم العرب الغساسنة والمناذرة وقبائل اياد وربيعة والنمر فيما بين النهرين ، يتخلل هذا المجموع شتات من امم اخرى كالجراجمة في جبل اللكام والموارنة في جبل لبنان واخلاط من مولدي اليونان والرومان والارمن . يضاف اليها ما هاجر الى البلاد السورية من عناصر اخرى كتناطر الافرنج فيها الحروب الصليبية . [4]

---

(١) تغري بردي ج ٢ ص ٢٦ ، (٢) مقريزي خطط ج ٢ ص ٤٩٤ ج ١ ص ٧٦ ، الكندي ص ١٩٢ ، (٣) المقريزي ج ١ ص ٨١ ، الكندي ص ١٩٢ (٤) زيدان مختارات ج ٣ ص ٨٤—٨٥ الهلال ١٧ : ٤٢٥ .

ويحسن بنا قبل أن نختم هذا البحث أن نذكر ان هذه الشعوب والقبائل النصرانية كانت على مذاهب متباينة ونحل مختلفة ، بسبب ما نشأ من تفسير طبيعة المسيح فانشقت الكنيسة النصرانية على نفسها منذ القرن الخامس الميلادي في مجمع افسس (٤٣١ م) ومجمع خلقدونية (٤٥١)م فجل نصارى الشام كانوا من اليعاقبة القائلين بان للمسيح طبيعة واحدة . ولليعاقبة كذلك بعض الاسقفيات في شمالي الجزيرة العربية . اما النساطرة او القائلين بان للمسيح طبيعتين فمواطنهم في العراق والحيرة وفيما بين النهرين والخليج الفارسي . يضاف الى هاتين الفرقتين اصحاب الكنيسة الرسمية الملكية او اتباع الكنيسة الرومية وهم متفرقون في بعض بلاد الشام ومصر . ثم الموارنة او اصحاب المشيئة الواحدة ويسكنون في جبل لبنان .

على ان تاريخ النصارى في البلاد العربية هو تاريخ النساطرة واليعاقبة بحكم اكثريتهم في البلاد ولم يكن للفرق الاخرى الا تاثير ضئيل بالنسبة للعلاقات التي نشات من احتكاك المسلمين بالنصارى . (١)

---

(١) Shedd P: 20, Appendix III P. 351 البيروني - الاثار الباقية ص ٢٨٨ .

الفصـــــل الثانــــي

العهود التي لطعما العرب للنصارى

ما دخل العرب بلدا من البلدان او نتحوا مدينة من المدن الا وكتبوا لاهلها عهدا بالصلح واماناً على اموالهم وانفسهم . وبذلك اصبح جميع اهل البلاد المفتوحة ذمة في اعناق المسلمين . والذمة في اللغة العهد والامان والضمان ، قيل لهم ذلك لانهم دفعوا الجزية فامنوا على ارواحهم واموالهم . واكثرهم من النصارى واليهود [1] . وقد اطلق عليهم القرآن الكريم اهل الكتاب نسبة الى الكتاب المقدس التوراة والانجيل واوصى بهم خيرا . وتنسب الى النبي محمد (صلعم) اقوال كثيرة تحث على رعاية اهل الذمة ولا سيما النصارى ورهبانهم ومعاملتهم بالرفق والحسنى .

وكان الخلفاء الراشدون اذا ارسلوا جيشا للفتح اوصوه بالرفق لاهل الذمة وان يصالحوهم ويعاهدوهم على الحماية مقابل ما يؤدونه من الجزية عن رؤوسهم . [2] وفي تاريخ الفتوح عهود كثيرة كتبت لاهل الذمة عامة وللنصارى خاصة . منها العهد الذي كتبه النبي محمد (صلعم) الى صاحب العقبة والى اهل اذرح اثناء غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة . ومنها العهود التي كتبها خلفاء النبي وقوادة لاهل الشام ومصر والعراق وفارس . كالعهد الذي لطعة خالد لاهل الشام وابوعبيدة لاهل بعلبك واهل حمص والخليفة عمر لاهل بيت المقدس ، وعمرو بن العاص لاهل مصر وسعد ابن ابي وقاص لاهل السواد وفارس . وغيرها من العهود الاخرى وعرفت هذه العهود جميعها فيما بعد بعهدة عمر بن الخطاب .

ولكن هذه العهود او الشروط الصلحية كانت تختلف شدة ورفقا باختلاف البلاد والاحوال التي فتحت بها فصلح مصر يختلف عن صلح الشام وصلح الشام غير صلح العراق وهكذا [3].

---

(١) البستاني – محيط – ج ١ ص ٧٢٤ (٢) زيدان ج ٤ ص ١٦ ، (٣) المصدر نفسه ج ٤ ، صفحة ٩٧–٩٩

ولما كانت لهذه العهود اهمية تاريخية خاصة لانها اتخذت في العصور التي تلت اساسا للاحكام التي تحدد علاقة النصارى بالدولة الاسلامية دينيا واجتماعيا واقتصاديا ، ولانها كانت المنبع الرئيسي الذى استمد منه الفقهاء والعلماء فيما بعد مجمل احكامهم فيما يتعلق بوضعية النصارى الاجتماعية في الاسلام وعلى نهجها سار الخلفاء والامراء في العصر العباسي خاصة لسن القوانين ورسم الاحكام لايضاح العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، وحيث ان هذه العهود ثانيا ستكون مادة نرجع اليها عندما نعود لتصور الحياة النصرانية في العصر العباسي بمختلف ظروفها ، فسنعنى اذن عناية خاصة بها ونمر على سبيل الايجاز مختلف العهود التي وضعت ونقرر مجمل الاحكام التي لها مساس مباشر او غير مباشر بحياة النصارى في الدولة العربية الاسلامية .

من يراجع العهود التي كتبها النبي لبعض النصارى والعهود الاخرى التي وضعها الخليفة عمر بن الخطاب او قواده يلاحظ اختلافا كبيرا بينها وبين العهدة التي قيل ان عمر بن الخطاب فرضها على اهل الشام . فقد امتازت باقي العهود بعدالتها وبساطتها وسهولتها علاوة على عكس عهدة اهل دمشق التي انفردت بالشدة والقسوة مما يجعلنا نراجع في اصل هذه العهدة التي سكت المؤرخون عن ذكرها عدة قرون الى ان اتى القرن السادس للهجرة فذكرها الطرطوشي في كتابه سراج الملوك عن عبد الرحمن بن غنم ونقلها عنه ابن عساكر على الاكثر في تاريخه الكبير فيما بعد .

فالبلاذرى مثلا لا يورد الا نصا موجزا لعهد خالد بن الوليد الذى وضعه على اهالي دمشق وهذا نصه : "بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق اذا دخلها ، اعطاهم امانا على انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (صلعم) والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية ." (١)

---

(١) البلاذرى ص ١٢١ .

واليك صورة عهد ابي عبيدة الى اهل بعلبك : "بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب امان لفلان بن فلان واهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على انفسهم واموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها وعلى ارحائهم وللروم ان يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا ولا ينزلوا قرية عامرة فاذا مضى شهر ربيع وجمادى الاولى ساروا الى حيث شاؤا ومن اسلم منه فله مالنا وعليه ما علينا . ولتجارهم ان يسافروا الى حيث ارادوا من البلاد التي صالحنا عنها وعلى من اقام منهم الجزية والخراج شهد الله وكفى بالله شهيدا ."(١)

ولا يختلف العهد الذي قطعه ابو عبيده لاهل حمص عن عهد الامان الذي كتبه لاهل بعلبك . وقس على ذلك سائر عهود الفاتحين التي كتبوها لاهل مصر والعراق والجزيرة وفلسطين وفارس وافريقيا والاندلس كما نوهنا سابقا .

واليك الآن نص العهد الذي استكتبه عمر لاهل الشام كما ذكره الطرطوشي لاول مرة فيما نعرف في كتابه سراج الملوك قال : "روى عن عبد الرحمن بن غنم قال كتبنا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى اهل الشام : " بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب لعبد الله عمر امير المؤمنين من نصارى مدينة كذا انكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لانفسنا وذرارينا واموالنا واهل ملتنا وشرطنا لكم على انفسنا ان لا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطا منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار ، وان نوسع ابوابها للمارة وابن السبيل ، وان ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ، ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوسا ولا ندعوا اليه احدا ، ولا نمنع احدا من ذوي قرابتنا الدخول في الاسلام ان اراده وان نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا ارادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ، ولا نركب بالسروج ولا نتقلد بالسيوف ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمور ، وان نجز مقادم

---

(١) البلاذري ص ١٣٠

رؤوسنا ونلزم زينا حيثما كنا وأن نشد الزنانير على أوساطنا ، ولا نظهر صلباننا وكتبنا بشيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا الا ضربا خفيفا ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضره المسلمين ، ولا نخرج شعانيننا ولا باعوثنا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، ولا نتطلع الى منازلهم (فلما اتيت) عمر رضي الله عنه بالكتاب زاد فيه : ولا نضرب احدا من المسلمين — شرطنا ذلك على انفسنا واهل ملتنا وقبلنا عليه الامان فان نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمناه على انفسنا فلا ذمة لنا وقد حل منا ما يحل من اهل المعاندة والشقاق . فكتب اليه عمر ان امض ما سألوه والحق فيه حرفين اشترطهما عليهم مع ما شرطوا على انفسهم ، ان لا يشتروا شيئا من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده " . ويلحق بهذا العهد احكام اخرى تتعلق بالكنائس ذلك ان عمر أمر بهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام ومنع من ان تحدث كنيسة بعد الاسلام ، وأمر ان لا تظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه . (١)

ولا يختلف منطوق هذا النص عن النص الذي ذكره ابن عساكر في تاريخه الكبير ، الجزء الاول صفحة ١٧٨ . على ان ابن عساكر يورد نصا اخرا مطولا عن العباس ابن سهل ذكر ان ابا عبيده اعطاه لاهل دمشق واهل الشام عامة يتفق في كثير من احكامه مع النصوص السالفة الذكر ولا يختلف عنها الا في الاسلوب والعبارة . وقد لاحظنا الابشيهي يورد هذا النص كذلك في كتابه المستطرف في الجزء الثاني صفحة ١٠٥ .

ومن مقارنة هذه العهدة المذكورة المنسوبة الى عمر مع العهود الاخرى المعطوسة لاهل بعلبك وحمص يلاحظ الاختلاف البين بينهما حتى ان العهدة التي اعطاها عمر بنفسه لاهل بيت المقدس تمتاز ببساطتها وخفتها مثل بقية العهود . واليك نصها : "هذا ما

---

(١) الطرطوشي — سراج الملوك — صفحة ١١٠ ، ١١٢ .

اعطى عبدالله امير المؤمنين اهل ايلياء من الامان ، اعطاهم امانا لانفسهم واموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ... ولا يسكن بايليا معهم احد من اليهود ... وان يعطوا الجزية كما يعطي اهل المدائن .»(١)

ومن هنا ثارت شكوك المؤرخين من ان هذا العهد ليس من عمل عمر بن الخطاب . لان التنافر ظاهر بينه وبين مناقب عمر وعدله وحرية ضميره ومع ما عرف فيه من اطلاقه حرية الدين في المملكة العربية وابقاء اهل الذمة على ما كانوا عليه من امور دينهم وطقوسهم وكنائسهم (٢). وقد قضى عليه العدل ان ينصف نصارى العرب كقبيلة تغلب فيخفف عليها الجزية ويبدلها بالصدقة ثانيا : لان هذه المعاهدة تعكس لنا علاقة دنيئة بين المسلمين والنصارى لم تكن معروفة او معهودة في زمن عمر بن الخطاب او في عهد الفتح (٣) . ثالثا : ان من شروط الرواية العلمية الصحيحة التي تروى بعد زمان طويل جدا عن زمن الحوادث ان لا تقبل . فلو كانت موجودة لنوه بها على الاقل بعض المؤرخين المتقدمين . وقد يكون الطرطوشي نقلها عن مؤرخ اخر غيره وهذا عن اخر سبقه لكن التاريخ ساكت عن هذا الامر . فنسبة المعاهدة الى عمر بن الخطاب مردود عليها ما لم تؤيده المصادر القديمة الثابتة . والحقيقة ان لا احد يعرف ما هي المعاهدة التي وضعها عمر بن الخطاب ، وعلى الاغلب ان بعض العهد وشروط الصلح ربما وضعت فيما بعد وتوجوها باسمه . او ربما كانت من عمل المدارس الفقهية في السنين المتاخرة ، الغاية منها استخلاص نموذج عام للشروط التي يجب على النصارى اتباعها والتي تحدد علاقتهم بالشرع الاسلامي نظريا فحسب .

وها انا اورد على سبيل المثال انموذجا جامعا لكل الاحكام والقوانين والفرائض التي وضعت

---

١) الطبري ١ : ٢٤٠٥ .

٢) زيدان ج ٤ ص ١٠٤

٣) Tritton P. 10   Arnold P.57.

على النصارى حسبما جاءت في تشريع الفقهاء . ويلاحظ ان القسم الاعظم من هذه الاحكام لم يكن معروفا في صدر الاسلام وفي بداية العصر الاموي وانما هو من اجتهاد اصحاب المذاهب الفقهية في العصر العباسي .

يقول الشافعي : "اذا اراد الامام ان يكتب كتاب صلح على الجزية كتب :
بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب كتبه عبد الله فلان امير المؤمنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الاول سنه كذا وكذا ، لفلان بن فلان النصراني الساكن بلد كذا ، واهل النصرانية من اهل بلد كذا ، انك سالتني ان اؤمنك واهل النصرانية من اهل بلد كذا واعقد لك ولهم ما يعقد لاهل الذمة على ما اعطيتني وشرطت لك وله وعليك وعليه ، فاجبتك ان عقدت لك ولهم علي وعلى جميع المسلمين الامان ما استقمت واستقاموا بجميع ما اخذنا عليكم ، وذلك ان يجرى عليكم حكم الاسلام لاحكم خلافه بحال يلزمكموه ولايكون لكم ان تمتنعوا منه في شيء رايناه نلزمكم به وعلى ان احدا منكم ان ذكر محمدا صلى الله عليه وسلم او كتاب الله عز وجل اودينه بمالاينبغي ان يذكره به فقد برئت منه ذمة الله ثم ذمة امير المؤمنين وجميع المسلمين ونقل ما اعطى عليه الامان وحل لامير المؤمنين ماله ودمه كما تحل اموال اهل الحرب ودماؤهم وعلى ان احدا من رجالهم ان اصاب مسلمة بزنا اواسم نكاح اوقطع الطريق على مسلم اوفتن مسلما عن دينه اواعان المحاربين على المسلمين بقتال اودلالة على عورة المسلمين وايواء لعيونهم فقد نقض عهده ، واحل دمه وماله ، وان نال مسلما بما دون هذا في ماله او عرضه اونال به لا من على مسلم منعه من كافر له عهد اوامان لزمه فيه الحكم ."
وهذا النص طويل جدا يعالج جميع القضايا بين المسلمين والنصارى من بيوع وتجارة واحكام شخصية واجتماعية تتعلق بالميراث والدية والزواج واقامة المشاعر الدينية واللباس والركوب وما يتعلق بهما مع مقدار الجزية التي يؤديها والاحكام التي وردت بشانها . لم يتطرق الى ما اذا كان يجوز للنصارى دخول مكة والمدينة والجوامع . ويختم الشافعي نصه هذا بوجوب

ضيافة النصارى لمن يمر بهم من المسلمين ثلاثة ايام . وجميع الاحكام التى وردت فى نص الشافعي تكاد تتفق مع كثير من الشروط التى وردت فى عهد عمر بن الخطاب التى ذكرها الطرطوشي كما نوهنا سالفا .[1]

هذه هي الصيغة النظرية العامة التى يرجع اليها الخلفاء والوزراء والقضاة بعض الاحيان عندما ياتون ليحددون مختلف الاحكام لما تثور المشاكل بين النصارى والدولة خاصة وبينهم وبين عامة المسلمين .

وستكون غايتنا الوحيدة فى الفصول التالية تتبع اثار هذه التعاليم السنن والقرائن وظروف وضعها على قدر المستطاع . والصعوبة الكبرى التى نجابهها هى ان اكثر المؤرخين المسلمين لم يهتموا قليلا او كثيرا بقضايا اهل الذمة . والصعوبة الثانية هى ان هذه الاحكام هى غالبا ما تعبر عن ارادة الحاكم واهوائه . فالقرائن الموضوعة تطاع ويبقى معمولا بها ما دام الامام او المشرع مهتما او مستبدا منها ، ولما يشتغل باله فى مشكلة تثور حول موضوع ما او عندما يركبه هواه ، تعود الاحكام الى سابق عهدها ، وسنرى امثلة كثيرة فيما بعد تؤيد مقدار العمل بالسنن والاحكام الموضوعة .

وقبل ختام البحث لابد لنا من ملاحظة عامة : انه نظريا على الدمي او النصراني ان يقوم بتحقيق جميع الشروط التى تقيده بها المعاهدة اذا ما اراد صيانة امواله وحماية نفسه وهناك عدة اعمال ينتقض بها عهده ، وتجعله خارج الحماية الاسلامية وقد اختلف ائمة المذاهب فى هوية ونوع هذه الاعمال . فمالك والشافعي واحمد بن حنبل يقررون ان تاخر النصراني عن دفع الجزية ينتقض عهده ، اما ابو حنيفه فلا يرتاى هذا الراى .[2] ويورد ابن حنبل ومالك اربعة اسباب تجعل المسلمين فى حل من عهودهم مع الذمي : ذكر الله عز وجل بما لا

---

١) الشافعي - كتاب الام - ج ٤ ص ١١٨ - ١١٩

٢) الميزان - الشعراني - ج ٢ ص ١٧٢

يليق بجلاله او ذكر كتابه المجيد او دينه القويم او ذكر رسوله الكريم بمالاينبغي (١).

وقال ابن القاسم وهو من اصحاب مالك ينتقض عهد اهل الذمة بثمانية اشياء :

(١) ان يجمعوا على قتال المسلمين .

(٢) ان يزني احدهم بمسلمة .

(٣) ان يصيب مسلمة بنكاح .

(٤) ان يفتن مسلما عن دينه .

(٥) ان يقطع على مسلم الطريق .

(٦) او يؤوي للمشركين جاسوسا .

(٧) او يعين المسلمين بدلالة فيكاتب المشركين باخبار المسلمين

(٨) او يقتل مسلما او مسلمة عمدا .... (٢)

اما ابو حنيفه فيرى "انه لاينتقض عهد اهل الذمة بفعل ما يجب عليهم تركه والكف عنه مما فيه ضرر على المسلمين او احادهم في نفس او مال " معناه انه لايوافق على جعل هذه الاشياء الثمانية ناقضة لعهد الذمي (٣)

وستبرهن لنا الوقائع فيما بعد ان لا قيمة للاحكام النظرية في غالب الاحيان للتقليد ما يرجع اليها الحاكم او العامل في سياسته ليس بالنسبة الى النصارى فحسب بل بالنسبة الى المسلمين انفسهم . وكثيرا ما يجني المشرف على الامر اتباع مايراه صالحا وملائما للواقع والضرورة او حسبما توحي له اهواؤه بقطع النظر عن ما اوجبه الاجتهاد او توجبه الاحكام الاسلامية الموضوعة .

---

١) الشعراني - الميزان ج ٢ ص ١٧٤ Tritton P. 16

٢) الشعراني - الميزان ج ٢ ص ١٧٤

٣) " " " " " "

الفصل الثالث

حال النصارى قبل العصر العباسي

١) موقف القران الكريم من النصارى

ان اهم مورد للمسلمين في استقاء اصول شريعتهم واحكام دينهم هو القران بالدرجة الاولى ثم الحديث او السنة . فجميع السنن والقوانين والاحكام الفقهية المستحدثة في الاسلام في عصر الراشدين والامويين والعباسيين ترجع في اساسها الى القران والسنة . وقد خلف لنا العلماء والفقهاء مادة غزيرة تناولوا فيها كل ناحية من نواحي الشرع الاسلامي واشبعوه درسا واجتهادا وتمحيصا . لذلك يتحتم علينا قبل ان نبسط وضعية النصارى الاجتماعية في العصر العباسي ان نعود الى القران والسنة لندرس على ضوئهما الموقف الذي اتخذ فيهما تجاه النصارى . وخير لنا الرجوع الى الاصل لتحديد هذا الموقف نظرا لتطور الاحكام الوضعية التي فرضت في مختلف العصور الاسلامية . ولنرى ثانيا فيما اذا كان هناك تسامح او لا .

ولعل من اصعب الامور التي تجابه الكاتب اليوم ، استنباط الاحكام القرانية العامة عن النصارى ونظرتها الخاصة اليهم في مختلف درجاتها واطوارها .

لاشك ان القران لايتخذ موقفا واحدا مماثلا من جميع النصارى الذين احتك بهم النبي في مكه اولا في ابتداء الدعوة ثم بوفود هم التي اتت من الاقطار الاخرى ثم الذين اتصل بهم في المدينه ابان نجاح دعوته ، ثم في كتبه وعهوده الى نصارى شمالي الجزيرة وشرقها . ففي كثير من الايات نرى القران يضع المؤمنين من النصارى واليهود في مصاف مؤمني المسلمين : "ان الذين امنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من امن بالله واليوم

الاخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون ٢-٥٩" .
وفي القران ايات كثيرة توصي بهم خيرا وتحث على معاملتهم بالحسنى "لااكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها والله سميع عليم ٢-٢٥٧) . فهذه الاية تدل دلالة صريحة ان الاسلام لم يفرض فرضا على الناس وتشهد على مبدأ التسامح والرافة الذى قرره الدين الاسلامي (١) .
وقد اورد القران بعض الايات التى يلمح فيها الى مبدأ المساواة بين الاديان "ولو ان اهل الكتاب امنوا واتقوا لكفرنا عنهم سياتهم ولادخلناهم جنات النعيم ولو انهم اقاموا التورات والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم منهم امة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ٥-٧٠" وقد اختلف في تفسير هذه الاية فالبيضاوى يقول عن من "امنوا" اى من امن بمحمد وكذلك في تفسير الجلالين . (٢) . الا ان الايات التى تلت هذه الاية تنفي نورا على المعنى المفهوم ... "قل يا اهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوارة والانجيل وما انزل اليكم من ربكم ... ان الذين امنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من امن بالله واليوم الاخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون ٥-٧٢، ٧٣"
ثم تبحثهما هذه الاية التى فيها القول الفصل "لتجدن اشد الناس عداوة للذين امنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن اقربهم مودة للذين امنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لايستكبرون ٥ : ٨٥ (٣)
ولقد نص القران كذلك في نفس السورة - سورة المائدة - وفي ايات سابقة لما ذكرناه انفا لكل دين شرعة ومنهاجا الا انه رفع الدين الاسلامي وجعله مهيمنا على غيره "وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم

---

١) Ameer Ali Spirit p.212 البيضاوى ج ١ ص١٣٢
٢) البيضاوى ج ١ ص ٢٦٦ ، الجلالين ص ٩٧
٣) Sell P. 115

عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون « ٥ : ٥٢ـ٥٤)

والقرآن عدا عن عطفه على النصارى يشير كذلك الى اعتدال بعض اتباع المسيح في معاملاتهم ورأفتهم بغيرهم "ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ~~ورحمة~~ ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله ٥٧ : ٢٧ " وان من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما انزل اليكم وما انزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا . اولئك لهم اجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب ٣ : ١٩٨) . وقد نزلت هذه الاية في بعض نصارى الحبشة .(١)

هذه الايات وامثالها التي تحث على رعاية النصارى والعطف عليهم والتي يشتم منها روح التسامح ، نزلت على النبي وهو في المدينة وقد اجتمع حوله المهاجرون والانصار وتأيدت بهم شوكة الاسلام واصبحت له عزة ومنعة . وقد اعتاد المؤرخون والمستشرقون منهم تقسيم دعوة محمد الى الاسلام الى دورين : الدور الاول الدور المكي والدور الثاني الدور المدني . والغريب ان كثيرا منهم يصرح ان السور المكية هي اكثر تسامحا وعدلا من السور المدنية ويعللون ذلك بان محمدا كان بحاجة الى كسب الانصار والمؤيدين خصوصا من اهل الكتاب (٢). وقد اعوزت الاستاذ "وايزمر" Wismar الحجة فقال عن الآية "لا اكراه في الدين "انها محرفة عن موضعها اي انه يريد ها ان تكون مكية وهي مدنية ، لان محمدا في مكة كان بحاجة الى من يعضده ويؤازره فاوجبت له هذه الآية (٣) . ومع اننا لا ننكر ان في بعض الآيات المكية تسامحا ورفقا فلا حاجة لتنبيه القارئ الى الآيات المدنية السالفة الذكر التي حددت موقف القرآن من بعض النصارى . فمحمد كما يقول آرنولد Arnold لم يطلق في الدور المدني روح التسامح التي اشترعها في مكة كما يقول بعض الغربيين ويستعمل كل سلطته وقوته

---

(١) الجلالين ص ٦٣ ، البيضاوي ج ١ ص ١٩٢ ، (٢) راجع Sell p66-67

(٣) Wismar p. 4, 5

وحذاقته السياسية ليدعم نفسه ويفرض آراءه (١)

ويختلف نظر القرآن الى النصارى عن نظرته الى اليهود الذين هاجمهم فيما بعد بشدة واضطر النبي أن يقارعهم ويحاربهم ليس في سبيل تحويلهم الى الاسلام بل لانهم كانوا يشكلون خطرا على الدعوة الاسلامية التي كان يريدها النبي خالصة للاسلام في الجزيرة العربية وليس النصارى كذلك . ولم يتصل النبي محمد (صلعم) بالنصارى ويحتك بهم احتكاكا تاما الا عندما نمت قوته وتأيدت دعوته فكان ان وقف القرآن منهم هذا الموقف الذى راينا طرفا منه . وسنرى فيما بعد موقف النبي نفسه منهم عندما حالفهم وارسل اليهم الوفود وكتب لهم العهود (٢) .

ولقد تنبه لا سيد امير علي الى موقف القرآن فقال : هذه هي وصايا مشرع اتهم بالتعصب وعدم التسامح وعلينا ان نتذكر ان هذه الايات لم يقم للعمل بها متحمس لا قوة له او فيلسوف حالم شلت حركته بضغط القوة المعاكسة ولكنها اعلان رجل في اوج قوته يرأس حكومة قوية منظمة وهو قادر على تدعيم عقائده بحد سيفه القاطع لو شاء . (٣)

لا من الواضح كما قلنا ان القران اتى باحكام كثيرة مختلفة بحق النصارى . فالى جانب تلك الايات التي ذكرناها ايات اخرى تشددت على النصارى وارتابت في سلوكهم وفرضت عليهم الفروض المادية . واولى هذه الايات التي تميزت بنظرة القران السلبية هذه: " قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بافواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله انى يؤفكون . اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا لااله الا هو سبحانه عما يشركون " ٩:٢٩، ٣١

المتفق عليه عند جميع المحدثين والمؤرخين ان سورة التوبة او براءة الذى تضمنت هذه

---

١) Arnold p. 34 - Becker p. 26-27

٢) راجع Shedd p. 101-102

٣) Ameer Ali p. 212

الآيات هي آخر ما نزل على النبي من السور القرآنية بعد غزوة تبوك سنة ٦٣١ م · ويعتقد سيل ان هذه الآيات تقرر رأيا نهائيا وموقفا فاصلا لمستقبل العلاقات بين اهل الاسلام واتباع الديانات الاخرى · اما الاستاذ وايزمر فيقول "من الواضح ان الموقف الصلحي تجاه اليهود والنصارى قد طلقه النبي محمد في هذه الآيات . (١)

والظاهر من معنى الآية الاولى ان القرآن تشدد على النصارى واليهود الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدينون دين الحق ولم يحصر النصارى باجمعهم · وعلى الرغم من انه قد عم القول في الآية التالية فاستنكر قول اليهود بان عزير ابن الله وقول النصارى بان المسيح ابن الله ، فالآية الاولى تعين نظرته الى النصارى كأناس كان لهم اتصال واعمال مع النبي في حياتهم العامة · اما في الآية الثانية فانه لم يتعرض الى الاعمال وانما تعداها الى مبدأ الديانة نفسها يهاجم الدين المسيحي واليهودي بجعلهما عزير ابن الله والمسيح ابن الله والذي فيه اشراك شديد الاسلام ولم يقره "قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد ." (قرآن) فعلينا ان نفرق دوما اذن بين نظرة القرآن الى النصارى كافراد وجماعات وبين نظرته الى مبدأ ديانتهم في اساسها الشرعي حسب العقيدة الاسلامية (٢) .

ويجب ان لا ننسى ثانية ونحن نعالج هذا الموضوع شدة وجهد عراك الحياة والموت الذي اشتبك به الاسلام عندما اذيعت هذه الآيات ، وما نتج عن هذا العراك من الافعال المزرية التي قام بها المشركون الوثنيون وساهم فيها اليهود وبعض النصارى ليفسدوا ويضللوا المسلمين في عقيدتهم الجديدة ، في ذلك الوقت كان مفروضا على المشرع الاعظم ان ينذر الذين اتبعوا هدايته من كيد وعداء اهل المذاهب الاخرى . (٣)

فتتبع التاريخ اذن والتدقيق في ظروف نزول الآيات واسباب نزولها يبرر الى حد ما اختلاف نظر القرآن الى اهل الكتاب ونظره الى الديانات الكتابية بذاتها من ناحية ثانية ولا يدع مجالا للريب في وحدة موقف الاسلام وموقف محمد · فقد كان النبي في مكة الى هجرته الى المدينة

---

(١) Sell p. 220-21 Wismar 13

(٢) Hughes P. 54

(٣) Ameer Aly p. 272

وهو يتصف بروح العدل والتسامح طبقا لما يوحى اليه ، ويخص النصارى المؤمنين الطائعين لاحكام الانجيل بعطفه ورعايته ولم يتشدد الا على من نبذ تعاليمه الاولى واشرك بالله وانكر اليوم الآخر" ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم " . ومن الذين قالوا انا نصارى اخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ٥: ١٧ " . " والذين اتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون " ٢: ١٤٢

واذا كان القرآن قد عرف فضل الذين عطفوا على العقيدة الجديدة ولم يناهضوها من النصارى وكانوا اقرب مودة للمؤمنين من غيرهم . " وان منهم لمن يؤمن بالله وما انزل اليكم وما انزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا اولئك لهم اجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب " [III] : ١٩٨ . واشتد على الذين عادوا النبي والمسلمين .. فان حنقه على الدين المسيحي بذاته لم يتغير ولم يتبدل جريا مع تبدل الظروف والاحوال . فالمسيح ابن مريم عبد الله اتاه الكتاب وجعله نبيا وجعله مباركا اينما كان واوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيا . ولقد ذهب وفد من نصارى نجران الى النبي يجادلونه في الله وفي بنوة عيسى لله من قبل ان تنزل سورة التوبة (براءة) بزمن طويل ، ويسألون محمدا : ان عيسى امه مريم فمن ابوه ؟ وفي ذلك نزل قوله تعالى في سورة آل عمران : " اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي " ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم الي " مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . فاما الذين كفروا فاعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والاخرة وما لهم من ناصرين . واما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم والله لا يحب الظالمين . ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . ان مثل عيسى عند الله كمثل ادم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . ان هذا لهو القصص الحق وما من اله الا الله وان

الله لهو العزيز الحكيم . فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين . قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون ." III ٤٨ — ٥٨ [١] .

فالقرآن في هذه الايات كذلك يعاتب اهل الكتاب النصارى — لانهم لم يصدون عن سبيل الله من آمن ولم يكفرون بايات الله وهي هي التي جاء بها عيسى وجاء بها موسى وجاء بها ابراهيم قبل ان تحرف عن مواضعها وقبل ان يوجهها اهل التأويل او المعرضين بما يوافق اهواءهم واعراضهم [٢] وفي صورة المائدة يقول تعالى " لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم . افلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر انى يؤفكون" . V ؛ ٧٢ — ٧٩ . ثم يتبع هذه الآيات في سورة المائدة نفسها تبيان العرض نفسه . "واذ قال الله يا عيسى ابن مريم انت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق . ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك انك انت علام الغيوب ." V ؛ ١١٦ [٣] .

الخلاصة كما يقول الاستاذ هيكل ان الآيات "التي نزلت في سورة التوبة وتحدثت عن اهل الكتاب لم تتحدث عنهم في ايمانهم بالمسيح ابن مريم وانما تحدثت عنهم في شركهم بالله وفي اكلهم اموال الناس بالباطل وفي كنزهم الذهب والفضة ، والاسلام يرى ذلك خروجا من اهل الكتاب على دين عيسى . يجعلهم يحلون ما حرم الله ويصنعون صنيع من لا يؤمن بالله ولا باليوم الاخر وهو مع ذلك يجعل من ايمانهم بالله ، على الرغم من ذلك كله ، شفيعا لهم لا تجوز معه مساواتهم بالوثنيين ، ويكفي معهم ان هم اصروا على ان يجعلوا الله ثالث ثلاثة وعلى

---

(١) هيكل — حياة محمد — ص ٤٥٥، ابن سعد ج ١ ق ١ ص ١٠٨ ، (٢) هيكل ص ٤٥٦

(٣) المصدر نفسه ص ٤٥٦ .

ان يحلوا ما حرم الله ، ان يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون . (١)

هذه هي خلاصة احكام القرآن التي اطلقها على النصارى واوصى محمدا والمسلمين بالعمل بها . بقي علينا الآن ان نعرض على سبيل الايجاز احكام النبي محمد النظرية والعملية - في حديثه وعهوده ومعاملاته مع النصارى الذين عرفهم او اتصل بهم .

. . . .

٢) النبي محمد والنصارى :-

اذا كانت نظرة القرآن الى النصارى تختلف باختلاف الجماعات النصرانية من حيث تأييدها للدعوة النبوية او هدمه واذا كان القرآن نفسه قد حث على التسامح نظريا كما رأينا آثاره في احكام النبي محمد واعمال المسلمين طبقا لما اوجبته الشريعة الاسلامية التي يمثل القرآن اصولها .. فالواقع ان موقف المسلمين والنصارى لم يتحدد الا عندما ظهرت شخصية النبي السياسية ممتزجة بشخصيته الدينية التبشيرية ، وذلك عندما توطدت دعائم الاسلام في الجزيرة العربية . تتمثل هذه السياسة الجديدة التي اتبعها محمد في اعماله واقواله : في الدعاوى التي ارسلها الى ملوك النصرانية يدعوها الى الاسلام وفي الوفود النصرانية التي تلقاها طالبة الود والعهد من انحاء الجزيرة ، وفي العهود التي كتبها للاقليات النصرانية في جنوبي الجزيرة وشمالها عندما حطت الجنود العربية الاسلامية في تخومها مؤيدة بقوة الايمـــان الجديد ، وفي احاديثه التي تحاسنهم وتوصي بهم خيرا .

كان بمقدور النبي ان يفرض الاسلام فرضا على القبائل النصرانية المبعثرة هنا وهناك في اطراف الجزيرة بعد ان دانت الجزيرة العربية لحنيفيته ، ولكن تعاليم الاسلام تنص لكل عقيدة جديدة في الحكم الاسلامي حرية الضمير والمعتقد "لا اكراه في الدين" . فمحمد لم يوعظ بالتسامح فقط ولكنه جعله في قانون عام وشريعة ثابتة فاباح لنصارى الجزيرة البقاء على دينا نتم

(١) هيكل ص ٤٥٦ .

للفاء جزية قليلة يدفعونها ليدافع من ورائهم وترعى لهم ذمامهم .

فلما توجه النبي الى تبوك من ارض الشام لغزو من انتهى اليه انه قد تجمع له من الروم البزنطيين والقبائل النصرانية من عاملة ولخم وجذام وغيرهم وذلك في سنة ٩ هـ . (٦٣١ م) لم يلق كيدا فاقام بتبوك لصالحه اهلها على الجزية واتاه يحنة بن رؤبه صاحب ايلة فصالح رسول الله واعطاه الجزية . واتاه اهل جرباء واذرح فاعطوه الجزية وكتب رسول الله (صلعم) لهم كتابا .
كتب ليوحنه بن رؤبه : "بسم الله الرحمن الرحيم هذه امنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن رؤبة واهل ايلة ، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر ، فمن احدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن اخذه من الناس وانه لا يحل ان يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر او بحر . (١)

ولا تختلف الكتب والعهود التي كتبها النبي الى اهل اذرح والجرباء ومقنا عن عهد ايلة ، فقد امنهم وجعلهم في ذمة الله وذمة رسوله وغفر لهم ذنوبهم واجارهم من الظلم والعدوان للقاء جزية يدفعونها من اثمارهم واخشابهم ونخيلهم ، وختم الكتاب بقوله : "فان كم سمعتم واطعتم فعلى رسول الله ان يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ومن ائتمر في بني حبيبة واهل مقنا من المسلمين خيرا فهو خير له ومن اطلعهم بشر فهو شر له وليس عليكم امير الا من انفسكم او من اهل بيت رسول الله وكتب علي ابن ابي طالب في سنة ٩ هـ". (٢) وكذلك فعل النبي مع اكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل . وهو رجل من كندة كان ملكا عليها وكان نصرانيا . وبعد ان افتتح خالد بن الوليد حصن دومة قدم باكيدر على رسول الله فحقن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله فرجع الى قريته.(٣) وقس على ذلك سائر العهود التي قطعها النبي على نفسه لنصارى الجزيرة العربية ويتمثل تسامح النبي باجلى مظاهره في المناقشة التي ثارت بينه

---

(١) ابن هشام ص ٩٠٢ ، البلاذري ص ٥٩ . (٢) البلاذري ص ٦٠ ابن هشام ص ٩٠٢ .

(٣) المصادر نفسها ابن هشام ص ٩٠٣ ، البلاذري ص ٦٣ .

وبين وفد نصارى نجران لما دعاهم الى الاسلام فردوا الدعوة ردا حسنا . ومع كل ذلك فقد كتب لهم النبي عهدا يتميز عن جميع العهود النائية آمنهم به على ارواحهم واموالهم وكنائسهم . وقد راينا صورة كتاب النبي اليهم في درسنا للقبائل النصرانية العربية التي احتك بها العرب المسلمون في زمن الفتح العربي وبعده (١)

واليك ما يقوله المكين ابن العميد المؤرخ النصراني وكان معتمدا في روايته . عن الوفود النصرانية الى النبي محمد "واتاه النصارى من العرب وغيرهم فامنهم وكتب لهم كتبا ، وكذلك اليهود والمجوس والصابئة وغيرهم فبايعوا له واخذوا منه الامان على ان يؤدوا الجزية والخراج والمرامنة بتصديق الانبياء والرسل وما انزل عليهم وان المسيح ابن مريم روح الله وكلمته ورسوله وصدق الانجيل والتوراة " (٢) . وقال في موضع آخر ورد في تواريخ النصارى ان النبي كان "مؤثرا لهم رؤوفا بهم ووفد منهم جماعة وطلبوا منه الامان فضرب عليهم الجزية واحسن اليهم وكتب لهم بالامان وقال لعمر قل لهم ان نفوسهم كنفوسنا واموالهم كاموالنا واعراضهم كاعراضنا (ذكر هذا الحديث صاحب كتاب المهذب واسنده الى مسلم وهو حجة الامام ابي حنيفة في قتل المسلم بالذمي) . ووفد عليه بعض اكبر النصارى فقام له واكرمه فقالوا له في ذلك فقال : اذا اتاكم كريم قوم فاكرموه وهذا كبير قومه . وقال استوصوا بقبط مصر خيرا فان لكم منهم نسبا وصهرا . وقال من ظلم ذميا كان خصمه يوم القيامة . وقال من آذى ذميا فقد آذاني " . (٣)

وجاء في كثير من كتب الحديث والتاريخ ان النبي اوصى بقبط مصر خيرا بقوله : اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما (٤) . وقال في حديث آخر : الله الله في اهل الذمة اهل المدرة السوداء السحم الجعاد فان لهم نسبا وصهرا — يشير الى ام اسماعيل جد العرب ، هاجر قبطية . (٥) . وروى ابو يوسف عن النبي انه قال : "من ظلم

---

(١) راجع ص ٤١-٤٥ Muir, the life of Mohamed p. 458 - 460

(٢) تاريخ المسلمين ص ٣ (٣) المصدر نفسه ص ١١ (٤) ابن عبد الحكم فتوح مصر عن مالك ابن انس ص ٢ (٥) المصدر نفسه ص ٤ .

معاهدا او كلفه فوق طاقته فانا حجيجه .(١) .

وهناك احاديث لا تحصى تروى عن النبي توصي بهم وتحث على معاملتهم بالحسنى . لكن الى جانب هذه الاحاديث التي ذكرناها والى جانب اعمال النبي وعهوده وكتبه التي وصفناها احاديث اخرى تتخذ موقفا آخر من النصارى وتحذر المسلمين منهم . والغريب ان هذه الاحاديث قد ذكرها اكثر ممن يوثق بهم من الفقهاء والمحدثين منها ما رواه مسلم ان رسول الله قال : "اذا كان يوم القيامة دفع الله عز وجل الى كل مسلم يهوديا او نصرانيا فيقول هذا فكاكك من النار"(٢) . وقال : "لا يموت رجل مسلم الا ادخل الله مكانه النار يهوديا او نصرانيا"(٣)

وعن البخاري ومسلم ان رسول الله قال : "اذا سلم عليكم اهل الكتاب فقولوا وعليكم ."(٤) .

وعن مسلم وابن ماجه "لا تبدؤا اليهود والنصارى بالسلام فاذا لقيتم احدهم في طريق فاضطروه الى اضيقه"(٥) .

ونشك في هذه الاحاديث ، هذا على الرغم من انه قد عرف عن النبي انه اذا سلم عليه يهودي يجيبه "وعليك" فقط . اما انه اوصى ان يضطروا الى السير في اضيق الطريق فظاهر انه زيادة من الرواة والمحدثين في العصور المتأخرة ، لان هذا يخالف سياسة النبي التي اتبعها مع النصارى خاصة والتي ذكرنا طرفا منها آنفا فقد رأيناه كيف يحترم وفودهم ويشيعهم تشييعا حسنا .

وعن مالك ان الرسول قال : "قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد لا يبقين دينان بارض العرب ."(٦)

واليك هذا الحديث الذي رواه البخاري عن النبي والذي حدد فيه نوع المساواة التي عومل بها النصارى واليهود فجعل النصارى وسطا بين المسلمين واليهود قال : "انما مثلكم -

---

(١) الخراج ص ١٤٩ ، (٢) صحيح مسلم ج ٨ ص ١٠٤ ، (٣) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٠٥
(٤) صحيح مسلم ج ٧ ص ٣ (××) صحيح البخاري ج ٨ ص ٥٧ ، (٥) صحيح مسلم ج ٧ ص ٥ (ابن ماجه - السنن - ج ٢ ، ٢٠٧ (٦) مالك ، الموطأ ص ٣١١ . رواه مسلم عن عمر بن الخطاب ج ٥ ، ص ١٦٠ .

-اى المسلمين - ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال من يعمل لي الى نصف النهار على قيراط قيراط فعمل اليهود الى نصف النهار على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لي من نصف النهار الى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى من نصف النهار الى صلاة العصر على قيراط قيراط . ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر الى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين الا فانتم الذين يعملون من صلاة العصر الى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ، الا لكم الاجر مرتين . فغضب اليهود والنصارى فقالوا : نحن اكثر عملا واقل عطاء . قال : هل ظلمتكم من حقكم شيئا قالوا لا ، قال : فانه فضلي اعطيه من شئت(١)»

ومما يروى البخارى قال رسول الله(٢) لا تصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا امنا بالله وما انزل الينا وما انزل اليكم » (٢) .

على ان هذه الاحاديث مهما كانت احكامها فهي لا تغير من مفهومنا العام لموقف النبي من النصارى واهل الكتاب .

اما وقد بينا موقف القران من النصارى وموقف النبي محمد منهم ، فمن الخطأ ان ننسب الى المشرع الاعظم عدم التسامح والشدة او نعتقد ان النبي محمد كان جائرا مضطهدا بمعنى انه شعر ان من واجبه فرض عقيدته الجديدة على الاخرين بحد السيف فقد رايناه في المدينه شكل النواة الاولى للدولة العربية الاسلامية وباتت في يده قوة عظيمة لو شاء اخضع بها اى قوم او مذهب وفرض عليه احكامه . ولكنه احترم اهل الكتاب واعترف بايمانهم العلوى ؟؟ ولم تتغير سياسته نحو بعضهم الا بقدر ما دعت اليه الحاجة عندما حاولوا اذاه والكيد له كيهود المدينه مثلا ويهود خيبر .

وقد تمثل تسامحه كما نوهنا انفا في عهوده التى كتبها للاقليات النصرانية في

---

١) البخارى ج ٤ ص ١٧٠ (٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٨١ ، ج ٩ ص ١١١

الجزيرة العربية الذين سمح لهم بالقامة شعائرهم وهو في اوج قوته وعظمته وليس كما يعتقد "وايزمر" من ان النبي اذلهم واخضعهم واضطرهم لدفع الجزية لانهم لم يقبلوا الاسلام لما دعاهم اليه (١)

....

٢) موقف الخلفاء الراشدين من النصارى

سار خلفاء الراشدون على سياسة النبي في رعاية اهل الذمة . فكانوا "اذا انفذوا جيشا للفتح اوصوا قوادهم باهل الذمة خيرا ولا سيما النصارى ورهبانهم . واذا جاءهم اهل المدن بالصلح صالحوهم وعاهدوهم على الحماية مقابل مايؤدونه من الجزية عن رؤوسهم" اوصى الخليفة ابو بكر سلمان احد الصحابة "ياسلمان انها ستكون فتوح ... فلا تقتلن احدا من اهل ذمة الله فيطلبك الله بذمته فيكبك الله على وجهك في النار" . (٢) ويذكر احد المؤرخين السريان ان ابا بكر اوصى الجيوش التي تحركت لفتح الشام قائلا : " عندما تدخلون تلك البلاد لاتقتلوا شيخا ولا صبيا ولا امراة ولا تحركوا او تقلعوا عمودا مقدسا من مكانه ولا تخربوا تضروا القسيسين والرهبان ، لان هؤلاء قد عرفوا انفسهم في الصوامع لعبادة الله ، ولا تقطعوا شجرة او تستاصلوا نبته ، ولا تشقوا بطن ثور او بقرة اوشاة واذا قبلكم اهل مقاطعة ما صالحوهم وعاهدوهم واحفظوا عهدكم . ودعوهم يحكمون انفسهم بقوانينهم وعوائدهم . اذا اتركوهم على دينهم امنين في ديارهم " (٣)

وقد راينا سياسة عمر بن الخطاب وقواده عندما فتحوا العراق والشام ومصر وكتبوا

---

١) (Wismar p. 61) (٢) ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ١٣٧

٣) Anonymous Syriac Chronicle C.S.C.O. Ser. III Vols. 14 - 15 (Tritton p. 137 عن

العهود الكثيرة لاهل الذمة والنصارى خاصة . وهذه العهود كما ذكرنا كانت تختلف بالشدة والرفق حسب البلاد والاحوال على ان اكثرها لايدل الا على التسامح والرعاية الحسنه وحفظ الحقوق وحرية المشاعر الدينية والملكية الفردية لقاء دفع ضريبة معينة عن الرؤوس والاراضي كان لابد منها لحفظ العهد والذم .

ومما جاء في سياسة عمر بن الخطاب ما ذكره البخارى انه اوصى بذمة الله وذمة رسوله (صلعم) ان يوفى لهم بعهدهم وان يقاتل من وراءهم ولايكلفوا الا طاقتهم .[1] وقد رأيناه كيف عامل نصارى بني تغلب وبرم عليهم صدقة كما فرض على المسلمين ولكنها مضعفة الا انه شرط عليهم الا ينصروا اولادهم ، وهذا الشرط يتمشى مع سياسة عمر في لم شعث العرب تحت راية الاسلام .

ويأخذ كثير من المؤرخين الغربيين المعاصرين على عمر سياسته السلبية التى اتبعها مع نصارى نجران فاجلاهم عن الحجاز لانهم تعاملوا بالربا فخالفهم على الاسلام .[2] لكن الاب لامانس ينكر ان تكون تهمة الربا هى التى قادت الى طرد نصارى نجران من مدينتهم — بل لان نصارى نجران كانوا يسيطرون على الاسواق المالية في وسط الجزيرة العربية بهذا التفوق المالي ادى الى ما دعي بالربا . ثم يغول بنقد لاذع وتهكم فقال : " ان هو الا دس وحيلة ومراآت ، ليبرر عمر حكمه ، يبعث على الضحك والاستهزاء لانه حكم صادر عن ابناء قريش المرابين انفسهم ".[3]

ومهما يكن من عمل عمر الاستثنائي تجاه نصارى نجران فانه لايغير من الحقيقة الراهنة من ان بقية نصارى الجزيرة عوملوا الا برفق وعدل ولعل هذا العمل يتعلق بسياسة عمر العامة في الضغط على العرب غير المسلمين طمعا باسلامهم وايجاد وحدة عربية اسلامية في الجزيرة .

---

١) البخارى ج ٤ ص١٩١ ، ابو يوسف ، الخراج ص ٤٤

٢) البلاذرى ص ٦٦ ، ابو يوسف ص ٨٧

٣) Le Califat de Yasid Ir, Lammens P.343, N.2 Wismar P.96

وقيل انه اوصى احد عماله ان يغلظ على نصارى بني تغلب لانهم قوم من العرب وليسوا من اهل الكتاب لعلهم يسلمون . (١)

ومن مظاهر رعاية عمر للنصارى واحترامه لعهدهم انه ذهب بنفسه الى بيت المقدس ليتسلمها من بطريركها كما رغب وليكتب له العهد بنفسه . فاباح عمر بذلك النص التاريخي لنصارى القدس حرية الاقامة والدين وحفظ لهم كنائسهم من الهدم والانتقاض . ولما ادركت عمر الصلاة وهو في كنيسة القيامة خرج وصلى على درجة لا عند باب الكنيسة ، ولما استغرب البطريرك صوفرنيوس فعلته قال له عمر : اتدرى لم لم اصل داخل الكنيسة ؟ قال لا ؟ فقال له عمر : لو صليت داخل الكنيسة لكانت تفلت منك وتخرج عن يدك وياخذها المسلمون منك بعدى ويقولون هنا صلى عمر ، ولكن ائتيني بقرطاس فاكتب لك سجلا فكتب عمر له سجلا على ان لا يصلى احد من المسلمين على الدرجة الا واحد واحد ولا تجمع فيها صلاة ولا يأذن عليها ودفع السجل الى البطريرك (٢) .

وهناك عدة نصوص تروى عن عطف عمر على اهل الذمة منها انه مر بطريق الشام وهو راجع في مسيره من الشام على قوم قد اقيموا في الشمس يصب على رؤوسهم الزيت فقال : ما بال هؤلاء ؟ فقالوا : عليهم الجزية لم يؤدوها ، فهم يعذبون حتى يؤدوها . فقال عمر : فما يقولونهم وما يعتذرون به في الجزية بجر بجر ؟ قالوا : يقولون لا نجد ، قال فدعوهم لا تكلفوهم مالا يطيقون فاني سمعت رسول الله (صلعم) يقول "لا تعذبوا الناس فان الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم الله يوم القيامه" وامر بهم فخلى سبيلهم (٣)

ومما يروى عنه انه مر بباب قوم وعليه سائل يسال : شيخ كبير ضرير البصر ، فضرب عضده من خلفه فقال ، : من اى اهل الكتاب انت ؟ فقال : يهودى . قال : فما الجاك الى ما ارى ؟ قال : اسال الجزية والحاجة والسن . قال : فاخذ عمر بيده ، وذهب به الى

---

١) ابو يوسف ، الخراج ص ١٤٤ (٢) مختصر ص ٩٨ راجع المقريزى ج ٢ص ٤٩٢

٣) ابو يوسف ص ١٥٠

منزله فرضخ له بشيء من المنزل (اى اعطاه شيئا قليلا ، ثم ارسل الى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه فوالله ما انصفناه ان اكلنا شبيبته ثم نخزله عند الهرم "انما الصدقات للفقراء والمساكين "والفقراء" هم المسلمون وهذا من المساكين من اهل الكتاب • ووضع عنه الجزية وعن ضربائه ".(١)

وكان عثمان بن عفان يقرب ابا زبيد اليه ويدني مجلسه منه • وكان ابو زبيد هذا نصرانيا من زوار الملوك وخاصة ملوك العجم • (٢) وحادثة ابو زبيد هذا مع الوليد بن عقبه والي الكوفه في زمن عثمان تدلنا على مبلغ تساهل الخلفاء مع النصارى في ذلك العصر• يذكر صاحب الاغاني عن ابن الاعرابي "ان ابا زبيد وفد على الوليد حين استعمله عثمان على الكوفه فانزله الوليد دارا لعقيل ابن ابي طالب على باب المسجد • فاستوهبها منه فوهبها له • فكان ذلك اول الطعن عليه من اهل الكوفه لان ابا زبيد كان يخرج من منزله حتى يشق الجامع الى الوليد فيسمر عنده ، ويشرب معه • ويخرج فيشق الجامع وهو سكران ". ولما مات الوليد بن عقبه فوق الرقه ومات ابو زبيد دفنا جميعا في موضع واحد (٣)

وذكر عن علي ابن ابي طالب انه قال عن النصارى ، انما يبذلون الجزية لتكون اموالهم كاموالنا ودماؤهم كدمائنا .(٤) وقال ابو يوسف: "بلغنا ان رجلا نصرانيا كان ياتي الحسن ويغشى مجلسه ، فمات • فسار الحسن الى اخيه ليعزيه فقال له "اثابك الله على مصيبتك ثواب من اصيب بمثلها من اهل دينك وبارك لنا في الموت وجعله خير غائب ننتظره ،عليك بالصبر فيما نزل بك من المصائب ".(٥) وهذا دليل اخر على ان المسلمين

---

١) ابو يوسف ص ١٥١ (٢) الاغاني ج ١١ ص ٢٤ و ج ٤ ص ١٨٠

٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٨٢ و ١٨٧ (٤) المقريزي - السلوك - ملحق ١٢ ص ١٠١٢

Ameer Ali p: 274

(٥) الخراج ص ٢٥٧ •

لم ينظروا الى النصارى نظرة صغار واذلال كما يدعي بعض المستشرقين ومن لف لفهم من المحدثين والاخباريين العرب فى تفسير الاية القرانية "حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"

والخلاصة ان عصر الراشدين امتاز برعايته لاهل الذمة ساووا بين الناس كما فعل عمر بن الخطاب مع جبلة بن الايهم الغساني لما هشم انف الفزارى . ومثلها ما فعله مع عبد الله بن عمرو بن العاص والقبطي . واستبقوا الناس على احوالهم ، وهذه العهود التي كتبوها لاهل الذمة خير شاهد على صدق ادعائنا ، ونرى ذلك واضحا فى معاملة المسلمين لاهل حمص عندما فتحوها . يقول البلاذرى : "لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم بوقعة اليرموك ، ردوا على اهل حمص ما كانوا اخذوا منهم من الخراج : وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على امركم . فقال اهل حمص : لولايتكم وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة" [(١)] . وكثيرا ما كان الخلفاء الراشدون يعفون غير المسلمين من الجزية اذا تعهدوا بالقتال معهم . [(٢)] كما سبق ورأينا .

وهناك عدة شهادات نصرانية تشهد بعدل الراشدين وتسامحهم . منها ما كتبه بطريرك مرو عيشوياب Isho'yabh المعاصر للخليفة عثمان بن عفان (٦٤٧-٦٥٧م) الى مطران فارس . وهى شهادة اهملها جميع المؤرخين تقريبا ولم يلتفتوا اليها . فبعد أن يحدد ما كانت تقاسيه الكنيسة النسطورية قال : "ان العرب الذين اعطاهم الله السلطة على العالم فى هذا الوقت يسلكون معنا السلوك المعروف كما تعلمون : وهم ليسوا ضد الديانة النصرانية ولكنهم يمتدحون ايماننا ويحترمون رهباننا

---

١) فتوح البلدان ص ١٣٧ .

٢) زيدان ج ١ ص ٧٠

ولذويهم ويرعون كنائسنا واديرتنا ويمنحونها الفوائد والعطايا • (١)

ويؤيد هذا ما ذكره ابن العبري في تاريخه السرياني معرضا للاضطهادات الدينية التي قام بها الامبراطور هرقل قبيل الفتح العربي لبلاد الشام ٪ ٪ ومصر : "ان الاله المنتقم انقذنا على ايدي ابناء اسماعيل (العرب) من مخالب الروم فاحترموا مذاهبنا على اختلافها ولم ينتهبوا كنائسنا وانما ابقوا لكل وما كان بيده • ونحمد الله الآن اننا تحررنا من وحشية الروم وقسوتهم ومن حقدهم الممقوت لنا • (٢)

تدل هذه الروايات على ما كان يناله هؤلاء اليعاقبه والنساطره من شدة على يد الكنيسة البزنطية فكان من الطبيعي ان يرحب هؤلاء بالحكم العربي نظرا لما نالهم من اضطهاد واحتقار الكنيسة البزنطيه الرسمية الموحدة • حتى ان الضغط الذي لحق الكنيسة الشرقية في الادوار الاخرى المتقطعة من التاريخ الاسلامي لم تغير شيئا من شهادات ارباب الكنيسة تجاه علاقاتهم مع حكامهم من العرب المسلمين • واليك ما كتبه بطريرك انطاكيه ميخائيل الاكبر المدبر في النصف الثاني من القرن الثاني عشر اي بعد خمسمائة سنه من دخول العرب الى بلاد الشام • فبعد ان يعدد كذلك الفظائع التي قام بها الامبراطور هرقل ٪ يقول : هو ذا الاله العادل المنتقم الذي بيده امر كل شيء القادر على كل شيء يبصر اثام الروم الذين سلبوا كنائسنا ودياراتنا واعدموا رجالنا ونساءنا دون رحمة اوشفقة على مدى حكمهم • فبعث من الاقطار الجنوبية ابناء اسماعيل [العرب] ليخلصونا من ايدي الروم العاتين • واذا كنا في الحقيقة قد خسرنا بعض املاكنا — لان الكنائس الكاثوليكية التي اغتصبت من ايدينا واعطيت الى الخلقدونيين بقيت في حوزتهم لان العرب لما دخلوا البلاد لم يغيروا فيها شيئا بل ابقوا لكل ما وجده في امتلاكه • واذا

(١ Thomas of Marga, II, 156 - Assemani, tom.III Pars prima p. 130-1 عسطن
Shedd p. 110, Tritton p.138. Arnold p. 82

(2 Bar H.Ec. Chronicle p.474 (ed.Abbeloos & Lamy. عسن
Shedd p. 110.

كان العرب في ذلك الحين قد انتزعوا منا كنيستي حمص والرها مع ذلك فليس بقليل تحررنا من ربقة الروم البيزنطيين ومن شرورهم وحقدهم وتعصبهم الممقوت ضدنا وعيشنا برخاء وسلام [١].

......

٤) الخلفاء الامويون والنصارى :-

اصبح النصارى في العصر الاموي اكثر اتصالا واحتكاكا بالعرب المسلمين بعد أن انتقل مركز الخلافة الى الشام . وكان من الطبيعي ان تزداد عوامل التقرب بينهم وبين المسلمين. لان النصارى يمثلون جل سكان الشام وعليهم يرتكز عصب الحياة . وقد لا تختلف حياة النصارى في الاقطار العربية الباقية كثيرا عن حياتهم في الشام لان البلاد الاخرى تتأثر الى حد ما بسياسة الدولة المركزية . واذا ما جئنا ندرس علاقة الامويين بالنصارى نجد ظاهرتين اساسيتين : الظاهرة الاولى ان النصارى كانوا يعيشون في بعض الادوار في حياة تسامح ورخاء وسيادة يتمتعون بحرية الدين المطلقة ويحتلون المراكز السياسية الرفيعة ويساهمون الى حد كبير في سياسة الدولة الاموية كعنصر هام له اهميته في مجرى الحياة العامة . والظاهرة الثانية انه كان يضيق عليهم ويحد من سلطتهم ويخضعون الى سلسلة من التقييدات التي تتعلق بكل نواحي حياتهم . الا ان الظاهرة الاولى كانت اعم واشمل .

وسنرى كيف ترك الامويون في ابتداء حكمهم المناصب الادارية في أيدي النصارى من اهل البلاد ورعوهم رعاية حسنة واطلقوا يدهم في التحكم برقاب المسلمين وغير المسلمين . ولعل من اهم اسباب هذا التساهل وتلك المنزلة التي بلغها النصارى ان الدولة الاموية كانت دولة عربية لم يهمها من الدين الا ما يخدم شعار الدولة المسيطرة . ولم يدفعهم تعصبهم للعربية الى امتهان النصارى والتضييق عليهم وخرق العهود التي اقرها لهم الراشدون كما يقول الاستاذ زيدان . [٢] وانما استندوا اليهم في بسط سلطتهم على البلاد العربية الثائرة التي لم ترض عن حكم الامويين كقبيلة بني تغلب النصرانية التي ارسلها يزيد الى الحجاز لقمع ثورة ابن الزبير

(١) Michael The Elder, vol II p.412 - 413 عن ارنولد ص ٥٤

(٢) راجع التمدن الاسلامي ج ٤ ، ص١٠٦ و ١١٨ .

والتي استند عليها عبدالملك بن مروان في حروبه مع عرب العراق ، وكقبائل بني جزام وبني كلب وما يتفرع منهما من البطون والعشائر . وساعدوهم كذلك في اعمالهم الادارية واوكلوا اليهم اعمال الديوان ومناصب الكتاب وعمال الخراج . هذا ناهيك عن الخدمات الاخرى التي افتقر الامويون بها الى النصارى عدا عن النواحي الادارية والسياسية والحربية اعني بها الناحية الادبية والعلمية . فقد كان للاخطل وامثاله اكبر الاثر في البلاط الاموى وخصه من عاصره من الخلفاء برعايته وجعلوا له دالة عليهم لانه كان يحميهم بشعره ولسانه ويشيد في نشر مآثرهم وفضائلهم .

ويعد معاوية اكثر الخلفاء الامويين استخداما للنصارى وتساهلا معهم حتى كان بلاطه مسرحا لزعماء النصارى وكبارهم . يقول اليعقوبي ان معاوية هو اول من استكتب النصارى[1] فكان سرجون بن منصور النصراني متسلما لديوان الخراج والاموال في الشام ثم تبعه ابنه منصور في وظيفته[2]. وقد بلغ الطبيب ابن اثال مكانا ساميا عند معاويه واوعز اليه يوما ان يدس السم الى عبد الرحمن بن خالد الذى كان قد عظم شانه عند اهل الشام ومالوا اليه ، فسقاه ابن اثال فمات . وقد كافأ معاويه على هذا بان اعفاه من دفع الجزية وجعله عاملا على الجزية والخراج في حمص يامر وينهي[3] . يقول اليعقوبي : "واستعمل معاويه ابن اثال النصراني على خراج حمص ولم يستعمل النصارى احد من الخلفاء قبله فاعترضه خالد بن عبد الرحمن بن الوليد بالسيف فقتله ، فحبسه معاويه اياما ثم اغرمه ديته[4]" وقد قرب يزيد بن معاويه كذلك النصارى اليه . ويقول صاحب الاغاني عن المدائني " كان يزيد بن معاويه اول من سن الملاهي في الاسلام من الخلفاء واوى المغنين واظهر

---

1) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٧٦ (٢) المقريزي ج ١ ص ١٨

٣) الطبرى ٢ : ٢ ، ٨٢ ، الاغاني ج ١٥ ص ١٢ ، اليعقوبي ج ٢ ص ٢٦٥

٤) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٦٥

الفتك وشرب الخمر وكان ينادم عليها سرجون النصراني مولاه والاخطل "(١) . هذا ولاحاجة الى الاشارة مرة اخرى الى ما بلغه بنوا تغلب النصارى في زمن يزيد وخلفاؤه .

والوليد بن يزيد "لما انهمك على شربه ولذاته ورفض الاخرة وراء ظهره واقبل على القصف والعسف مع المغنين مثل مالك وسعيد وابن عائشه وذويهم ، وكان نديمه القاسم بن الطويل العبادى (النصراني) وكان اديبا ظريفا شاعرا ، فكان لايصبر عنه" (٢)

وكان الراهب ماريانوس مؤدبا لخالد بن يزيد . وقد راينا كيف الف مروان بن الحكم والي المدينه شرطه العقبة من مائتي نصراني (٣) وهذا دليل اخر على اعتماد بني اميه على النصارى في ضبط الامور الداخلية .

اما في مصر فكان القائم على ديوان الاموال والخراج اثناسيوس Athanasius الذى وصلت شهرته الى عبد الملك فجعله مؤدبا لاخيه الصغير عبد العزيز . وحسده سرجون على منصبه نظرا لما ناله من الغنى والثروة الطائلة . واخيرا في زمن الوليد بن عبد الملك صرف عن ديوان خراج مصر (٤)

وقد بلغ الشاعر الاخطل واصحابه من النصارى في بلاط الخليفه عبد الملك بن مروان مقاما لم يبلغه احد ممن تقدمه او تاخر عنه . وكان الاخطل قد وصل الى هذه المكانة في زمن يزيد بن معاويه يوم هجا الانصار بدافع من يزيد وقد امتنع كعب بن جعيل التغلبي الشاعر يومئذ من هجوهم قائلا : "ارادني انت في الشرك ؟ اهجو قوما نصروا رسول الله (صلعم) واله واووه ، ولكني ادلك على غلام منا نصراني لايبالي ان يهجوهم كان لسانه لسان ثور" (٥)

---

١) الاغاني ج ١٦ ص ٧٠ (٢) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٣٦

٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٥٤ (٤) الكندى ص ٥٩ المقريزى ج ١ ص ٩٨

راجع Arnold p. 65 - S., 116 - عن Tritton p. 20

٥) الاغاني ج ١٣ ص ١٥٤ .

ولما القى جرير قصيدته في مدح الحجاج امام عبد الملك قال عبد الملك للاخطل قم يا اخطل هات مديح اميرالمؤمنين فقال "وانشد اشعر الناس وامدح الناس. فقال له الخليفه انت شاعرنا ومادحنا اركب جريرا. فرمى برداثه والقى قميصه على منكبه ووضع يده على عنق جرير. فقال جرير: "يااميرالمؤمنين ان النصراني الكافر لايعلو ولا يظهر على مسلم ولايركبه فقال اهل المجلس صدق يا امير المؤمنين فقال دعه" (١)

وكانت قبيله بكر بن وائل اذا تشاجرت في شيء رضيت بالاخطل حكما. وكان يدخل المسجد فيقدمون اليه (٢).

دخل الاخطل مرة على عبد الملك "فاستنشده فقال قد يبس حلقي فمر من يسقيني فقال: اسقوه ماء، فقال شراب الحمار وهو عندنا كثير. قال: فاسقوه لبنا، قال عن اللبن فطمت، قال فاسقوه عسلا، قال شراب المريض، قال: تريد ماذا؟ قال خمرا يا اميرالمؤمنين قال اوعهدتني ان اسقي الخمر؟ لا ام لك لولا حرمتك بنا لفعلت بك وفعلت (٣)

يقول ابن رشيق في العمده "لعنه الله عليه لايستتر في الطعن على الدين والاستخفاف بالمسلمين" وهو القائل:

ولست بصائم رمضان طوعا	ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بزاجر عيسا بكورا	الى بطحاء مكة للنجاح
ولست مناديا ابدا بليل	كمثل العير حي على الفلاح
ولكني ساشربها شمولا	واسجد قبل منبلج الصباح

ويعلق ابن رشيق على هذه الحوادث بقوله: "وهذه غاية عظيمة ومنزلة غريبة حملت

---

١) الامالي ج ٣ (ذيل) ص ٤٤ (٢) الاغاني ج ٧ ص ١٧٨ ، ١٧٩

٣) الاغاني ج ٧ ص ١٧٥

من المسامحة فى الدين على مثل ما نسمع" (١) .

نستنتج من هذه الحوادث المتنوعة ان حياة النصارى على عهد الدولة الاموية بالاخص على عهد خلفائها الاول معاويه ويزيد ، ومروان ، والقسم الاكبر من خلافة عبد الملك كانت حياة سعة ورخاء فى الحياتين المادية والمعنوية . ولم تسوء حال النصارى ويفقدوا شيئا فشيئا من اهميتهم الا عندما قام عبد الملك وخلفاؤه فى تعريب الدواوين وبذلك صرف القسم الاكبر من الكتاب النصارى وعمال الخراج الذى كان مجرد اتصالهم بالبلاط يجعل لبنى دينهم اهمية ومركزا . ومما يلفت النظر ان الاحكام التى نيط بها النصارى فى بعض الفترات كانت خاضعة لارادة الحاكم ومشيئته . فمرة نجد الخليفة نفسه راضيا عنهم مقربهم اليه ، ومرة نجده يثور عليهم ويخضعهم لاهوائه ويثقل كاهلهم بالضرائب .

ابتداء رد الفعل فى زمن عمر بن عبد العزيز الذى هاله انصراف الناس الى اللهو واللعب ونبذ الدين وراء ظهورهم لتحمس للاسلام والمسلمين وبالغ فى التشدد والتقيد بامور الدين الاسلامى . وكان من الطبيعي كنتيجة لهذه الرجعيه ان يصيب النصارى بعض الضغط الاجتماعي وينال من حريتهم فى بعض نواحي حياتهم . ويقال انه اول من اصدر منشورا الى الاقطار والعمال يأخذ اهل الذمة بلباس خاص وطرز مركوب خاص ايضا .

يقول ابن الجوزى خرجت رسالة من عمر ابن عبد العزيز الى اهل الامصار "ولا يركب نصراني سرجا ولا يلبس قباء ولا طيلسانا ولا سراويل ذات خدمة ولا يمشين بغير زنسار من جلد ولا يمشي الا مفروق الناصية ولا يوجد فى بيت نصراني سلاح الا انتهب" (٢) وعن ابي يوسف ان عمر ابن عبد العزيز كتب الى عامل له : "اما بعد فلا تدعن صليبا ظاهرا الا كسر ومحق ، ولا يركبن يهودى ولا نصراني على (سرج) وليركب على اكاف ، ولا تركب امرأة على رحالة وليكن ركوبها على اكاف . . . وامنع من قبلك فلا يلبس نصراني قباء ولا ثوب خز ولا عصب . وقد ذكر لي ان كثيرا ممن قبلك من

---

(١) العمدة ج ١ ص ٢١ و ٢٢

(٢) سيرة عمر — ابن الجوزى ص ٩٩ .

النصارى قد راجعوا لبس العمائم وتركوا المناطق على اوساطهم واتخذوا الجمام الوافر ، وتركوا التقصيص ولعمري لان كان يفعل ذلك فيما قبلك ان ذلك بك لضعف وعجز ومصانعه وانهم حين يراجعون ذلك ليعلموا ما انت ، فانظر في كل شيء نهيت عنه فاحسم عنه في تعاله والسلام"(١).

وامثال هذه الحوادث كثيرة ربما وقعت في بعض الاحوال لعوارض اوجبتها وهي تختلف باختلاف الامكنة والظروف . وقد رأى بعض الباحثين المعاصرين ان بعض الخلفاء كعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز انما قيدوا النصارى في لباسهم وركوبهم ومنعوا تشبههم بالمسلمين لكي لا يندس النصارى بين صفوف المسلمين فيتجسسوا عليهم ويستطلعوا اخبارهم فينقلونها الى اعدائهم . ولا ندري مبلغ صحة هذا الادعاء — هذا اذا سلمنا بما جاء في عهدة بن الخطاب وقبلنا مبدئيا ما روي عن عمر بن عبد العزيز واوامره المشددة — اذ ليس هناك نصوص تاريخية يمكن الاعتماد عليها في تفسير اسباب هذه الاوامر الضيقة . ولعل ما تذكره الروايات عن عمر بن عبد العزيز من العدل والورع والتقوى ورعاية النصارى واسقاط الضرائب الكثيرة عن كاهلهم يضعف الى حد ما بعض ما يروى عنه من التشدد والضيق اللذين اخذ بهما النصارى في حياتهم الاجتماعية . عرف عن عمر انه اسقط الجزية عن من اسلم وقد اخذها غيره من الخلفاء وكان من اثرها ان ازداد اعتناق الناس للاسلام بينما نقص ايراد بيت المال نقصا محسوسا . كتب حيان بن شريح عامل عمر بن عبد العزيز على خراج مصر "اما بعد فان الاسلام قد اضر بالجزية ... فكتب اليه عمر : "اما بعد فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وانا عارف بضعفك وقد امرت رسولي بضربك على راسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عن من اسلم قبح الله رايك فان الله بعث محمدا (صلعم) هاديا ولم يبعثه جابيا ولعمري لعمر اشقى من ان يدخل الناس كلهم الاسلام على يده "(٢).

ويظهر ان الغاية التي وضعها عمر نصب عينيه قد اثمرت فقد كثر الناس في دخول الاسلام واتته الانباء من جميع الاقطار تعلمه بذلك (٣) . وقد همّ عمر بنفسه للتبشير بالدين

---

(١) الخراج صفحه ١٥٢ ، (٢) المقريزي خطط ج ١ ، ص ٧٨ . ابن سعد ج ٥ ص٢٨٣

(٣) المصدر نفسه ج ٥ص ٢٨٥ .

الاسلامي بين النصارى قيل انه اعطى بطريقا الف دينار استالفه على الاسلام [١] .

لكن رغبة عمر في اعلاء شأن الاسلام والمسلمين وفي أخذ النصارى ببعض الاحكام المقيدة لم تمنعه من ان يعامل الجميع بالعدل والاحسان وهو التقي الورع الذى يتشبه بالخلفاء الصالحين ويتقيد باحكام القرآن والحديث بحذافيرها . قيل ان احد الرجال سأله : ما بال الاسعار غالية في زمانك يا امير المؤمنين وكانت في زمان من قبلك رخيصة ؟ " قال ان الذين كانوا قبلي كانوا يكلفون اهل الذمة فوق طاقتهم فلم يكونوا يجدوا بدا من ان يبيعوا ويكسد ما في ايديهم وانا لا اكلف احد الا طاقته " [٢] وبالرغم من الاحكام التي قيد بها عمر النصارى كطبقة من الطبقات نراه يعاملهم افراديا بالعدل والرأفة من هذا ما ذكره ابن الجوزى قال : " امر عمر بن عبد العزيز مناديه ان ينادى " الا من كانت له مظلمة فليرفعها . فقام اليه رجل ذمي من اهل حمص ابيض الرأس واللحية . فقال يا امير المؤمنين اسألك كتاب الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني ارضي ــ والعباس جالس ــ فقال له : يا عباس ما تقول ؟ قال : اقطعنيها الوليد بن عبد الملك وكتب لي بها سجلا . فقال : ما تقول يا ذمي ؟ قال : يا امير المؤمنين اسالك كتاب الله عز وجل . فقال عمر : كتاب الله احق ان يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك . اردد عليه يا عباس ضيعته فردها عليه . فجعل لا يدع شيئا مما كان في يده وفي يد اهل بيته من المظالم الا ردها مظلمة مظلمة " . [٣]

يقول المكين ابن العميد ان الوليد بن عبد الملك بذل للنصارى اربعين الف دينار ليتركوا كنيسة ماريوحنا بدمشق فلم يقبلوا فهدمها والحقها بالمسجد الجامع [٤] . فلما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز رفع النصارى قصتهم بسبب كنيسة ماريوحنا هذه " وجاؤا بكتاب خالد بن الوليد والعهد ان كنائسهم لا تخرب ولا تسكن . فبذل لهم عمر ما كان الوليد

---

(١) ابن سعد ج ٥ ص ٢٥٨ ، (٢) الخراج ــ أبو يوسف ص ١٥٧ .

(٣) سيرة عمر ص ١٠٤ ــ (٤) تاريخ المسلمين ص ٧١ .

بذله لهم من المال وهو اربعون الف دينار فابوا فوقع لهم على قصتهم ان تدفع لهم كنيستهم بحدودها فعظم ذلك على المسلمين .... وجرت مفاوضات واتفق الحال على ترك ماريوحنا للمسلمين وان لا يعارضوا في غيرها . (١)

وارنولد يشك في الرواية التي تقول ان الجامع الاموي او كنيسة ماريوحنا قسمت بين المسلمين والنصارى . ويقول انما هو من اختراع المؤرخين الذين ربطوا هذه الرواية بحادثة دخول المسلمين الى دمشق صلحا من احد الابواب ودخولهم حربا من باب آخر والتقاء الجموع عند كنيسة ماريوحنا (٢) .

لم يطل عهد عمر في حكمه ، فقضى بعد سنتين ونيف فعادت جميع الاحوال الى ما كانت عليه .

قلنا ان الامويين تساهلوا كثيرا مع اهل الذمة والنصارى خاصة لكن بعض عمالهم بالغ في استهتاره بالدين واهله وانتهك حرمة الاسلام واباح للنصارى النيل من المسلمين . من هذا ما فعله خالد بن عبدالله القسري والي الكوفة . يقول صاحب الاغاني "كانت ام خالد روميه نصرانية فبنى لها كنيسة في ظهر قبلة المسجد الجامع بالكوفة فكان اذا اراد المؤذن في المسجد ان يؤذن ضرب لها بالناقوس واذا قام الخطيب على المنبر رفع النصارى اصواتهم بقراءاتهم ... وكان (خالد) يولي النصارى والمجوس على المسلمين ويامرهم بامتهانهم وضربهم . وكان اهل الذمة يشترون الجواري المسلمات ويطؤاهن فيطلق لهم ذلك ولا يغير عليهم ... وكان خالد يقول لو امرني امير المؤمنين نقضت الكعبة حجرا حجرا ونقلتها الى الشام" (٣) وسار خالد القسري سيرته هذه طيلة خلافة هشام ، وهشام يسكت عنه ويصبر عليه حتى عيل صبره منه لكثرة الشكايات فايقن اخيرا انه يثير عليه الفتن والقلاقل في العراق ويؤلب عليه جمهرة المسلمين . فكتب الى يوسف بن عمر يخطه ان سر الى العراق فقد وليتك

---

(١) المكين — تاريخ المسلمين ص ٧٧ ، (٢) Arnold p. 65 ابن عساكر ج ١ ص ٢٠١

(٣) الاغاني ج ١٩ ص ٥٩ .

اياها واياك ان يحلم بذات احد وخذابن النصرانية وعماله ناشغني منهم • (١)

ويظهر ان عزل خالد عن ولايته كان له صلة بنزعته العصبية العربية ، فقد كان خالد قيسيا يحتقر المضريين ويمتهنهم مما اهاب بهشام ابعاده خوفا من فتنة يثيرها ولان المضريين كانوا يعطفون الى حد ما على هشام وهو راض عنهم (٢) .

والتاريخ يحدثنا بعدة ثورات قامت على الدولة الاموية من قبل الاقباط في مصر • وقد ذكرنا في السابق ان استفحال امر هذه الحركات ابتدأ في خلافة يزيد ابن عبدالملك وهشام • ثار القبط سنة ١٠٧ هـ • في ولاية عبدالله بن عبدالملك بن مروان الذى اشتد على النصارى واقتدى به غيره من الولاة وعمال الخراج كقرة بن شريك وعبدالله بن الحبحاب والحر بن يوسف واسامة بن زيد التنوخي • وانزل هؤلاء بالنصارى شتى انواع الاضطهادات وسلبوهم اموالهم واحصوا الرهبان ووسموا ايديهم •على ان هشام ادرك سوء الحال فكتب الى مصر بان يجرى النصارى على عوائدهم وما بايديهم من العهد • وما ان توفي هشام حتى عاد العمال الى عسفهم وظلمهم كحنظلة بن صفوان الذى زاد في الخراج واحصى الناس والبهائم • وفي زمن مروان بن محمد سنة ١٣٤ هـ • كثر خروج القبط فبعث اليهم مروان من حاربهم وقتلهم (٣)

واذا جئنا ندرس اسباب هذه الثورات نجد ان السبب المباشر هو الزيادة في الضرائب التي قررها بعض الخلفاء الامويين على النصارى • يقول * زيدان "انهم ضيقوا على اهل الذمة من جهة الجزية في جملة مساعيهم في حشد الاموال لاصطناع الاحزاب والتمتع باسباب الدنيا فزادوا في الجزية والخراج وشددوا في تحصيلها وضيقوا على الناس حتى اخذوا الجزية ممن اسلم • واما من بقي على دينه من اهل الكتاب فكانوا يسومونهم سوء العذاب ويحتقرونهم لانهم ليسوا عربا ولا مسلمين • ولا غرابة في ذلك بعد ما علمت من احتقار بني اميه * لغير العرب من المسلمين • (٤)

---

(١) الطبرى ج ٨ ص ٢٥٢ (مصريه) (٢) الاغاني ج ١٩ ص ٥٩ (٣) راجع المقريزى ج ٢ ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ج ١ ص ٧٩ ، الكندى ص ٧٣ ، ٨١ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٩٠ • (٤) زيدان التمدن ج ٤ ص ١٠٨ •

قد يصدق قول الاستاذ زيدان في اثقال كاهل نبط مصر بالضرائب لاستكثار الاموال التي يصرفونها في سبيل استجلاب الانصار من القبائل العربية بعد ان انقسم العالم العربي يومذاك الى حزبين : القيسية والمضرية وصاروا يبحثون عن مصادر المال في كل ناحية حتى انهم مدوا ايديهم الى الصدقات واستأثروا باموال الفيء[١] ولم يقتصر ضرائبهم على اهل الذمة فقط لكنها شملت العرب المسلمين انفسهم والموالي .[٢] فكان انتقاض النبط اذن ناتجا عن زيادة الضرائب . لكننا لا نسلم من ناحية ثانية ان الامويين احتقروا اهل الذمة لانهم ليسوا عربا ولا مسلمين . وقد برهنت الوثائق التي عرضناها ان الامويين على العموم احسنوا الى النصارى وقربوهم اليهم ولم يفرقوا كثيرا بين نصراني عربي ونصراني غير عربي. فقبيلة بني تغلب النصرانية التي عضدت الامويين ترعوها بعطفهم لاقت من العذاب والتشرد الوانا وقد قتل منهم الجحاف ابن حكيم السلمي وقومه مقتلة عظيمة وعبدالملك بن مروان يشاهد ما يجرى [٣]

واذا كان الامويون قد احتقروا الاجناس الاخرى من غير العرب كالموالي الفرس فمن الخطأ ان نعمم الحكم فنشمل به النصارى الاعاجم . اذ لا يمكننا ان نركن الى الحوادث الفردية التي تنشأ بين حين وآخر ونتخذ منها حكما عاما فلا زلنا مفتقرين الى النصوص التاريخيه الصحيحة التي تجلو لنا موقف الامويين من النصارى بوضوح تام . وخلاصة القول ان النصارى في القرن الاول الهجري عاشوا حياة رخاء وسيادة وتسامح ، واذا كانوا قد اخذوا في بعض الفترات ببعض الشدة والضيق فما ذلك الا لانهم قد اساءوا استعمال الحرية الممنوحة لهم فاستبدوا بالوظائف وامتهنوا حرمة المسلمين مما اثار عليهم الرأى العام الاسلامي ولأن بعض الخلفاء او الحكام قد نالوا منهم طبقا لما توحيه لهم اهواؤهم الجامحة ورغائبهم الخاصة .



(١) الاغاني ج ١١ ص ١٥٦ ، زيدان ص ٨١ ج ٤ ، (٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٢ .

(٣) راجع الموشح ص ١٣٧ و ١٣٨ ، المبرد ج ١ ص ٢٨٦ ، الاغاني ج ١١ ص ٥٩ .

الباب الاول

الوضعية الاجتماعية

الباب الاول

الوضعيـــة الاجتماعيـــة

تمهيد :

استمر اتصال المسلمين بالنصارى في العصر العباسي والاختلاط بهم ، وكما ان الحياة في هذا العصر قد تعددت ضروبها واشكالها واستحدثت الوانا جديدة من العيش ، فالعلاقة كذلك بين المسلمين واتباعهم قد تبعت هذا التطور ودرجت عليه وسارت حسب منواله .

ومما يجب ان نلفت النظر اليه ان هذه العلاقة اصبحت معقدة على امتداد العصر العباسي الطويل بحيث لايمكن للانسان ان يطلق عليها حكما عاما يصدق عليها في جميع ادوارها .

قلنا : ان سياسة الامويين نحو النصارى قد تميزت بظاهرتين : تسامح ورضى اولا ثم ضيق وتشديد ثانيا ، وكانت الظاهرة الاولى اعم واشمل . وما ذلك الا لان الدولة الاموية كما قلنا كانت دولة عربية لايهمها من الدين الا ما يخص شعار الدولة الحاكمة . وقد يصدق المثل احيانا ، الناس على دين ملوكهم ، فالرأي العام العربي المسلم قد تاثر بسياسة روءسائه ونهج مع النصارى في حياته الاجتماعية ـ الى حد ما ـ نهج اسياده . هذا على الرغم من انه كان يخرج عن حدود تلك السياسة لاسباب قدمناها .

والان وقد اصبح للدين المقام الاول في العهد العباسي فليس من الغريب ان نتوقع تبدل نهج الخطة الاولى التي تعود المسلمون ان يدرجوا عليها في السابق . على ان الدور الاول من العصر العباسي قد شابه العصر الاموي فكانت العلاقات بين المسلمين والنصارى حسنة وشارك الجمهور المسلم الجمهور النصارى في اعياده واحتفالاته ومشاعره وشعائره .

على ان هذه الحياة النيرة قد ادلهمت في العصور التي تنت وحرم النصارى من حرية رتعوا بها في الايام الاول وخضعوا لسلسلة من القوانين واللائحة والاوامر التي تقيدهم في كل

مناحي حياتهم الاجتماعية . وكانت هذه القوانين تعود وتظهر بين حين وآخر الا ان الناحية النيرة لم يخف توهجها واشعاعها في تقدم الايام والشهور . على اننا يجب ان لا نستبق الحوادث فنقدم النتيجة وسنرى نوع هذه العلاقة حسبما كانت عليه في الواقع وحسب التحديد الشرعي لها في الفصول التالية التي تشمل كل ما يتعلق بالامور الاجتماعية .

- - - - - - -

الفصل الاول

اللباس وطرز الركوب ، ختم الرقاب ، والعادات الاخرى

جاء في العهدة التي نين ان عمر بن الخطاب قد كتبها او استكتبها لاهل الشام ان لا يتشبه النصارى بالمسلمين في شيء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا يركبوا بالسروج ولا يتقلدوا بالسيوف ولا ينقشوا على خواتمهم بالعربية وان يجزوا مقادم رؤوسهم ويلزموا زيهم حيثما كان وان يشدوا الزنانير على اوساطهم (١)

ولا حاجة الى التنبيه مرة اخرى ان هذه العهود ليست من عمل عمر بن الخطاب وقد شك بها اكثر الباحثين المدققين فلم تكن الضرورة تقضي ان يتميز النصارى بلباسهم عن المسلمين في زمانه . وليس هناك اية اشارة تاريخية تلمح الى مثل هذه الاحكام قبل زمن الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز . ولا يستبعد ان تكون هذه السنن من بضاعة الرواة والمحدثين ولما كان عمر الثاني قد اخترع هذه الاحكام اصبح من السهل نسبتها الى عمر الاول نظرا لتوافق الاسمين وكثيرا ما خلط المؤرخون العرب بين سيرة الرجلين فعزوا الى الثاني ما صنعه الاول ونسبوا الى الاول ما فعله الثاني . وقد يكون ابو يوسف القاضي صاحب هارون الرشيد (+ ١٨٢ هـ) ومؤلف كتاب الخراج اول من نسب هذه الاحكام الى عمر بن الخطاب وليس من الغريب ان تكون هذه الرواية قد كبرت ونمت على مدى الايام وداخلها الخلط والزيف قبل ان يدون القاضي المذكور اخباره . يقول ابو يوسف لهارون الرشيد ينبغي "ان لا يترك احد منهم يتشبه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته ، ويؤخذ بان يجعل في اوساطهم الزنارات ــ مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كل واحد منهم . وبان تكون قلانسهم مضربة ، وان يتخذوا على سروجهم في موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب ، وبان يجعلوا شراك نعالهم مثنية ، ولا يحذوا حذو المسلمين وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل ... ولتكن قلانسهم طوالا مضربة . فمر عمالك ان ياخذوا اهل الذمة بهذا الزي . هكذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه امر عماله ان ياخذوا اهل الذمة بهذا الزي وقال : حتى يعرف زيهم من زي المسلمين " (٢)

وقد سبق ان نوهنا ان الاحكام التي وردت في عهدة عمر بن الخطاب ، ــ واللباس

---

(١) الطرطوشي ص ١١٠ (٢) الخراج ص ١٥١ ــ ١٥٢

والركوب من مضمونها — تعكس لنا علاقة دقيقة بين المسلمين والنصارى لم تكن معروفة في زمنه . وقد ذكر ابن عبد الحكم (+ ٢٥٧ هـ) في كتابه فتوح مصر "ان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص ان يختموا النصارى مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الاكف عرضا ... ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين في لبوسهم "(١)

وهذان المؤرخان اقدم من وصلتنا عنهم الروايات . وهناك اشارات طفيفة عن اللباس لبس عهد عمر بن عبد العزيز منها ان الاخطل الشاعر كان يجيء الى عبد الملك وعليه جبة خز في عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ذهب . وكثيرا ما كان يذهب الى المسجد لابسا جبة خز ومتقلدا صليبا من ذهب وراكبا فرسا . (٢) . ونسمع عن اللباس كذلك في زمن عبد الملك بن مروان عندما كانت الجراجمة يغيرون على حدود الشام فيسلبون وينهبون فلما قهرهم القائد مسلمة بن عبد الملك كان من جملة العهود التي اباحها لهم ان يلبسوا لباس المسلمين (٣) . على ان هذه الحوادث المبهمة لا يمكن ان يستنتج منها انه كان يتحتم على النصارى ان يخالفوا زيهم عن زي المسلمين . ولا ندري مبلغ صحة هذا الحديث الذي يروى عن النبي : عن البخاري انه قال "ان اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم (الصباغ الخضاب بالحناء) وعن النسائي انه قال " ان اليهود والنصارى لا تصبغ فخالفوا عليهم ." (٤)

يذكر المؤرخون عدة اوجه لاوامر عمر بن عبد العزيز التي اصدرها بشأن اللباس والركوب وما يتصل بهما . يقول صاحب العقد ان عمر كتب الى عماله " مروا من كان على غير الاسلام ان يضعوا العمائم ويلبسوا الاكسية ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام " . (٥) ويقول ابن العبري ان عمر منع النصارى من ان يلبسوا لباس الاجناد — يريد الحرب — (٦) ويقول مؤرخ سرياني ان انه منعهم من استعمال السروج عند ركوب الخيل (٧)

ويقول ابو يوسف ان عمر كتب الى عامل له : " اما بعد فلا تدعن صليبا ظاهرا الا كسر ومحق . ولا يركبن يهودي ولا نصراني على سرج وليركب على أكاف . ولا تركبن امرأة من نسائهم على رحالة وليكن ركوبها على اكاف ... وامنع من قبلك فلا يلبس نصراني قباء ولا ثوب خز ولا عصب . وقد ذكر لي ان كثيرا من قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمائم وتركوا المناطق على اوساطهم واتخذوا

---

(١) ابن عبد الحكم ص ١٥١ (٢) الاغاني ٧ ص ١٧٨ و١٨٧ (٣) البلاذري ص ١٦١

(٤) البخاري ج ٤ ص ١٧٠ ، مسلم ج ٦ ص ١٥٥ نسائي ج ٨ ص ١٣٧ ابن ماجه ج ٢ ص ١٩٩

(٥) ابن عبد ربه ج ٢ ص ٣٣٤ (٦) B.H. Chronicle Paris: P. 117(Tritton)116

(7) Tritton p.116 S.A.: I, 307

الجمام الوافر وتركوا التقصير ... فانظر في كل شيء نهيت عنه فاحسم من فعله " (١) اما ابن الجوزي فيذكر ان رسالة خرجت من عمر الى اهل الامصار ان لا يركب نصراني سرجا ولا يلبس قباء ولا طيلسانا ولا سراويل ذات خدمة ولا يمشين بغير زنار من جلد ولا يمشي الا مفروق الناصية (٢) ويضيف ابن عساكر الى قول ابن الجوزي ! ولا يلبس نعلا ذات عذبة (٣)

ولما جاء بنو تغلب النصارى وطلبوا منه ان يفرق لهم امر بجز (حجام) فجز لهم شعر نواصيهم وشق من اثوابهم حزما يتحزمون بها وامرهم ان لا يركبوا بالسروج وان يركبوا على الاكف من شق واحد (٤)

ويجب ان نلاحظ دوما ان هذه الاحكام وغيرها التي قيد بها النصارى واجبروا على رعايتها كانت دورية تختفي وتظهر بين حين واخر ولم تكن قانونا عاما او شريعة ثابتة . وقد راينا كيف عادت الاحوال الى ما كانت عليه في السابق بعد وفاة عمر بن عبد العزيز فتنفس النصارى الصعداء واصبحوا احرارا في ممارسة طقوسهم وعاداتهم . ويعود السبب في ظهورها الى عوامل عدة منها غطرسة الحكام النصارى وارباب الوظائف منهم عندما يتولون امرا ما او منصبا في الدولة او التعصب الديني الذي كان يثور في بعض الفترات فيضطر الحكام الى فرض الاحكام التي تتماشى مع روح الاسلام وشريعته والتي تزول بزوال هذا الهيجان ، او الى ظهور عقلية بعض الخلفاء او الامراء الذين ينقادون لاهوائهم الجامحة فيفرضون شتى انواع المظالم على الناس ويقومون بكثير من الاضطهادات ليس على النصارى فحسب وانما على المسلمين انفسهم وسنرى مصداق ذلك في زمن الخليفة العباسي المتوكل او الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله ومن لف لفهما (٥)

يبتدئ اكراه النصارى على الظهور بمظهر خاص في العصر العباسي في زمن الخليفة هارون الرشيد ، مع ما عرف به من عدل وحكمة في جميع اعماله . وقد كان بلاطه مسرحا لاطباء النصارى الذين كان يثق بهم كل الثقة ويخصهم بعطفه ورعايته . لكن يظهر ان الحروب التي وقعت بين هارون الرشيد وبين الروم البيزنطيين على الاخص في زمن الامبراطور نقفور كان لها اكبر الاثر في اجراءات الرشيد فيما بعد . عرف هذا الامبراطور بنقضه عهود الخليفة وعبثه في العواصم والثغور الاسلامية على الحدود

---

(١) الخراج ص ١٥٢   (٢) سيرة عمر ص ٩٩   (٣) التاريخ الكبير ص ١٨٠   (٤) المستطرف ج ١ ص ١٠٤   (٥) Arnold p. 76

البزنطيه وتخريبه البلاد وقتل النفوس الكثيرة . يقول موير Muir : "ان نتيجة حركات مؤلمة كهذه هو ايقاد شعلة العصبية الدينية . فامر الرشيد بهدم الكنائس في الثغور واخذ اهل الذمة بلباس وركوب خاصين يخالف لباس وركوب المسلمين [1]

يقول الطبري بعد ان عاد الرشيد من غزو الروم سنة ١٩١ هـ . امر بهدم الكنائس بالثغور وكتب الى السندي بن شاهك يأمره باخذ اهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم [2] . وبهذا يكون نصارى الشرق قد دفعوا الحساب عن النصارى البزنطيين . اضف الى هذا وصايا القاضي ابي يوسف الى الرشيد باخذ اهل الذمة باللباس والركوب التي وصفهما له والتي ادعى ان عمر بن الخطاب كان يفرضهما على اهل الذمة .

قلنا ان العصبية الدينية مسؤولة عن اكثر الاضطهادات التي تحصل في زمن ما . وهذا ما حدث في زمن المتوكل (٨٤٧ — ٨٦١ م ، ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) الذي ضغط على النصارى وقام بسلسلة من الاجراءات ضدهم . والسبب يعود الى رجعيته والى رد الفعل الديني الذي حصل في زمانه ضد المذاهب الفكرية المستحدثة في الاسلام . فقد تعصب المتوكل للسنة واضطهد المعتزلة والشيعة واصحاب البدع الاخرى . وكان من الطبيعي ان ينال النصارى شيء من هذا الاضطهاد . ففي سنة ٢٣٥ هـ . "امر المتوكل باخذ النصارى واهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وبتصيير كرتين على مؤخر السروج وبتصيير زرين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون ، وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالف لونهما لون الثوب الظاهر الذي عليه ، وان تكون احدى الرقعتين بين يديه عند صدره والاخرى منهما خلف ظهره وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع اصابع ولونهما عسليا ، ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون العسلي . ومن خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز الا في ازار عسلي وامر باخذ مماليكم بلبس الزنانير ومنعهم لبس المناطق ... وامر بان يجعل على ابواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة تفريقا بين منازلهم وبين منازل المسلمين ." [3] وكتب الى عماله في الآفاق بتعاليمه المذكورة .

---

(1) Muir, Caliphate p. 475. راجع الطبري الجملة الثالثة ص: ٦١٥ — ٧١٣ .

(2) الطبري الجملة الثالثة : ص ٧١٢ .

(3) " " " ١٣٨٩ .

وفي سنة ٢٣٩ اصدر المتوكل اوامر اخرى فقد امر "باخذ اهل الذمة بلبس ذراعين عسليتين على الاقبية والدراريع في المحرم منها . ثم امر في صفر بالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحمر دون الخيل والبراذين"(١). ويروى ابن الراهب ان الخليفة المتوكل امر ان لا يلبس احد من النصارى واليهود ابيضا بل مصبوغا (٢)

يلاحظ ان المتوكل تشدد اكثر من غيره في قضية اللباس والركوب عموما بين نفور وابرام تستدعي احكامه هذه الهزء والسخرية ، ولا تدل الا على ضيق عقليته ورجعيته الشديدة التي دعته لان يتهوس باحكامه الى الحد الذي لمسناه . وسنرى ان الرأى العام قد تأثر كثيرا بقوانين المتوكل في السنين التي تلت فصار العامة يشغبون على النصارى ويضربونهم ان رأوهم راكبين على الخيول او متشابهين بالناس . يذكر البابر القبيبي انه في سنة ٢٧١ هـ . او سنة ٢٧٢ هـ . شغب اهالي بغداد ضد النصارى لانهم شوهدوا راكبين الخيول (٣) والتاريخ يحدثنا عن كثير من امثال هذا الشغب الذي كان يقوم به العامة على النصارى في العصور المتأخرة على الاخص في مصر . وليس بمستغرب ان تعم الفوضى ويكثر الشغب لان الاسلام وهو العقيدة البسيطة في اساسها قد داخله كثير من الافكار والاراء المعقدة الى حد جعل الناس يختلفون في ارائهم واعمالهم ، وثانيا لان العالم العربي قد دخلته في العصر العباسي عناصر غريبة الاطوار والمعتقدات فاسلمت وبقيت على بربريتها ، وتعصبت للدين الاسلامي وهي لم تدرك الا قشوره . واخيرا وهو الاهم ضعف الدولة العباسية وانحطاطها وتفككها مما فسح المجال لاعمال الشغب والفوضى وهذا شأن كل امة او دولة عندما تنحل قواها ويتفسخ مجتمعها .

وفي سنة ٢٦٩ هـ . عاد المقتدر ففرض على النصارى لبس العسلي وتعليق الرقاع المصبوغة بين اظهرهم (٤) .

يجاري الخليفة المتوكل على الله العباسي في ضغطه على النصارى والتضييق عليهم الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) فقد انزل بهم ضروب الاضطهاد واذاقهم شتى انواع العذاب . يقول عنه ابن الراهب القبطي - واكثر المؤرخين - انه كان رديء السيرة

---

(١) الطبري : الجملة الثالثة : ١٤١٩ .

(٢) ابن الراهب ص ١٣١ . (٣) Tritton p. 119 عن Elias 68

(٤) تغري بردي ج ٣ ، ص ١٦٥ .

فاسد المخيلة ناقص العقل مضطربا في جميع اموره يأمر بالشيء ويبالغ فيه ثم يرجع عنه ويبالغ في نقيضه [(١)] . يقول المقريزي : اغضب موقف النصارى وازدياد باسم الحاكم بامر الله وكان لا يملك نفسه اذا غضب ، فتشدد على النصارى "والزمهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في اوساطهم·· والزم الرجال النصارى بتعليق الصلبان الخشب التي زنة كل صليب منها خمسة أرطال في اعناقهم ومنعهم من ركوب الخيل وجعل لهم ان يركبوا البغال والحمير بسروج ولجم غير محلاة بالذهب والفضة بل تكون من جلود سود وضرب بالجرس في القاهرة ومصر ان لا يركب احد من المكارية ذميا ولا يحمل نوتي مسلم احدا من اهل الذمة وان تكون ثياب النصارى وعمائمهم شديدة السواد وركب سروجهم من خشب الجميز . وان يعلق اليهود في اعناقهم خشبا مدورا زنة الخشبة منها خمسة ارطال وهي ظاهرة فوق ثيابهم .... والزم النصارى ان تكون الصلبان في اعناقهم اذا دخلوا الحمام والزم اليهود ان يكون في اعناقهم الاجراس اذا دخلوا الحمام ..." [(٢)]

وقد بقيت هذه الاحكام مرعية الاجراء مدة تسع سنوات ثم رجع الحاكم عنها واباح لهم ما اغتصبه من حقوقهم [(٣)]

وفي سنة ٤٨٤ هـ . خرج توقيع من الخليفة المقتدي بالله في بغداد بالزام اهل الذمة بالغيار ولبس ما شرط عليهم امير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فهربوا كل مهرب واسلم بعضهم ، ولم يفعل الخليفة ذلك الا بسبب حادث بسيط وقع لرجل يهودي مع شخص مسلم . [(٤)]

وفي سنة ٥١٥ هـ . الزم السلطان محمود السلجوقي "اهل الذمة ببغداد بالغيار فجرى فيه مراجعات انتهت الى ان قرر عليهم السلطان عشرين الف دينار وللخليفة اربعة الآف دينار " . [(٥)]

وهذا يبرهن على ان النصارى ليسوا مجبرين دائما على التقيد بالقوانين التي فرضها عليهم بعض الخلفاء بل عاد كل امر من حيث الشدة واللين الى مشيئة الحاكم وارادته .

ويذكر احد المؤرخين السريان ان نور الدين زنكي عندما احتل الموصل امر النصارى ان

---

(١) ابن الراهب ص ٨١ — ٨٣ ، المكين ص ٢٥٩ .

(٢) المقريزي ج ٢ ص ٤٩٥ — ٤٩٦ ، السيوطي ج ٢ ص ١٦٨ .

(٣) ابو صالح : الكنائس والاديرة في مصر ص ١٤٢ عن ترتون Tritton ص ١٢٠ ، ابن الراهب ٨٣ المكين ص ٢٥٩ .

(٤) ابن الاثير ج ١٠ ص ١١٣ .

(٥) ابن الاثير ج ١٠ ص ٤٢٠ .

يلبسوا الزنار ومنعهم من استعمال السروج عند ركوب الخيل او البغال . ولما فارق نور الدين الموصل لم يعمل اى احد بأوامره . وعندما توجه اسد الدين شيركوه الى مصر باذن نور الدين زنكي وتهاله الامر بفرض سيطرته عليها نفذ بها احكام نور الدين التي فرضها على نصارى الموصل . اما المؤرخ ميخائيل السرياني فينسب هذه الاحكام الى السلطان صلاح الدين الايوبي . وهذا بعيد عن الاحتمال لان صلاح الدين قد جمع حوله كثيرا من الموظفين النصارى وشملهم برعايته .(١)

قلنا ان الاحكام العامة التي اخذ بها النصارى هي دورية لا تزول بل تتمثل على المسرح في فترات متقطعة وكانت تختفي اكثر الاحيان حتى يوقضها تعصب بعض الحكام او هيجان العامة والرعاع كما حدث سنة ٦٨٣ هـ . في مصر بين عامة المسلمين وبعض النصارى . ويعد عصر المماليك والادوار التي عقبته لا من اشد العصور ضيقا على النصارى فقد قاسوا به من الويلات ما لا يستوعبه وصف . يذكر المقريزي في تلك السنين تزايد ترف اهل الذمة بالقاهرة وتفننهم في ركوب الخيل المسومة والبغلات الرائعة بالحلي الفاخرة ولبسهم الثياب السريه وتوليتهم الاعمال الجليلة . فاتفق قدوم وزير ملك المغرب يريد الحج فراى نصرانيا يركب فرسا وعليه عمامة بيضاء وفرجية مصقولة وجماعة من المسلمين يمشون في ركابه وهم يسألونه ويتضرعون اليه ويقبلون رجله وهو معرض عنهم ينهرهم ويصيح بغلمانه ان يطردوهم عنه . فرق المغربي لحالهم "وطلع الى القلعة وجلس مع الامير سلار نائب السلطان والامير بيبرس الجاشنكير واخذ يحادثهم بما راه وهو يبكي رحمة للمسلمين بما نالهم من قسوة النصارى . ثم وعظ الامراء وحذرهم نقمة الله وتسليط عدوهم عليهم من تمكين النصارى من ركوب الخيل وتسلطهم على المسلمين واذلالهم اياهم وان الواجب الزامهم الصغار وحملهم على العهد الذي كتبه امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فمالوا الى قوله وطلبوا بطرك النصارى وكبراءهم وديان اليهود . فجمعت نصارى كنيسة المعلقة ونصارى دير البغل ونحوهم . وحضر كبراء اليهود والنصارى . وقد حضر القضاة الاربعة وناظروا النصارى واليهود فانعنـــوا الى التزام العهد العمري والزم بطرك النصارى طائفته النصارى بلبس العمائم الزرق وشد الزنار في اوساطهم ومنعهم من ركوب الخيل والبغال " . ثم اتبعه ديان اليهود والزموا اليهود بلبس العمائم الصفر والتزام العهد العمري .(٢)

---

(١) ميخائيل السرياني ترجمة (Langlois) صفحة ٢١٨ عن تريتون Tritton ص ١٢١ .

(٢) المقريزي ج ٢ ص ٤٩٧ — ٤٩٨ . ، المقريزي : السلوك ج ١ ص ٩١٠ .

وفي بعض الفترات كان يسكت عن اليهود ويرضى عنهم السلطان ويكثر ايقاع المسلمين للنصارى فقط حتى يترددوا السعي في الطرقات . "فكان النصراني اذا اراد ان يخرج من منزله يستعير عمامة صفراء من احد اليهود ويلبسها حتى يسلم من العامة . واتفق ان بعض دواوين النصارى كان له عند يهودي مبلغ اربعة الاف درهم فقرة فصار الى بيت اليهودي وهو متنكر في الليل ليطالبه فامسكه اليهودي وقال انا بالله وبالمسلمين وصاح فاجتمع الناس لاخذ النصراني ففر الى داخل بيت اليهودي واستجار بامرأته واشهد عليه بابراء اليهودي حتى خلص منه ." (١)

وقد ساهمت المدارس الفقهية نظريا في نشر الاحكام التي تفرض على النصارى واوجبت على الامام او الحاكم العمل بها . يذكر الابشيهي في المستطرف : "قال أصحاب الشافعي ويلزمهم (اى النصارى واليهود) ان يتميزوا في اللباس عن المسلمين وان يلبسوا قلانس يميزونها عن قلانس المسلمين بالحمره ويشدوا الزنانير على اوساطهم ويكون في رقابهم خاتم من نحاس او رصاص او جرس يدخلون به الحمام ، وليس لهم ان يلبسوا العمائم ولا الطيلسانات . واما المرأة فانها تشد الزنار تحت الازار . وقيل فوق الازار وهو الاولى ، او يكون في عنقها خاتم تدخل به الحمام ، ويكون احد خفيها اسود والآخر ابيض ولا يركبون الخيل ولا البغال ولا الحمير الا بالاكف عرضا ولا يركبون بالسروج ." (٢)

وعلينا ان نلاحظ اختلاف انواع الالبسة التي كان يتقيد بها النصارى ، فتارة يحظر عليهم لبس الطيالسة وطورا يسمح لهم بلبسها وحينا يلبسون الاردية العسلية او السوداء ويمنعون احيانا من لبس القلانس ومن ثم يجبرون على لبسها مضربة او زرقاء . وكان لباس اهل الذمة باجمعهم اللون العسلي الاصفر ثم اختصت كل طائفة بلون خاص تتميز به كما رأينا ومهما تعددت الالوان والاسباب فكل شيء يعود الى سياسة الدولة واهواء الائمة والحكام .

اجبر النصارى مثلا على لبس القلانس الطويلة المضربة او السوداء او الزرقاء . وهي

---

(١) المقريزي ج ٢ ص ٥١٦

(٢) المستطرف ص ١٠٤

لباس طويل للراس عرفت في الزمن العربي على انواع واشكال متعددة . وقد اخذ العرب نوعا منها عن اقليم السند عندما افتتحوه ووجدوا اهله يلبسون قلانس طوالا فعملوا عليها فسميت العباسية (١) وكان العباسيون في زمن المنصور حتى عهد المستعين – الخلفاء منهم والوزراء والقضاة يلبسون القلنسوة السوداء الطويلة . وحوالي سنة ٢٣٠ هجرية " كان زي اهل مصر وجمال شيوخهم واهل الفقه والعدالة منهم لباس القلانس الطوال . كانوا يبالغون فيها فامرهم ابن ابي الليث (الوزير) بتركها ومنعهم لباسها وان يشبهوا بلباس القاضي وزيه فلم ينتهوا . " فاضطرهم اخيرا الى تركها وقد شهودت قلانس الشهود يومئذ في ايدى الصبيان والرعاع يلعبون بها (٢) وربما لبس القلنسوا المساجين والمتلصصة في شوارع بغداد كما ورد في بيت ابن المعتز في قصيدته للمعتضد (٣) .

وفي زمن المتوكل كان النصارى والمسلمون يلبسون القلانس على حد سواء فامر المتوكل النصارى ان يخالفوا لون قلنسوتهم عن لون قلنسوة المسلمين ويضعوا عليها زرين تمييزا . ويظهر انه في العصور التي تلت احتفظ النصارى واليهود فقط بلبسها . وقد اقتبس الصليبيون القلنسوة الطويلة ذات الحمار ونقلوها معهم الى العرب (٤) ولم يزد اصحاب المعاجم اللغوية كابن منظور والفيروزابادي ومن اتى بعدهما كالزبيدي والبستاني عن كون القلنسوة او القلنسية لباس للراس وتجمع على قلانس وقلاس وقلانيس او قلاسي او قلنس . (٥)

ومما حظر على النصارى لبسه المنطقة او المنطق او النطاق وهي حزمة يشد بها الوسط او شقة تلبسها المراة وتشد وسطها وترسل منه قطعه تنجر الى الارض . (٦)

وقد امر النصارى ان يشدوا الزنانير والكساتيج مكان المناطق . والفرق بين المنطقة والزنار ان المنطقة من المناطق اما الزنار فيكون عادة من الجلد او من خيوط الحرير الابريسم . يقول البستاني: " الزنار ما يشد على وسط رهبان النصارى والمجوس ... والعامة تستعمله بمعنى المنطقة مطلقا وقال في التعريفات الزنار خيط غليظ بقدر الاصبع من الابريسم يشد بالوسط وهو غير الكستيج " وهذا يوافق اصطلاح رهبان الافرنج الذين يتمنطقون ببند من الحرير يرخون الطرف

---

١) ياقوت معجم البلدان ص ١٨٤ (٢) الكندي ص ٤٦٠ (٣) ديوان ج ١ ص ٥٩ ... ١٢٦

٤) راجع مقال W.Bjorkman - Kalansuwa في الموسوعه الاسلامية مج ٢ ص ٦٧٧ – وراجع الفخري في الاداب السلطانيه ص ٣٢ ، Dozy ج ٢ ص ٤٠١ (٥) ابن منظور ج ٨ ص ٦٤ ، الفيروزابادي ج ١ ق ٢ ص ٢٦٦ ، الزبيدي ج ٤ ص ٢٢ ، البستاني – المحيط مج ٢ ص ١٧٥٦

٦) البستاني – المحيط – ج ٢ ص ٢٠٩٠

الواحد منهم الى ترب الارض . والظاهر ان هذا الاصطلاح كان محكوما به في الزمان القديم الى جميع الذميين في بلاد المسلمين . فكانوا يتزنرون بخيط دقيق وعليه قول المسلمين ان الذمي اذا عطس ينقطع زناره . اي ان الذمي السالك بحسب مقتضى الذمة يكون زناره خيطا دقيقا اذا عطس ينقطع من ضغط احشائه له [1] . والكستج جمع كستيجات ما يشبه الزنار . وهو خيط غليظ بقدر الاصبع من الصوف او الليف يشده الذميون فوق ثيابهم دون ما يتزينون به من الزنانير المتخذة من الابريسم . وهو معرب كستي بالفارسية [2] .

وجاء في وصايا القاضي ابي يوسف الى الرشيد ان عمر بن الخطاب منع النصارى من لبس القباء واثواب الخز والعصب . فالقباء جمع اقبية ثوب يلبس فوق الثياب وقيل يلبس فوق القميص ويتمنطق به وهو المعروف عند المولدين بالقنباز . [3] اما المتوكل فصرح لهم بلبس الاقبية شرط ان يلبسوا فوقها الارديه العسلية . اما اثواب الخز فهي الثياب المنسوجة من الصوف والحرير او من الحرير فقط [4] اما العصب فالمعروف عنها انها برود يمانيه يعصب غزلها ان يجمع ويشد ثم يصبغ ويأتي موشيا لبقاء ما عصب منه ابيض لم يأخذه صبغ . ويقول البستاني انه برد يصبغ غزله ثم ينسج ولا يشتى ولا يجمع وانما يثنى ويجمع ما يضاف اليه والغالب على لونها الاحمرار الخفيف . [5]

وكان النصارى يلبسون الطيالسة جمع طيلسان وهو كساء مدور اخضر لا اسفل له لحمته او سداه من صوف يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ وهو من لباس العجم تعريب تالسان بالفارسية . الا ان المتوكل اجبرهم على لبس الطيالسة العسلية فقط . [6]

والزم الحاكم بامر الله النصارى بلبس الغيار . والغيار معناه البدال وهو علامة اهل الذمة [7] ويقول هيك : T.W.Haig في مقالة غيار Ghiyar في الموسوعة الاسلامية انه علامة

---

١) البستاني - محيط ج ١ ص ٨٨٩ (٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٨١٢
٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٦٦٠ ٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٣١
٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٤٠٦ ٦) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢٨٨ ، دائرة المعارف ج ١١ ص ٢٨٥ (البستاني) ٧) البستاني ج ٢ ص ١٥٦٠

او قطعه من اللبادين يضعها اهل الذمة من النصارى والمجوس واليهود على اكتافهم ليتميزوا بها وخيار النصارى هو اللون العسلي الاصفر [١].

وعلى النصارى ان يجعلوا شراك نعالهم مثنية كما جاء في كلام ابي يوسف . اما ابن عساكر فيذكر من جملة اوامر عمر بن عبد العزيز الى النصارى ان لايلبسوا نعالا ذات عذبة . والعذبة جلدة معلقة خلف مؤخرة الرجل او النعل . [٢]

اما ما جاء من قواعد الركوب فقد حظر على النصارى استعمال السروج عند الركوب وليركبوا على اكاف . والاكاف او الوكاف برذعة الحمار [٣] . واذا ما صرح لهم بركب السروج فيجب ان يضعوا عليها مثل الرمانة من خشب في موضع القرابيس . والقرابيس تقع في راس انحناء السرج [٤] .

ذكر الابشيهي ان من جملة الاحكام التي سنها اصحاب المذهب الشافعي ان يكون في رقاب النصارى خاتم من نحاس او رصاص دوما [٥] . ولم يرد في العهدة العمرية او في اوامر عمر بن عبد العزيز او في الاحكام التي فرضها بعض الخلفاء على النصارى ليما يعد شيئا من هذا القبيل وكل مانعرفه ان عمر بن الخطاب ارسل عثمان بن حنيف وحذيفه بن اليمان ليمسحا اراضي السواد وياخذا الجزية فختم عثمان في رقاب خمسمائة الف وخمسين الف من اهل الذمة [٦] هذا ان صحت هذه الرواية . وجاء كذلك في كتاب لعمر بن الخطاب الى عمر بن العاص ان يختم في رقاب اهل الذمة بالرصاص [٧] . ويروى ابو يوسف ان عمر كتب الى عماله ان يختموا رقاب اهل الذمة [٨] . وربما كان نصيب هذه الاوامر المعزاة الى عمر كنصيب العهدة المنسوبة اليه اذ لايمكن الاعتماد عليها . ولاغرابة ان تكون احدى الروايات الضعيفه التي كان يجعجع يدسها بعض الرواة فتتناقلها الالسن .

ويجب ان لانتصور ان هذه الاختام يجب ان تحمل دوما . فابو يوسف يحدثنا

---

١) الموسوعة الاسلامية ج ٢ ص١٥ (٢) البستاني - محيط ج ٢ ص١٣٥٦

٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٠ (٤) المصدر نفسه ج ٢ ص١٦٨٤ (٥) المستطرف ج ص

٦) البلاذري ص٢٦٩ ، ٢٧١ (٧) ابن عبد الحكم ص ١٥١

٨) الخراج ص١٥٣

ان عثمان بن حنيف عندما انتهى من ختم رقاب اهل الذمة في السواد وعرضهم واستصفاء الخراج منهم امر بكسر الخواتيم [1] . ويفهم من كلام ابي يوسف ان الختم لايستعمل الا في جمع الخراج ، يقول : "وينبغي مع هذا ان نختم رقابهم في وقت جزية رؤوسهم حتى يفرغ من عرضهم ثم تكسر الخواتيم كما فعل عثمان بن حنيف ان سالوا كسرها " [2]

وقد ظهر الختم في مصر بمظهر اخر في العصر الاموي . ففي زمن يزيد بن عبد الملك (سنه ١٠٤ هـ) اشتد اسامة بن زيد التنوخي متولي الخراج على النصارى ووسم ايدي الرهبان بحلقة حديد هي اسم الراهب واسم ديره وتاريخه وكل من وجده بغير وسم قطع يده [3] . وفي خلافة هاشم بن عبد الملك جعل والي مصر حنظله بن صفوان على كل نصراني وسما بصورة اسد وتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده [4] .

ولانسمع في العصر العباسي عن حوادث ختم الرقاب الا ماذكره احد مؤرخي السريان ان موسى بن مصعب في زمن الخليفه المنصور ختم اعناق الرجال بالرصاص . والاكثر انه استغني عنها في العصور التاليه فلم تعد الحاجة تقضي لممارستها بعد ان دونت الدواوين وسجلت فيها اسماء دافعي الضرائب طالما هي عادة ترافق اوقات جمع الخراج فقط وكل ماحدث فيها هو استثنائي ولايمكن ان يعد قاعدة عامة درج عليها كل الحكام وفي كل الايام [5]

وينقل الاستاذ تريتون Tritton عن احد المؤرخين Joshua Stylites ان العرب يجب ان لايخجلوا من اختراع هذه العادة لان البزنطيين عرفوها قبلهم فقام بعض حكامهم سنه ٥٠٠ ب . م في ختم رقاب الناس والفقراء بالرصاص [6] .

+ + + + + + + + +
+ + + + + + +
+ + + + +
+ + +
+

---

1) الخراج ص ١٥٣ ‏‏ ٢) المصدر نفسه ص ١٥١

٣) المقريزي ج ٢ ص ٤٩٢ ‏‏ ٤) المقريزي ج ٢ ص ٤٩٢

٥) Tritton عن Anonymous Syriac Chronicle: I,299, 340 p.124

٦) Tritton p. 125

الفصل الثاني

التطور الدينية ـ الاعياد والمواسم ـ الاحتفالات

ان الدين الاسلامي لم يعره على اهل الذمة من النصارى واليهود مرضا ولعل من مميزاته انه رعى حقوق الديانات الاخرى في العبادة واحترم شعائرها الدينية ، وابا لها التمتع بكل الحقوق والواجبات التي تخص المعتقدات والعادات الدينيه . على ان هذا التسامح لم يخل من بعض التقييدات تمنعهم مثلا من الضرب على الناقوس بصوت عال واظهار الصلبان في الشوارع والاسواق واقامة المواكب والاحتفالات الدينية حتى هذه الموانع نفسها ماكانت تظهر الا في المدن المزدحمة بالسكان المسلمين اما في الضياع والقرى فيكاد النصارى يكونون احرارا في جميع طقوسهم وشعائرهم الدينية . ويجب ان يرحظ ثانيه كما ستبرهن الحوادث على ذلك ان هذا القيد الذي اخذ به النصارى والذي كان يتنبه اليه المؤرخون بين حين واخر لم يكن الا قيدا استثنائيا دوريا يتوقف تجدده على شعور عامة المسلمين في فترات الضعف والعصبية وعلى اهواء الحكام ورغائبهم الفردية الخاصة . ومما لايمتر انه على الرغم من ان العصر العباسي قد عرف بتقييده وتشدده في اقامة هذه الاحكام في بعض الفترات فالوقائع تبرهن لنا في احيان كثيرة ان النصارى كانوا يقومون بطقوسهم واحتفالاتهم الدينيه بكل حرية ، فكانت جنائزهم ومواكبهم تمر في شوارع بغداد مشيعه بكل رموز وشارات الديانه النصرانية . وفي مصر كان المسلمون يقصدون الاعياد النصرانيه للنزهة وللترويح عن النفس وكان بعض الخلفاء يحيط هذه الاعياد برعايته فيوزع الجوائز والعطايا على النصارى والمسلمين معا ويامر باقامة معالم الزينه في كل حدود مملكته فرحا وابتهاجا .

ويخطئ كل من يعتقد او يتصور ان العصور القديمه كانت عصورا مظلمة قاتمة بالنسبة للعلاقات بين المسلمين والنصارى . فهناك نواحي مشعه تنير تلك الظلمة وتنشر الوانها الزاهية على فترات الضيق والشدة لتكسر من حدتها وعنفها .

يرجع المؤرخون العرب نشوء تلك الاحكام الى الخليفة عمر بن الخطاب والى الخليفة عمر بن عبد العزيز . قيل ان ابا عبيده بن الجراح عندما افتتح الشام صالح اهلها على

ان لا يرفعوا في نادى اهل الاسلام صليبا ولا يخرجوا خنزيرا من منازلهم الى افنية المسلمين ، ولا يضربوا نواقيسهم قبل آذان المسلمين ولا في اوقات آذانهم ، ولا يخرجوا الرايات في ايام عيدهم . وسمح لهم باخراج راياتهم بلا صلبان في يوم عيدهم الاكبر . (١) وجاء في كتاب كتبه عمر ابن الخطاب الى ابي عبيده : "واما اخراج الصلبان في ايام عيدهم فلا تمنعهم من ذلك خارج المدينة بلا رايات ولا بنود على ما طلبوا منك يوما في السنة . فاما داخل البلد بين المسلمين ومساجدهم فلا تظهر الصلبان ." (٢)

على ان العهود التي اخذها القواد العرب على النصارى في ايام الفتوح لم تكن كلها متفقة متوافقة . فخالد بن الوليد صالح نصارى السواد على ان لا يمنعوا من ضرب النواقيس ولا من اخراج الصلبان في يوم عيدهم . (٣) وجاء ايضا في عهوده لاهل عانات وقرقيسيا (على الفرات) ان يضربوا نواقيسهم في اي ساعة شاءوا من ليل او نهار الا في اوقات الصلوات وعلى ان يخرجوا الصلبان في ايام عيدهم . (٤) ومما اخذه نصارى الشام على انفسهم كما جاء في العهدة المنسوبة الى عمر ان لا يظهروا صلبانهم وكتبهم في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ولا يضربوا نواقيسهم في كنائسهم الا ضربا خفيفا ولا يرفعوا اصواتهم بالقراءة في الكنائس في شيء من حضرة المسلمين ولا يخرجوا شعانينهم ولا باعوثهم ولا يرفعوا اصواتهم مع موتاهم ولا يظهروا النيران في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم . (٥)

على ان هذه الشروط على اختلافها نوسيت في العصور الاولى وفي احيان كثيرة وما كانت تظهر الى الوجود الا في فترات قصيرة متقطعة . فمسلمة بن مخلد امر ان لا يضرب بناقوس عند آذان الفجر في مصر (٦) . وعبدالعزيز بن مروان امر بتحطيم الصلبان في مصر السفلى . (٧)

---

(١) ابو يوسف – الخراج ص ١٦٥ — (٢) المصدر نفسه ص ١٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٧١ — (٤) المصدر نفسه ص ١٧٥ .

(٥) الطرطوشي ص ١١٠ — (٦) المقريزي ج ٢ ، ص ٢٤٨

(٧) Severus p. 131 عن Tritton p. 103 المقريزي ج ٢ ، ص ٤٩٢

ويذكر ابن قتيبة ان معاوية كان يصاب بالارق في آخر حياته ، فلا يناله النوم الا قبيل الصبح . وكان الى جانب قصره - قصر الخضراء بدمشق ، كاتدرائية القديس يوحنا تقرع نواقيسها عند الصباح ، وقت نوم الخليفة فتوقظه وتؤذيه . فاحتمل معاويه هذا اذ لم ير لنفسه الحق بمنع النصارى قرع نواقيسهم . ولكنه لجأ الى حيلة ظنها تكفيه مؤنة الالم والارق . فلما لم تنجح الحيلة صرف النظر عن هذا الامر . (١) اما الوليد بن عبد الملك فيقول المسعودى انه صعد المنبر فسمع صوت ناقوس فقال ما هذا ؟ قيل له البيعة . فامر بهدمها وتولى بعض ذلك بيده . (٢) وقد تميز عمر بن عبد العزيز عن بقية الخلفاء في تقييد النصارى فمنع ضرب النواقيس ورفع الاصوات بالقراءة اثناء الصلاة (٣) . وقد رأينا ما كان يفعله خالد القسرى والي الكوفه عندما بنى كنيسة لامه النصرانية في ظهر قبلة المسجد الجامع فكان اذا اراد المؤذن في المسجد ان يؤذن ضرب لها بالناقوس . واذا قام الخطيب على المنبر رفع النصارى اصواتهم بالقراءة (٤) .
ولا ندرى مبلغ صحة هذه القصة التي يذكرها ساويرس في تاريخ البطاركه فنقلها بتحفظ هي ان هشام بن عبد الملك بنى لاحد البطاركه بيتا بجانب قصره الذى يجاور الكنيسة الكبرى بدمشق حتى يتمتع له سماع الصلوات والخدمات . وكثيرا ما قال للبطريرك : ان السلام والأمن تحلان علي عندما تصلون صلاة الليل فاطمئن على مملكتي ويطرقني النعاس فانام براحة (٥) . وقد عرف عن هشام كما يقول ساويرس انه كان يتلطف بالنصارى ويرعاهم بعنايته . وفي ايامه دخل البطريرك ميخائيل الاسكندرية يحف به موكب عظيم فخم مزدان بالشموع والصلبان والاناجيل (٦) .

ومما يقصه البطريرك ميخائيل السرياني ان عمرو بن سعد او عمير بن سعد - احد الولاة الذين لم نستطع ان نتبين هويتهم في العصر الاموى - منع ان تظهر الصلبان حتى في الاعياد والطوافات . قال : "ففرح بذلك اليهود وجعلوا ينزعون الصلبان من الكنائس . فرأى نصراني

---

(١) عيون الاخبار ص ٢٣٨ طبعة بروكلمن عن البستاني - مشرق ٣٦ : ص ٨٧

(٢) المسعودى - مروج ج ٥ ، ص ٣٨١ .

(٣) S.A.,I,307 عن Tritton p. 104

(٤) الاغاني ج ١٩ ص ٥٩

(٥) Severus p.145 عن Tritton p.106

(٦) Severus p.163 عن Tritton p.106

صديق للامير يهوديا يركض فوق سقف كنيسة القديس يوحنا المعمدان ليأخذ صليبها • فاشتدت غيرته واسرع الى الامير وقال له ايها الامير العادل ليس من الانصاف ان تدع اليهود يهزاون بديننا • فغير الله قلب الامير • فاجابني لسم امر ان ترفع الصلبان غير التي تكون مرسومة في الطرقات على الحيطان • واوعز الى من بحضرته ان يدرك اليهودي وهو نازل وبيده الصليب • فاسترده منه وضربه على راسه ضربة نثرت دماغه فمات • فسر النصارى وخزي اليهود وبطل الامر • وعاد النصارى يظهرون الصلبان في الطوافات والاعياد والجنائز • الا في حمص ودمشق فانهم استمروا على الامتناع منذ بروز مرسوم الامير عمرو»(١) .

تدلنا هذه الحوادث ان ليس هناك قانون عام مفروض على الطقوس الدينية يجب اتباعه في كل الظروف والاحوال • واذا كان العرب في ابتداء حكمهم قد راعوا هذه القيود في مناسبات مختلفة فما ذلك الا لان الاسلام كان في بدء نموه وسيطرته فكان لابد لهذه الجذوة الدينية المتقدة والحماس الديني الجديد من ان يرعى جانبهما فلا يصدما بمجاهرة طقوس ديانة اخرى وهذا ما فعله بعض الخلفاء في العصر الراشدي والعصر الاموي ولا يعزى التقيد بهذه الاحكام والنسج على منوالها في العصور التالية الا الى تشبث المدارس الفقهية التي ارادت ان تخضع جميع العقائد الاسلامية من عادات وعبادات الى سنن وفرائض ثابتة مقررة • والا الى وجود بعض من يعضد هذه السنن من الخلفاء والحكام المعروفين بشدتهم ورجعيتهم • اضف الى كل هذا ما كان ينشأ عن ضعف الدولة وانحطاطها من ضيق العقلية والعصبية الدينية اللذين يدفعان الى احياء القديم على الرغم من تناقضه ومنافاته لمقتضى الحال ولروح الشريعة الاسلامية •

ففي زمن هارون الرشيد جرت العادة ان يحمل النصارى صلبانهم في مواكبهم وكان من حقهم ان يحملوه في عيد الفصح على الاقل حسب ما جاء في شروط عمر بن الخطاب ونواده لهم • وقد ذكر احد المؤرخين السريان ان هارون الرشيد مر بالرها فتجمع الاعراب اليه ووشوا بالنصارى مدعين انهم كانوا عيونا وجواسيس للامبراطور البزنطي الذي كان ياتي كل سنه متخفيا ويصلي في الكنائس وطلبوا الى الرشيد ان يخرب كنائسهم ويخرس نواقيسهم ولكن شفاعة وزيره يحيى ونصائحه خيبت آمالهم فرد الرشيد طلبهم (٢)

---

١) تاريخ ميخائيل السرياني (طبع Chabot) جزء ٢ ص ٤٣٢ عن الزيات ــ الصليب ص ٨٠ •

Tritton p.106 عن S.A. II, 3 (٢) Tritton p.105 عن S.A. I,262

ولما توفى جبرائيل بن بختيشوع صرح الخليفة المامون لابنه بختيشوع ببناء دير مار سرجس بالمدائن الذى كان به دفن والده . فعمد بختيشوع الى الدير فعمره وجمع له رهبانا واجرى عليهم الجرايات والنفقات [١] . وكان المعتصم يحترم طبيبه النصراني سلمويه بن بنان ويجله فلما مات الطبيب "امتنع المعتصم عن الاكل فى ذلك اليوم وامر باحضار جنازته الى الدار وان يصلى عليها بالشمع والبخور على راى النصارى ففعل ذلك وهو يراهم" [٢]

على ان قوانين المتوكل واوامره كانت صارمة وشديدة الوطاة كما هو معلوم لدينا فقد نهى ان يظهر فى شعانينهم صليبا وان يشعلوا فى الطريق وامر بتسوية قبورهم مع الارض لئلا تشبه قبور المسلمين . او ان يشعلوا فى الطريق نارا . [٣]

وكثيرا ما كانت المصائب تجمع المسلمين والنصارى من ذلك ما ذكره ابن الاثير سنه ٣١٩ هان سيلا كبيرا من المطر نزل الى البر وجاء الى تكريت فغرق منه اربعمائة دار وارتفع الماء فى اسواقها اربعة عشر شبرا وغرق خلق كثير من الناس ودفن المسلمون والنصارى مجتمعين لايعرف بعضهم من بعض [٤] .

ومما يلاحظ ان المسلمين اظهروا اهتماما خاصا باعياد النصارى ومواسمهم واحتفالاتهم الدينية حتى انهم فى بعض الاحيان كانوا يزينون لهم الاسواق ويقيمون لهم معالم الزينة كما نوه بذلك الجغرافي المقدسي [٥] .

"ومن اعياد النصارى التى يتعارفها المسلمون ويقدرون بها الفصول ، الفصح وقت النيروز ، والعنصره ووقت الحر ، والميلاد ، وقت البرد ، وعيد برباره ، وقت الامطار ، ومن امثال الناس اذا جاء عيد برباره فليتخذ البناء زمارة - يعني فليجلس فى البيت . والقلندس : ومن امثالهم اذا جاء القلندس فتدفى واحتبس . وعيد الصليب وقت قطاف العنب ، وعيد لد وقت الزرع " [٦]

ويقول المسعودى فى عيد كنيسه القمامة " اى عيد النخلة - الزيتون - (تجتمع

---

١) القفطي ص ١٤٢ ٢) القفطي ص ٢٠٧ ، ابن العبرى ص ٢٤٣

٣) الطبرى : الجمله الثالثة : ص ١٣٨٩ (٧/) المقريزى ج ٢ص ٤٩٤

٤) الكامل ج ٨ ص ١٧٩ (٥) احسن التقاسيم ص ٤١٩

٦) المقدسي ص ١٨٢

النصارى من سائر الارض وتنزل عندهم النار من السماء فتسرج هناك الشمع لتجتمع فيه من المسلمين خلق عظيم للنظر الى هذا العيد ويقلع فيه ورق الزيتون وتكون للنصارى فيه اقاصيص.(١)

وفي اول كانون الثاني اوما يسميه المسعودي بالقلندس يكون بالشام "لاهله عيد يوقدون في ليلته النيران ويظهرون لاسيما بمدينه انطاكيه ـ ربما يكون في كنيسة القسيان بها ـ من القداس عندهم ، وكذلك بسائر الشام وبيت المقدس ومصر وارض النصرانية كلها ، وما يظهر اهل دين النصرانية بانطاكيه من الفرح والسرور وايقاد النيران ويساعدهم على ذلك كثير من اعوام الناس وكثير من خواصهم".(٢)

اما في مصر فيعد المقريزي للنصارى القبط اعيادا كثيرة كان يهتم بها المسلمون ويترقبون ايامها منها : عيد البشاره ،وعيد الزيتونه ، وعيد الفصح ، وعيد خميس الاربعين ، وعيد الخميس ، وعيد الميلاد ، وعيد الغطاس ، وعيد الختان ، وعيد الاربعين ، وخميس العهد وسبت النور ، واحد الاحود ، والتجلي ، وعيد الصليب ، ولهم مواسم اخر ليست عندهم من الاعياد الشرعية لكنها عندهم من المواسم العادية وهو يوم النوروز (٣) .

في يوم الغطاس وهو العيد الذى يقام تذكارا بتعميد المسيح اى غسله في بحيرة الاردن من قبل يوحنا المعمداني ،يخرج النصارى فيغمسون اولادهم في الماء وينزلون فيه باجمعهم ولايكون ذلك الا في شدة البرد . وكان له بمصر موسم عظيم الى الغاية لاينام الناس فيها . ففي سنه ٣٣٠ هـ في ليلة الغطاس "كان الاخشيد محمد بن طغج امير مصر في داره المعروف بالمختار في الجزيرة الراكبه للنيل والنيل يطيف بها ، وقد امر فاسرج في جانب الجزيرة وجانب الفسطاط الف مشعل غير ما اسرج اهل مصر من المشاعل والشمع . وقد حضر بشاطئ النيل في تلك الليله الاف من الناس من المسلمين والنصارى منهم في الزواريق ومنهم في الدور الدانيه من النيل ومنهم على سائر الشطوط لايتناكرون كل مايمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس والات الذهب والفضه والجوهر والملاهي والعزف والقصف وهي احسن ليلة تكون بمصر واشملها سرورا ولا تغلق فيها الدروب . ويغطس اكثرهم في النيل ويزعمون ان ذلك امان من المرض ونشرة للداء". (٤)

---

١) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠٥ (٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٠٦

٣) الخطط ج ١ ص ٢٦٤ (٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٦٥

ويذكر المقريزى عن تاريخ المسبحي انه فى سنه ٣٦٧ هـ "منع النصارى من اظهار ما كانوا يفعلونه فى الغطاس من الاجتماع ونزول الماء واظهار الملاهى ونودى ان من عمل ذلك نفي من الحضرة ." وقال فى سنه ٣٨٨ هـ كان الغطاس نصبت الخيام والمضارب والاسرة فى عدة مواضع على شاطىء النيل ونصبت اسرة للرئيس فهد بن ابراهيم النصرانى كاتب الاستاذ برجوان واوقدت له الشموع والمشاعل وحضر المغنون والملهون وجلس مع اهله يشرب الى ان كان وقت الغطاس فغطس وانصرف" وفى سنه ٤٠١ هـ منع النصارى من الغطاس فلم يغطس احد منهم فى البحر.ولما حان يوم الغطاس فى سنه ٤١٥ هـ اخذ الناس فى شراء الفواكه والضأن وغيره "ونزل امير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله لقصر جده العزيز بالله فى مصر لنصر الغطاس ومعه الحرم ونودى ان لا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم فى البحر فى الليل . وضرب بدر الدولة الخادم الاسود متولي الشرطتين خيمة عند الجسر وجلس بها . وامر امير المؤمنين بان توقد النار والمشاعل فى الليل وكان وقيدا كثيرا وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران فقسوا هناك طويلا الى ان غطسوا ."

وكان يفرق اهل الدولة فى يوم الغطاس ما جرت به العادة لاهل الرسوم من الاترج والنارنج والليمون واطنان القصب والبورى بحسب الرسوم المقررة بالديوان لكل واحد ." (١)

وكان من عادة الدولة الفاطميه كذلك فى عيد الميلاد "تفرقة الجامات المملوءة من الحلاوات القاهرية والمثارد التى فيها السمك وقرابات الجلاب وطبائير الزلابية والبورى . فيشمل ذلك ارباب الدولة اصحاب السيوف والاقلام بتقرير معلوم ." (٢)

وكان من عادة النصارى كذلك الاجتماع فى عيد الصليب ، وهو اليوم الذى وجد فيه الصليب الذى صلب عليه المسيح - وزيارة الاماكن المقدسة . ففى سنه ٣٨٢ هـ " خرج الناس فيه الى بني وائل وجروا على عادتهم فى الاجتماع واللهو ... وفى سنه ٤٠٢ هـ قرىء ... سجل بالجامع العتيق وفى الطرقات كتب عن الحاكم بامر الله يشتمل على منع النصارى من الاجتماع على عمل عيد الصليب وان لا يظهروا بزينتهم فيه ولا يقربوا كنائسهم وان

---

١) المقريزى - خطط ج ١ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ، ٤٩٤ .

٢) المقريزى " ج ١ ص ٤٩٤ .

يمنعوا منها »(١). وجرت العادة فى عيد الصليب ان يفتح سد الترعة عندما يطغي النيل لينحدر الماء الى ضياع الريف وذلك باحتفال كبير يحضره السلطان (٢) . وكان النصارى فى الجزيرة الفراتية يزينون كثيرا استعدادا لعيد الصليب وتبرز نساؤهم بالحلي والحلل ، ومن هذا ما حكاه الحسن بن يعقوب قال : « صرت الى الرها فبت بها . وخرجت قبل عيد الصليب بيوم فاذا لدينا وجوه حسان من نصرانيات خرجن لعيدهن عليهن جيد الثياب وفاخر الجوهر ، واذا روائح المسك والعنبر قد طيب الهواء منها . وقد ترجلهن على العجل وهو يجرّ بهن . واخريات على الشهارى الخراسانيه والبغلات المصرية والحمر العره ومشاة . وفى خلال ذلك صبيان ما رايت احسن منهم وجوها وقدودا وثيابا فتاملت منظرا لم ار احسن منه قط واذا هم يطلبون دير زكى ليعيدوا فيه »(٣) .

ومن الاعياد التى كانت تجرى بها الاحتفالات الكثيرة وتستجلب نحو المسلمين بصورة خاصة عيد النخلة او عيد الشعانين او عيد الزيتونه كما يسميه بعضهم . وسنة النصارى فى هذا العيد ان يخرجوا سعف النخل من الكنيسة « ويرون انه يوم ركوب المسيح العنو او اليعفور » كما يقول القلقشندى ج ٢ ص ٤١٥ » - وهو الحمار فى القدس ودخوله الى صهيون وهو راكب والناس بين يديه يسبحون وهو يامر بالمعروف ويحث على عمل الخير وينهى عن المنكر ويباعد عنه . وكان عيد الشعانين بمصر التى تزين فيها كنائسهم » . وفى سنه ٣٧٨ كان عيد الشعانين فمنع الحاكم بامر الله النصارى من تزيين كنائسهم وحملهم الخوص على ما كانت عادتهم (٤) .

وكان بعض الخلفاء العباسيون يجيئون عيد الشعانين ويشاركون النصارى بافراحهم . خرج المامون مرة ونزل الدير الاعلى بالموصل وجاء عيد الشعانين فزين « الدير فى ذلك اليوم باحسن زى . وخرج رهبانه ونسائه الى المذبح وحولهم فتيانهم بايديهم المجامر قد تقلدوا الصلبان وتوشحوا بالمناديل المنقوشة . فراى المامون ذلك فاستحسنه . ثم انصرف القوم الى قلاليهم وقربانهم . وعطف الى المامون من كان معهم من الجواري والجوارى والغلمان بيد كل منهم تحية من رياحين وقتهم . وبايدى جماعة منهم كؤوس فيها انواع الشراب

---

(١) المقريزى ج ١ ص ٢٦٧
(٢) المقدسي ص ٢٠٦ ، المسعودى ج ٢ ص ٤٠٢
(٣) مسالك الابصار ص ٢٦٥
(٤) المقريزى ج ١ ص ٢٦٤ ، ٤٩٥

فادناهم وجعل ياخذ من هذا ومن هذه تحيته وقد شغف بما راه منهم ".(١)

وكان ابو نواس يخرج الى دير نهرازاذان يزور عيد الشعانين ومما قاله فيه :

بدير نهرازاذان لي مجلس	وملعب وسط بساتينه
رحت اليه ومعي فتيـــه	نزوره يوم شعانينه
بكل طلاب الهوى ناسك	قد اثر الدنيا على دينه
حتى توافينا الى مجلس	تضحك الوان رياحينه ...(٢)

ويظهر ان بعض الشعراء الماجنين كانوا يحبون عيد الشعانين فيتبعون هواهم ويميلون الى رمز العيد ورونقه . من هذا ما حكاه حمزه ابن ابي سلامة عن الشاعر الثرواني المعروف بالعبث والهزل والاستهتار . قال " كان الثرواني جارى بالكوفه وكان كثير الالمام بالديرة ، فباكرني في يوم شعانين وقال لي : اعزم بنا اليوم على الشرب في دير الحريق ، فانه يوم سيقصده فيه خلق ولي به صديق من رهبانه ظريف مليح الفلايه ، جيد الشراب فهلم نمزه اعيننا فيما نراه من الجواري والغلمان ، ثم نعد الى قلايه صديقنا فنشرب على سطحها المشرف على الرياض . فخرجنا فرأينا من النساء والوصائف والولدان في الحلي والحلل مالم ارمثله قط . فلم يزل يعبث ويتعرض ويقبل ويعانق — وكان معروفا بذلك — فما احد ينكر عليه فعله ، الى بعد الظهر ثم اتينا قرية صديقه الراهب فلقيه بالاكرام والترحيب فدخلنا قلايته فما راينا انظف من الاتها ولا انضر من بستانها . ثم قدم لنا شيئا من طعامه فاصبنا منه . ثم صعدنا سطحها وجلسنا ننظر الى منظر يبهر حسنا وجمالا : من رياض وغدران وطير يصفر . ونحن نشرب حتى ثملنا ونمنا هناك . فغدونا على الكوفة فقلت له : تتراك هذا اليوم مع حسنه عاطلا من حليّ شعرك ؟ فقال : لا والله ، ولقد عملت في ليلتي هذه ، هذه الابيات . ثم انشدني

خرجنا في شعانين النصارى	وشيعنا صليب الجاثليق
فلم ار منظرا احلى بعيـــني	من المتفينات على الطريق
حملنا الخوص والزيتون حـــتى	بلغنى به الى دير الحريق
ادلناهن بالحظات عشـــقا	واضمرنا لهن على الفسوق ...(٣)

---

١) الديارات للشابشتي ص ٧٦عن الديارات للزيات ص ٤٤

٢) ديوان ... ص ٤٦٧

٣) مسالك الابصار ص ٣١٥ — ٣١٦

ومن الاعياد النصرانية خميس العهد "ويعمل قبل الفصح بثلاثة ايام وسنتهم فيه ان يملؤا اناء من ماء ويزمزمون عليه ثم يغسل للتبرك به ارجل سائر النصارى ويزعمون ان المسيح فعل هذا بتلامذته في مثل هذا اليوم كي يعلمهم التواضع ، ثم اخذ عليهم العهد ان لايتفرقوا وان يتواضع بعضهم لبعض. وعوام اهل مصر في وقتنا يقولون خميس العدس من اجل ان النصارى تطبخ فيه العدس المصفى . ويقول اهل الشام خميس الارز وخميس البيض . ويقول اهل الاندلس خميس أبريل ، وأبريل اسم شهر من شهورهم . وكان في الدولة الفاطمية تضرب في خميس العدس هذا خمسمائة دينار تعمل خراريب (عمله صغيرة -عشرين الف خروبه) تفرق في اهل الدولة برسوم مقرره .... "وخميس العدس من جملة المواسم العظيمة فيباع في اسواق القاهرة من البيض المصبوغ عدة الوان ما يتجاوز حد الكثرة فيقامر به العبيد والصبيان والغوغاء ويهادى النصارى بعضهم بعضا ويهدون الى المسلمين انواع السمك المنوع مع العدس المصفى والبيض" . (١)

ومن الاعياد التي خصها الشعراء باشعارهم فوصفوها وصفا حسنا لما كان يقام بها من المهرجانات : يوم الباعوث وهو صلاة ثاني عيد الفصح عند النصارى الشرقيين (٢) فما قاله احد الشعراء فيه :

سقيا لحران انه بلــد	اصبح للهو ، وهو مضمار
في يوم باعوثهم وقـــد نشـــــروا الصلبان والمسلمون نظار	
فمن مهاة هناك مقبلـة	ومن غزال عليـــه زنـــار
ازحم هذا وتلك تزحمني	وفي الحشا والفؤاد اسعار
فعارضتني هـناك شاطرة	منهم بها في الذراع اسوار
تقول لي ، والدلال يصرعها	انحن ، يامسلمون كفـــار
فقلت يا غايتي ويا املـي	بل انتم المؤمنون اخيار
اطلب منها بذاك فريســة	والشعراء الخباث تجــار ...(٣)

وللنصارى اعياد اخرى ومواسم عاديه كعيد راس السنه وعيد الشهيد وعيد مار سرجيس وعيد النوروز كان يقصدها المسلمون ويشتركون فيها . فمثلا كان بنو منقذ اصحاب قلعة شيزر ينزلون من -

---

١) المقريزي ج ١ ص ٢٦٦ و ٤٥٠ و ٤١٥ . (٢) البستاني - المحيط ج ١ ص ١٠٤

٣) ياقوت - معجم الادباء ج ٦ ص ٢٠٩ - ١١٠

فلعلهم لمشاهدة هذا العيد . [1] ويقول الشاعر علي بن الجهم يصف النصارى بهذا العيد :

نهن كمصطحبات خرجن   للفصح النصارى وانطارها
فمن بين عاقصة شعرها   ومصلحة عقد زنارها .... [2]

ويظهر ان اكثر الاعياد كانت تقام في الهواء الطلق فيجتمع اليها اهل الضيع والقرى المجاورة . يذكر ياقوت ان اعياد " النصارى ببغداد مقسومة على ديارات معروفة منها اعياد الصوم الاحد الاول في دير العاصية ، والثاني في دير الزريقيه ، والثالث دير الزند ورد ، والرابع دير درمالس هذا يجتمع اليه النصارى والمتفرجون " [3] . وربما كانت الاديرة مالوفة مطروقة من المسلمين اكثر من الاماكن الاخرى لانها نزهة بهيجة طيبة الهواء . فدير الخنافس الذي يقع في غربي دجلة على قلة جبل شامخ وهو دير صغير لايسكنه اكثر من راهبين فقط . وهو نزه لعلوه على الضياع واشرافه على انهار نينوى والمرج ، له عيد يقصده اهل الضياع من كل عام مرة . [4]

ومن الغريب ما يرويه ياقوت عن عيد الشهيد في ديريحنس قرب سمنود من اعمال مصر . فاذا " كان يوم عيده اخرج شاهده في تابوت فيسير التابوت على وجه الارض لايقدر احد ان يمسكه ولا يحبسه حتى يرد البحر فيغطس ثم يرجع الى مكانه ... وهذا من تهاويل النصارى ولا اصل له والله اعلم ." [5] وتوافق هذه القصة قصة اخرى ذكرها المقريزي عن عيد الشهيد وكان من انزه في مصر واعيادها . يزعم نصارى مصر ان النيل لايزيد في " كل سنه حتى يلقي النصارى فيه تابوتا من خشب فيه اصبع من اصابع اسلافهم الموتى . ويكون ذلك اليوم عيدا ترحل اليه النصارى من جميع القرى ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامة اهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط النيل وفي الجزائر ولايبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغي ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق الا ويخرج لهذا العيد . فيجتمع عالم عظيم لايحصيهم الا خالقهم وتصرف

---

1) ابن الاثيرج ١٠ ص ٣٣   (٢) ابن قتيبه عيون الاخبارج ١ ص ٣١٤
٣) معجم البلدان ج ٢ ص ٦٦٠   (٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٥٨
٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧١٠

اموال لاتنحصر ويتباهر هنات بما لايحتمل من المعاصي والفسوق وتثور فتن وتقتل اناس ·
ويباع من الخمر خاصة فى ذلك اليوم بما ينيف على مائة الف درهم فضة عنها خمسة الاف دينار
ذهبا · وباع نصراني فى يوم واحد باثنى عشر الف درهم فضه من الخمر · وكان اجتماع الناس
لعيد الشهيد دائما بناحية شبرى من ضواحي القاهرة · وكان اعتماد فلاحي شبرى دائما
فى وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر فى عيد الشهيد "(١)

على اننا يجب ان لاننسى ما كان يقوم بين آونه واخرى من تجدد مراسيم التضييق
والاهانات وتحرك الروح العصبية من هذا ما حدث فى بغداد سنه ٤٠٢ هـ عند وفاة امراة ابى
نصر بن اسرائيل احد كبار الموظفين النصارى · حملت الجنازة مشيعة بالصلبان والشموع ويحف
بها القسوس والرهبان وخرجت النوائح جهرة معها · فانكر ذلك بعض المسلمين فرجم الجنازة
بحجر كبير · فاحتاط الجنازة غلمان الامير مناصح الاتراك ليحرسوها وكان صديقا لابي نصر ،
وضرب احدهم المسلم بحد سيفه · فحصل من ذلك شغب كثير فتن فيه كثير من النصارى
والمسلمين وضرب ابو نصر واختفى فى دار الامير مناصح · وهرب النصارى بالجنازة للبيعة ·
ولما علم الخليفة بذلك سجن ابا نصر حتى هدات الاحوال ·(٢)
ويقول المقريزى ان اكثر الاعياد النصرانية فى مصر قد اوقفت سنه ٤٩٢ هـ · لكنها عادت
فظهرت فى السنوات التالية ولكنها لم تكن تجرى بالابهة نفسها التى كانت لها سابقا (٣)
ويلاحظ ان الضيق اشتد بالنصارى فى نهاية الدور العباسي عند دخول المغول الى الديار
الاسلامية · فروا فى هولاء الاقوام الجديدين خير معين لهم على التخلص من ظلم حكامهم
خاصة الاتراك منهم وشغب العامه عليهم فى طقوسهم واعيادهم · ومعروف عن المغول انهم
عطفوا على النصارى فى ابتداء دولتهم وكان منهم من اتبع الديانه النصرانية · فثار النصارى
على المسلمين ونالوا منهم ومن دينهم وربما تعصبوا على المسلمين اكثر من تعصب المسلمين
عليهم · من هذا القبيل ماذكره المقريزى فى كتابه السلوك قال : فى سنه ٦٥٨ هـ "
"استطال النصارى بدمشق على المسلمين واحضروا فرمانا من هولاكو بالاعتناء بامرهم واقامة
دينهم · فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان ورشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات ، وصبوه
على ابواب المساجد ، والزموا ارباب الحوانيت بالقيام اذا مروا بالصليب عليهم واهانوا من امتنع

---

١) المقريزى ج ١ ص ٦٨ و ٦٩ (٢) راجع Tritton B.H.265 ص p.108
تعرى بردى ج ٢ ق ٢ ص ١٢٤ (امبركيه ، الصليب فى الاصلام للزيات ص ٩٠-٩١
٣) راجع القلقشندى ج ٢ ص ٤١٩

من النيام للصليب وصاروا يمرون به فى الشوارع الى كنيسه مريم ويقفون به ويخطبون فى الثناء على دينهم وقالوا جهرا : "ظهر الدين الصحيح دين المسيح" . فقلق المسلمون من ذلك وشكوا امرهم لنائب هولاكو (وهو كتبغا) فاهانهم وضرب بعضهم ، وعظم قدر قسوس النصارى ونزل الى كنائسهم واقام شعارهم .(١)

الخلاصة يظهر لنا من مجرى الحوادث التى بسطناها ان المسلمين كرهوا الى حد ما التظاهرات العامة والاحتفالات الدينية النصرانية ، وجميع الموانع التى نشأت فى وجه تلك الاستعراضات تدل على واحد من اثنين هو اما ان تكون عهدة عمر لم تكن معروفة واما انها عرفت فتجوهلت . وقد جرب كل من عمر بن عبد العزيز والمتوكل ومن لف لفهما من الخلفاء الضغط على هذه المهرجانات العامة فلم يفلحوا اما . احكام الفقهاء واصحاب المذاهب فعلى الرغم من انها لم تكن شهادات جازمة لما كان يحدث فعلا من الامور فقد اتبعها الناس ولم يهجروها بتاتا /(٢)

وفى الواقع كانت الاعياد والمواسم النصرانيه فرصا تقتنص فيها الافراح والمسرات يقصدها جميع الناس من كل الطبقات بكل رغبة وبكل شوق . على ان النصارى فى اكثر اعمالهم لم يسلموا من بعض الاحكام الجائرة التى كان يقوم بها سيئو التصرف من الحكام او عامة الناس .



---

١) ج ١ ص٤٢٥

٢) راجع الشافعي الام ج ٤ ص ١٢٦ ، ١٣٢ Tritton p. 114

الفصل الثالث

الكنائس والاديرة

قد لا تختلف وضعية الكنائس والاديرة النصرانية في العهد الاسلامي عن عاداتهم الاجتماعية ومواسمهم الدينية ، وكما ان الاسلام في البدء اباح حرية الاعتقاد والقيام بالشعائر الدينية لجميع اهل الذمة فهو كذلك قد احترم اماكنهم المقدسة وصانها من التعدي او التخريب ، ويجب ان لا ننسى دوما ان ما كان يصيب الكنائس من الهدم او الاغتصاب لم يكن سببه يرجع الى تشريع او قانون او وصية او عهدة تنسب الى احد من الخلفاء الراشدين الذين اتخذت احكامهم سنة يدين عليها الناس - وانما هي احكام فردية كان يقوم بها بعض الخلفاء او الولاة تحت تأثير عوامل داخلية شخصية او خارجية مصدرها عامة الناس ، وترانا مضطرين دائما الى الرجوع الى عهدة عمر بن الخطاب التي قيل انه كتبها لاهل الشام والى وصاياه وشروطه التي عممها على الآفاق عند الفتح العربي لنرى الى اي حد كان تأثير هذه العهود في العصر العباسي خاصة .

جاء في العهد الذي قيل ان نصارى الشام اشترطوه على انفسهم ان لا يحدثوا في مدائنهم ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب ولا يجددوا ما خرب منها ولا ما كان مختطا منها في خطط المسلمين .(١)

ولما سأل الخليفة هارون الرشيد القاضي ابا يوسف عن حال البيع والكنائس النصرانية في البلاد الاسلامية اجاب : "واما ما سألت عنه يا امير المؤمنين من امر اهل الذمة وكيف تركت لهم البيع والكنائس في المدن والامصار حين افتتح المسلمون البلدان ولم تهدم ، وكيف تركوا يخرجون بالصلبان في ايام عيدهم ، فانما كان الصلح جرى بين المسلمين واهل الذمة لا في اداء الجزية وفتحت المدن على ان لا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها ... على ان لا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة ... فلذلك تركت البيع والكنائس ولم تهدم ."(٢)

---

(١) الطرطوشي ص ١١٠

(٢) الخراج ص ١٦٥ .

وقد عرض ابو يوسف رايه الخاص للرشيد فقال : "ولست ارى ان يهدم شيء مما جرى عليه الصلح ولايحول وان يمضي الامر فيها على ما امضاه ابو بكر وعثمان وعلي رضى الله تعالى عنهم اجمعين . فانهم لم يهدموا شيئا منها مما كان الصلح جرى عليه واما ما احدث من بناء بيعة اوكنيسه فان ذلك يهدم ، وقد كان نظر في ذلك غير واحد من الخلفاء الماضين وهموا بهدم البيع والكنائس التى فى المدن والامصار ، فاخرج اهل المدن الكتب التى جرى الصلح فيها بين المسلمين وبينهم ، ورد عليهم الفقهاء والتابعون ذلك وعابوه عليهم فكفوا عما ارادوا من ذلك . فالصلح نافذ على ما انفذه عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الى يوم القيامه "(١) من هذا يظهر ان الكنائس كانت تبنى فى الامصار ومن المحتمل جدا حسبما تبين لنا من النص الذى اورده ابو يوسف ان العهدة العمرية لم تكن هذه العهدة التى بين ايدينا الان .

وهناك راى قديم يروى عن ابن عباس انه سئل عن العجم الهم ان يحدثوا بيعه او كنيسه فى امصار المسلمين ؟ فقال : اما مصر مصرته العرب فليس لهم ان يحدثوا فيه بناء بيعه ولاكنيسة ... وكل مصر كانت العجم مصرته ففتحه الله على العرب فنزلوا على حكمهم فللعجم ما فى عهدهم ، وعلى العرب ان يوفوا لهم بذلك .(٢)

وقد اتفق ائمة المذاهب الاسلامية الاربعة على ان لايسمح للنصارى احداث بيعه او كنيسه فى المدن والامصار الاسلامية . ولكنهم اختلفوا حول بنائها فيما جاور المدن والامصار . فمالك والشافعي واحمد بن حنبل قالوا لايجوز احداث كنيسه فيما قارب المدن والامصار بدار الاسلام . اما ابو حنيفه فقال : ان الموضع اذا كان قريبا من المدينه وهو قدر ميل او اقل لم يجز ذلك فيه وان كان ابعد من ذلك جاز . اما ما يتعلق بالبيع والكنائس المتهدمة يجوز ترميمها او تجديدها ام لا ، فالائمة الثلاثة المذكورون اتفقوا انه لو انهدم من كنائسهم او بيعهم شيء فى دار الاسلام جاز لهم ترميمه وتجديده . اما ابو حنيفه فقد اشترط ان تكون البيعه او الكنيسة فى ارض فتحت صلحا ، فان فتحت عنوه لم يجز . وجاء فى رواية اخرى لاحمد بن حنبل اختارها بعض اصحابه وجماعة من اعلام الشافعيه كابي سعيد الاصطخرى وابي علي بن ابي هريره انه لايجوز لهم ترميم ما تشعث ولا تجديد بناء على

---

١) الخراج ص ١٧٦

٢) المصدر نفسه ص ١٧٧

الاطلاق وهذا يخالف رايه الاول انه يجوز ترميم ما تشعث دون ما استولى عليه الخراب .(١)

ومما يجب ان نلفت النظر اليه ان العهد التي اعطيت للمدن المفتوحة المختلفة فى السابق لاتتفق كلها مع وجهة النظر الشرعية المختلفة فى ذاتها والتى اتى بها ائمة المذاهب الاسلامية . ففى كل العهود امن العرب النصارى على كنائسهم واماكن عبادتهم(٢) ولكن الحاجة اقتضت حين ذاك ان يغتصبوا منهم قسما من كنيسه حمص ونصف كنيسه حيث ليكونا مسجدين جامعين للمسلمين . وقيل ان شرحبيل بن حسنه صالح اهل طبرية على انصاف منازلهم وكنائسهم (٣) وجاء فى العهد التى كتبها عياض بن غنم لاهل الرقة ولاهل الرها ان لايحدثوا كنيسه ولا بيعة الا ما كان لهم (٤) . فى حين نرى عمر بن الخطاب قد اعطى امانها لاهل القدس واهل لد ان لاتسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها . (٥) ويروى يوحنا النيقلوى John of Nikiou ان عمر بن العاص اتفق مع قبط مصر ان لاتغتصب كنائسهم ولا يتدخل فى شيء من امورها . وقد تعهد ذلك طيلة حكمه (٦)

على ان المشكلة الوحيدة التى اشغلت افكار المؤرخين من متقدمين ومتاخرين ومعاصرين والتى بقيت معقدة حتى الان تتضارب فيها شتى الاقوال هى ما حيث حول كنائس دمشق من قصص وروايات . والغريب ان بعض المؤرخين المتقدمين لم يشيروا الى احوال تلك الكنائس لابقليل ولابكثير فالطبرى مثلا فى حين نجد غيرهم يسهب فى ذكرها معددا شتى الظروف التى طرأت عليها .

هناك عدة معاهدات مختلفة قيل ان خالد بن الوليد اعطاها لاهل دمشق والمعهدة التالية اطولها نصا : "هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق اذا دخلها اعطاهم امانا على انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لايهدم ولايسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (صلعم) والخلفاء والمؤمنين لايعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية" (٧)

---

١) الشعراني — الميزان ج ٢ ص ١٧٥ ، راجع الشافعي الماوردي ص ١٢٠ Arnold p. 65

٢) Tritton p.38 راجع البلاذرى ص ١٣٠ و ١٣٣ و ١٤٧ ،

٣) البلاذرى ص ١٣١ ، ١٧٩ ، ١١٦ ، المقدسي ص ١٥٦ ، ابن حوقل ١٧٦ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٩ (٤) البلاذرى ص ١٧٢ و ١٧٤ (٥) الطبرى الجملة الاولى ص ٢٤٠٥ و ٢٤٠٦

٦) Journal Asiatique 1879 عن Tritton p. 39

٧) البلاذرى ص ١٢١

وهناك قول اخر ان اباعبيده صالح اهل الشام على انصاف كنائسهم ومنازلهم على ان لايهدم شيء من كنائسهم [١] . يدعم هذه الرواية ما ذكره البلاذري من ان حسان بن مالك خاصم اهل دمشق الى عمر بن عبد العزيز في كنيسه "كان رجل من الامراء اقطعه اياها فقال عمر : ان كانت من الخمس عشرة الكنيسه التي في عهدهم فلاسبيل لك عليها ." [٢] ويشير ابن عساكر كذلك الى الخمس عشرة كنيسة المذكورة ثم يقول : " اقام بدمشق بعد فتحها اثنى عشر بطريقا من بطارقة الروم فاقروا في منازلهم وكان لكل بطريق منهم في منزله كنيسه فاقاموا بها حينا ثم بدا لهم فهربوا من دمشق وتركوا تلك المنازل . فصارت اقطاعا لقوم من اشراف دمشق ." [٣] . وقد تكون هذه المنازل هي المنازل نفسها التي هجرها اهلها بعد الفتح العربي والتحقوا بملك الروم كما جاء في رواية البلاذري . [٤]

وليس من شك ان النصارى خاصموا عرب دمشق على كنيسه لبني نصر المسلمين كان اقطعهم اياها معاويه . فاخرجهم عمر بن عبد العزيز منها فدفعها الى النصارى . ولما ولي يزيد بن عبد الملك ردها الى بني نصر [٥] .

اما قسمة كنيسه دمشق الكبرى او كنيسه القديس يوحنا المعمدان بين المسلمين وبين النصارى فلانظنها كما قلنا في السابق الا اسطورة لااساس لها من الصحة وقد اتفق اكثر الباحثين على نقضها ، هذا عدا عن سكوت كتب الفتح المتقدمة كفتوح البلدان للبلاذري وتاريخ الطبري عن موضوع القسمة هذه . فالمؤرخون المتاخرون اذن هم وحدهم الذين اعترفوا بقسمة الكنيسة . [٦] قيل ان المسلمين لما فتحوا دمشق اغتصبوا النصف الشرقي من الكنيسة وجعلوه مسجدا وتركوا للنصارى النصف الغربي منها . ولما كان المذبح الذى يعد اقدس موضع في الكنيسة ، يقع في القسم الشرقي فقد بذل النصارى الجهود الكثيرة المتواصلة للحصول عليه ليقوموا بفروض عبادتهم فيه . اضف الى هذا ان القسم الشرقي من مدينه دمشق بقي حيا نصرانيا ولهذا طالبوا في المذبح ليكونوا على اتصال بمكان

---

١) ابن عساكر ج ١ص ١٧٨ ٢) فتوح البلدان ص ١٢٤

٣) التاريخ الكبير ج ١ ص ٢٤٠ ٤) فتوح البلدان ص ١٢٣

٥) ابن عساكر ج١ص ٢٤ ، البلاذري ص ١٢٤ (٦) Arnold P.65 -Tritton p.40

١١

عباداتهم . وقد حاول كل من معاويه وعبد الملك ان يستولي على الكنيسة بكاملها من النصارى ولكن هؤلاء رفضوا ان يسلموها . فلما ولي الوليد بن عبد الملك قام بنفس المحاولة واراد ان يبتاعها منهم وعندما ابى النصارى عليه ذلك هددهم بهدم كنائس المدينة كلها . وهناك رواية اخرى تقول انه هددهم باغتصاب كنيسه توماالتى كانت على مقربة من كنيسة يوحنا . عند ذلك رضح النصارى الى طلب الوليد وتنازلوا عن نصف الكنيسة فهدمت وادخلت فى المسجد الجامع . (١)

ويقول ابو الفداء : "كان فى جانب الجامع كنيسة قد سلمت للنصارى بسبب انها فى نصف البلد الذى اخذ للصلح وكانت تعرف بكنيسة ماريحنا فهدمها الوليد وادخلها فى الجامع". (٢)

من هذه الروايات نستدل ان المسلمين على الاغلب لم يضعوا يدهم على كنيسة ماريوحنا الا فى زمن الوليد بن عبد الملك . "ولما استخلف عمر بن عبد العزيز شكى النصارى اليه ما فعل الوليد بهم في كنيستهم فكتب الى عامله يأمره برد ما زاده في المسجد عليهم فكره اهل دمشق ذلك وقالوا نهدم مسجدنا بعد ان اذنا فيه وصلينا ويرد بيعة ؟ وفيهم يومئذ سليمان بن حبيب المحاربي وغيره من الفقهاء ، واقبلوا على النصارى فسألوهم ان يعطوا جميع كنائس الغوطة التي اخذت عنوة وصارت في ايدي المسلمين على ان يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها ، فرضوا بذلك واعجبهم". (٣) وربما كانت كنائس الغوطة هذه هي الكنائس او المنازل التي هجرها اصحابها والتحقوا بالروم فاستولى عليها المسلمون لان النصارى كما جاء في كتب الفتح قد امنوا على كنائسهم لا تسكن ولا تهدم .

والذى يتأمل في كتب الصلح يرى اغلبها لا يتفق مع العهدة المعزوة الى عمر بن الخطاب . ويقول الاستاذ ترتون في النتيجة اذن ان من سجل كتب الصلح لم يكن يعرف شيئا عن عهدة عمرية . (٤)

---

(١) ابن عساكر ج ١ ص ١٩٩ ، ٢٠٠

(٢) تاريخ ابن الفداء ج ١ ص ٢١٠ .

(٣) البلاذري ص ١٢٥ ، المكين ص ٧٧

(٤) Tritton p. 42

والمتتبع للحوادث التاريخية قلما يجد في اعمال الخلفاء والولاة ما يخضع الى قانون او سنة معينه . فكنيسة الرها فلما هدمتها الزلازل فامر معاوية باعادة بنائها .(١) وبنى بطرك اليعاقبة اغاثو (٣٩ _ ٥٦ هـ) كنيسة مرقس بالاسكندرية .(٢) . وفي ولاية مسلمة ابن مخلد بنيت اول كنيسة في الفسطاط في حارة الروم (٤٧ _ ٨٦ هـ) وقد سمح كذلك عبد العزيز ابن مروان لنصارى مصر في بناء عدة كنائس منها الكنيسة التي بناها كاتبه اثناسيوس في قصر الشمع .(٣) والوليد بن عبد الملك انتلع من كنيسة مريم في انطاكيه عمدا عجيبه من المرمر والرخام واقام بها مسجد دمشق وقد رايناه يهدم بيعة ما في دمشق لانه سمع صوت ناقوسها .(٤) وقدم كتاب من عمر بن عبد العزيز الى احد عماله ان " لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار ".(٥) . وفي سنة ١٠٤ هـ . امر اسامة ابن زيد متولي الخراج في مصر بهدم الكنائس وكسر الصلبان وكان ذلك في زمن يزيد بن عبد الملك فلما استخلف هشام كتب الى مصر بان يجرى النصارى على عوايدهم وما بايديهم من العهد .(٦) وهشام نفسه لما اراد ان يبني جامع القصبة في الرملة (فلسطين) قيل له ان للنصارى اعمدة رخام مدفونة تحت الارض استعدوها لكنيسة بالغة فقال لهم هشام : اما ان تظهروها واما ان نهدم كنيسة لد ، فاظهروها وبنى هذا الجامع على اعمدتها .(٧) وخالد ابن عبد الله القسري بنى لامه النصرانية كنيسة في ظهر قبلة المسجد الجامع بالكوفة (٨) . وفي سنة ١١٧ هـ . في ولاية الوليد بن رفاعة على مصر خرج وهيب اليحصبي ثائرا بالفسطاط ذلك لان الوليد اذن للنصارى في بناء كنيسة يوحنا بالحمراء . فنفر على وهيب وقتل فخرج

---

(١) S.A. I, 288 عن Tritton P. 42

(٢) المقريزي ج ٢ ص ٤٩٢ . (٣) ابو صالح ص ٨٦ ، ١٥٧ عن

(٤) المسعودي ج ٣ ، ص ٤٠٨ ، ج ٥ ، ص ٣٨١ .

(٥) الطبري : الجملة الثانية ١٣٧١ . (٦) المقريزي ج ٢ ص ٤٩٢ _ ٤٩٣

(٧) المقدسي ج ١٦٥ .

(٨) الاغاني ج ١٩ ، ص ٥٩ . ، ابن خلكان ج ١ ص ٢١٢ .

جماعة من المسلمين على الوليد غضبا لوهيب . [1]

وقد استمر هذا خلال العصر العباسي على الرغم من ان احكام الفقهاء والعلماء التي حددت بموجبها وضعية الكنائس في المملكة الاسلامية على ان العصور الاخيرة منه تميزت بشدتها فقد هدمت واحرقت كنائس عديدة في اماكن مختلفة على الاخص في مصر . ففي سنة ١٤٦ هـ . امر الخليفة ابو جعفر المنصور واليه على مصر يزيد بن حاتم ان يجعل الدواوين في كنائس النصارى بالفسطاط . [2] والمنصور نفسه امر ببناء كنيسة بدمشق . [3] . وفي زمن المهدي بيعت بيعة دير الروم الكبيرة وهي ببغداد في الجانب الشرقي منها . [4] ومنع علي ابن سليمان والي مصر من قبل هارون الرشيد "الملاهي والخمور وهدم الكنائس المحدثة بمصر فهدم كنيسة مريم الملاصقة لابي شنوده ، وهدم كنائس محرس قسطنطين . وبذل له خمسون الف دينار في تركها فامتنع ." [5] . والمقريزي يذكر ان هذه الكنائس ... في زمن يزيد بن حاتم فلما ولي مصر سليمان بن علي بذلوا له في تركها خمسين الف دينار فابى . فلما ولي بعده موسى بن عيسى اذن لهم في بنائها فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة قاضي مصر . واحتج بان بناءها من عمارة البلاد وبان الكنائس التي بمصر لم تبن الا في الاسلام في زمن الصحابة والتابعين . [6] وفي زمن الرشيد كذلك بني دير سمالو ببغداد "وهو دير مشيد البناء كثير الرهبان ." [7] وقيل ان بطرك الملكية كان حاذقا بالطب حضر الى بغداد وعالج بعض حظايا الخليفة الرشيد فلما عوفيت كتب له برد كنائس الملكية التي تغلب عليها اليعاقبة بمصر فاستردها منهم . [8] وقد تغيرت سياسة الرشيد بعدئذ نحو النصارى بسبب الحوادث التي وقعت له مع الروم ولان اهل الثغور والعواصم من النصارى

---

(١) الكندي ص ٧٧ ، المقريزي ج ١ ، ص ٣٠٣ ، ج ٢ ص ٤٩٣ .

(٢) الكندي ص ١١٥ ،

(٣) راجع الطبري الجملة الثالثة ٢١٠٧ — ٢١٠٨

(٤) ياقوت — بلدان — ج ٢ ص ٦٦٢ .

(٥) الكندي ص ١٣١ ، تغري بردي ج ٢ ص ٦٢

(٦) المقريزي ج ٢ ، ص ٤٩٣

(٧) ياقوت — بلدان ج ٢ ص ٦٧٠

(٨) المقريزي ج ٢ ، ص ٤٩٢

كانوا عيونا وجواسيس للروم البيزنطيين فامر سنة ١٩١ هـ بهدم الكنائس في الثغور الاسلامية فقط.[1] وفي حدود سنة ١٩٨ هـ يحدثنا بعض المؤرخين السريان ومن بينهم ابن العبري ان ابراهيم بن نرشر عامل حران في الجزيرة كان يتنزه مرة في نصره الشامي فراى قباب بعض الابنية البيضاء فسال احد خواصه لما عنها فقال : هي كنائس جديدة بناها النصارى في ايامك وقد نقم عليك كثير من العرب لانك سمحت لهم ببناء كنائس لم تكن تبنى قبل زمانك . فامر عندئذ ان تهدم كل كنيسة جديدة قبل غروب الشمس . وفي الحال هدم مذبحي الكنيسة الكاثوليكية وقسما من كنيسة مار جرجس وبعض الكنائس الملكية والنسطورية وغيرها وبعض بيع اليهود . ويظهر ان ابراهيم هذا قد غير افكاره عند الصباح فسمح باعادة بناء كل ما تهدم حالا[2] .

ولما قامت الفتنة بين الامين والمامون "انتهبت النصارى بالاسكندرية واحرقت لهم مواضع عديدة واحرقت ديارات وادي هبيب ونهبت فلم يبق بها من رهبانها الا نفر قليل .. ولكن بعد مدة وجيزة "عمرت الديارات وجاء الرهبان اليها وعمرت كنيسة بالفندق لمن يرد من نصارى مصر ."[3] وقد اعاد بعض اتباع الخليفة المامون النصارى بناء كنيسة العذراء بالقنطرة بمصر . ورخص المامون لانبيس من فرانيه (خدامه) في بناء كنيسة اخرى على جبل المقطم لان كنائس المنطقة كانت بعيدة جدا عليهم . وفي ايامه كذلك بنى بكام المشرى النصراني الكبير عدة كنائس جميلة في مدينة البورة بمصر (Boura)"[4].

وفي حدود تلك السنين تجمع العرب في حران والرها وسميساط وطلبوا من عبدالله بن طاهر القائد المشهور ان يامر بهدم جميع الكنائس التي بنيت في السنوات العشر المنصرمة ولكنه رفض طلبهم وقال : ان النصارى المساكين لم يعيدوا بناء عشر كنائسهم التي خربت او احرقت . وفي ايامه عاش النصارى في سلام ورخاء .[5]

على ان الوطأة لم تشتد على النصارى في كل مجاري حياتهم الا في زمن الخليفة المتوكل ومن بين الامور التي اخذ بها هذا الخليفة النصارى امره في سنة ٢٣٥ هـ و ٢٣٩ هـ

---

(١) الطبري الجملة الثالثة ج ٧١٢ . (٢) B.H.139, S.A.II,10 Chronicle عن Tritton P. 48.

(٣) المقريزي ج ٢ ص ٤٩٣ – ٤٩٤ ، ابن الراهب ص ١٢٨

(٤) ابو صالح – الديارات ص ١٥٤ Eutychius, History II, 430 عن Tritton 48-49 Arnold p. 67

(٥) S.A. II, 16 عن Tritton p. 49

امر بهدم البيع المحدثة في الاسلام . وان كان موضع البيعة واسعا صير مسجدا وان كان لا يصلح ان يكون مسجدا صير فضاء . (١) وفي سنة ٢٤٠ هـ . ثار اهل حمص المسلمين على عاملهم واعانهم على ذلك قوم من نصارى حمص فامر المتوكل ان تهدم الكنائس والبيع وان لا يترك في المدينة نصرانيا الا اخرج منها . (٢)

وقبل ان ننتقل من عهد المتوكل علينا ان نسجل ان الكنائس في البدء كانت تبنى بحرية تامة واحيانا بموافقة ومساعدة الخلفاء والولاة . ويقول تريتون : قيل ان عمر بن عبد العزيز هو اول من منع احداث الكنائس ومن المحتمل ان يكون هذا الخبر غير صحيح لان المصادر النصرانية ساكتة ، ولان هذا الخبر لم يذكره الا مؤرخ عربي واحد . ومن هذه الملاحظة البسيطة نستدل ان ليس هناك حتى سنة ١٥٠ هـ . او ١٧٠ هـ اقل اشارة في منع بناء الكنائس الجديدة ولا زالت هذه الفكرة بحاجة الى تأييد عام ثابت . فيكون المتوكل اذن هو اول من جعل هذا المنع في قانون عام . ومن جهة ثانية كانت الكنائس قديما عرضة للهدم بسبب اهواء حاكم او والي ما . وربما كانت الحالة اكثر سوءا في اوقات الاضطرابات السياسية وكل شيء يتوقف عادة على اخلاق الحاكم خليفة كان او عاملا . وهناك امر واحد ثابت ان العصر الاول الهجرى لم يعرف شيئا عن عهدة عمر بن الخطاب . وقد يكون اكثر اماكن العبادة قد بني في القرن الثاني الهجرى . على ان قوانين المتوكل لم يكن يعمل بها دوما . فاحيانا كانت تطبق واحيانا اخرى تهمل وطورا ينفذها عامة الناس وغوغاؤهم . (٣)

وحوالي سنة ٢٧١ هـ . "خربت العامة الدير العتيق الذى وراء نهر عيسى وانتهبوا كل ما كان فيه من متاع وقلعوا الابواب والخشب وغير ذلك وهدموا بعض حيطانه وسقوفه . فصار اليهم الحسين بن اسماعيل صاحب شرطة بغداد من قبل محمد بن طاهر فمنعهم من هدم ما بقي منه ... حتى كاد يكون بين اصحاب السلطان وبينهم قتال . ثم بنى ما كانت العامة هدمته بعد ايام ." (٤)

وفي مصر احرقت الكنيسة الكبرى المعروفة بالقيامة بالاسكندرية سنة ٣٠٠ هـ . وهي

---

(١) الطبرى الجملة الثالثة ص ١٣٩٠ ، ١٤١٩ .

(٢) المصدر نفسه الجملة الثالثة ص ١٤٢٢

(٣) Tritton p. 50 - 51

(٤) الطبرى الجملة الثالثة ص ٢١٠٧ .

التي كانت هيكل زحل وكانت من بناء كليوبطره . وبعدها بعدة سنوات (٣١٢ هـ) "احرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق ونهبوا ما فيها من الآلات والاواني ونيمتها كبيرة جدا ونهبوا ديرا للنساء بجوارها وشعثوا الكنائس النسطورية واليعقوبية ." [١] وثار المسلمون سنة ٣٢٥ هـ . بالقدس وحرقوا كنيسة القيامة ونهبوها وخربوا منها ما قدروا عليه . [٢] وفي سنة ٣٢٨ هـ . "مات سعيد بن بطريق بطرك الاسكندرية على الملكية بعدما اقام في البطركية سبع سنين ونصفا في شرور متواصلة مع طائفته . فبعث الامير ابو بكر محمد بن طغج الاخشيد ، ابا الحسين من قواده في طائفة من الجند الى مدينة تنيس حتى ختم على كنائس الملكية واحضر الآتها الى الفسطاط وكانت كثيرة جدا فانتكها الاسقف بخمسة الآف دينار . باعوا فيها من ونف الكنائس ثم صالح طائفته ." وفي السنة نفسها ثار المسلمون بعسقلان وهدموا كنيسة مريم الخضراء ونهبوا ما فيها واعانهم اليهود حتى احرقوها ففر اسقف عسقلان الى الرملة واقام بها حتى مات . لكن الخليفة المقتدر امر عندئذ ان يصلح ما تضرر من الكنائس . [٣] وفي سنة ٣٥٥ هـ . احرقت كنيسة العهد في القدس فغضب الامبراطور نقفور بذلك وسار يريد القدس مفتحما البلاد السورية فراسله كافور الاخشيد بانه سيرد البيعة الى افضل ما كانت عليه . فقال : بل انا ابنيها بالسيف . " [٤] وفي سنة ٣٦٩ هـ . اذن عضد الدولة للوزير نصر بن هارون في عمارة البيع والديرة واطلاق الاموال لفقرائهم ولذوى الحاجات منهم بعد ان خربت بغداد لكثرة ما قام فيها من الشغب . [٥]

والتاريخ لا يحدثنا الا عن حوادث قليلة جدا كان يرجع فيها الحكام او الولاة الى الفقهاء يستفتون بشان الكنائس من هذا ما ذكره ابن زولاق قال : اتفق ان كنيسة ابي شنوده انهدم جانبها وبذل النصارى مالا كثيرا ليطلق لهم عمارتها ، فاستفتوا الفقهاء فافتى ابن حداد والى القضاء بمصر الشافعي المذهب (٢٢٤ — ٣٤٤ هـ .) "بهدم عمارتها ووافقه

---

(١) المقريزي ج ٢ ص ٤٩٤ ، المكين ص ١٩٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ، ص ٤٩٥ . المكين ص ٢٠٨

(٣) المقريزي ج ٢ ص ٤٩٥ المكين ص ٢٠٨ — ٢٠٩

(٤) Eut.II, 513 عن Tritton 51

(٥) مسكويه ج ٢ ص ٤٠٤ — ٤٠٨

اصحاب مالك ، وافتى محمد بن علي العسكري بان لهم ان يرموها ويعمروها ، فثارت العامة به وهموا باحراق داره فاستتر واحاطوا بالكنيسة . فبلغ ذلك الامير (الاخشيد محمد بن طغج) فاغتاظ فارسل وجوه غلمانه في جمع كثير . فاجتمع عليهم العوام ورموهم بالحجارة فراسلوه فارسل الى ابن حداد فقال : اركب الى الكنيسة فان كانت قائمة فاتركها على حالها وان كانت داثرة فاهدمها . فتوجه ابن حداد وصحبته علي ابن عبدالله بن النوامر المهندس . وكثر الزحام فلم يزل يرفق بهم بالملق ويلين لهم القول ويعلمهم انه معهم حتى فتحوا الدروب ودخل الكنيسة فاخرج جميع من فيها من النصارى واغلقوا الباب ودفع للمهندس شمعة ودخل المذبح وكشفه وقال : يبقى خمسة عشر سنة ثم يسقط منها موضع . ثم يبقى الى تمام اربعين سنة ويسقط جميعها . فاعاد الجواب فتركها ولم يعمرها . فلما كان لسنة ٣٦٦ هـ .) عمرت كلها ولو تركت لسقطت ."(١)

وقد سمح العزيز بالله الخليفة الفاطمي للبطريرك باعادة بناء كنيسة زحن ولكن العامة شغبوا عليه ومنعوه من بنائها ، فتدخل الخليفة بالامر وبذل اموالا كثيرة في سبيل انشائها . (٢)

على ان الكنائس لم تشهد دورا لحقها فيه من التدمير والتخريب والحرق والمصادرة اشد من دور الحاكم بامر الله الفاطمي المعروف بهوسه وشدة احكامه الطائشـــــة . فقد امر هذا الخليفة بهدم الكنائس ومصادرتها في جميع حدود مملكته . " وقبض على جميع ما هو محبس على الكنائس والديارات وادخله في الديوان . وكتب الى اعماله كلها بذلك . واحرق عدة صلبان ... وهدم الكنائس التي بخط راشدة ظاهر مدينة ~~x~~ مصر واخرب كنائس المقس خارج القاهرة واباح ما فيها للناس فانتهبوا منها ما يجل وصفه ، وهدم دير القصير وانتهب العامة ما فيه ... وبنى في ~~xxxx~~ مواضعها المساجد واذن بالصلاة في كنيسة شنوده بمصر . واحيط بكنيسة المعلقة في قصر الشمع . واكثر الناس من رفع القصص بطلب كنائس اعمال مصر وياراتها فلم يرد قصة (طلب) منها الا وقد وقع عليه باجابة رافعها لما سال . فاخذوا امتعة الكنائس والديارات وباعوا باسواق مصر ما وجدوا من اواني الذهب والفضة وغير ذلك وتصرفوا

---

(١) الكندي ــ ملحق ص ٥٥٤

(٢) ابو صالح ص١١٧ عن Tritton p. 84

في احباسها . ووجد بكنيسة شنوده مال جليل ووجد في المعلقة من المصاغ وثياب الديباح امر كثير جدا الى الغاية . وكتب الى ولاة الاعمال بتمكين المسلمين من هدم الكنائس والديارات ، نعم الهدم فيها من سنة ٤٠٣ هـ . حتى ذكر من يوثق به في ذلك ان الذى هدم الى آخر سنة ٤٠٥ هـ بمصر والشام واعمالها من الهياكل التي بناها الروم نيف وثلاثون الف بيعة . ونهب ما فيها من الالات الذهب والفضة ونهب على اوقافها وكانت اوقافا جليلة على مبان عجيبة ." (١) ومن جملة الكنائس التي امر الحاكم بهدمها كنيسة القمامه ببيت المقدس . ثم انه بعد مدة امر ببناء ما كان امر بهدمه من الكنائس والبيع . (٢)

ولما استخلف الظاهر لاعزاز دين الله اعاد كنيسة نمامه بالقدس سنة ٤١٨ هـ . واذن لمن اظهر الاسلام في أيام الحاكم ان يعود الى النصرانية فرجع اليها كثير منهم . وقد فعل الظاهر ذلك مقابل فعلة ملك الروم البيزنطيين الذى أعاد الجامع بقسطنطينية وعمل فيه موذنا على اثر الهدنة بينه وبين الظاهر . (٣) وفي سنة ٤٣١ هـ . بنى بطرك اليعاقبة كنيستي بو مرقورة بمصر وكنيسة السيدة بحارة الروم . (٤) ويذكر ابو صالح في كتابه الديارات ان بعض الخلفاء كالمستنصر والحافظ والظاهر والعاضد كان لهم بعض العناية بالكنائس وفي بنائها . (٥) وهدم الافضل امير الجيوش في زمن الآمر بالله الفاطمي كنيسة المختارة بالجزيرة لانها كانت وسط بستانه واحتج ان الزلزلة هدمتها .(٦) (+)

وبعد فترة طويلة سمع سنة ٥٤٣ هـ . ان عبد المؤمن بن علي القائد من قبل المهدى محمد بن تومرت ، اخرب الكنائس والبيع بالمغرب وردها مساجد وابطل الجزية (٧)

ويحدثنا احد المؤرخين السريان ان نور الدين زنكي لما احتل الموصل امر بهدم الكنائس الحديثة البنيان فهدمت كنيسة لليعاقبة واخرى للساطرة ، فاعيد بناؤها بعد

---

(١) المقريزي ج ٢ ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦ ـ ٢٨٧ ، ابن العبري يجعل الكنائس والديرة المتهدمة عدة الوف فقط . B.H. 204 Chroniclo (Tritton p. 55)

(٢) ابن الاثير ج ٩ ص ١٤٧ . ، ابن تغرى بردى ج ٢ ق ٢ ص ٩٤ (طبعة اميركية)

(٣) المقريزي ج ١ ص ٣٥٥ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٩٦ . (٥) ابو صالح ص ٢٥٢ ـ ١٤٠ عن تريتون ص ٥٥

(٦) ابن الراهب ص ١٣٨ ، المقريزي ج ٢ ص ... المكين ... اختلف في سنة هدمها فالمكين يقول [illegible] وابن الراهب ١١٢٠م او ٥١٤هـ .

(٧) تغرى بردى ج ٥ ص ٢٨١ . (اما المقريزي فلا يحدد بالضبط زمن هدمها .

مدة وجيزة . وفي حدود تلك السنين هاجم بعض الاكراد دير مار متي ودير مار سرجيس في نينوى وصادروا الاشياء الثمينه وقتلوا خمسة عشر راهبا (١) .

واذا ما وصلنا الى العصر المغولي نرى النصارى يتنفسون الصعداء فيثورون على المسلمين ويساعدهم المغول على ذلك وقد رايناهم كيف اهانوا المسلمين في دمشق ورشوا على ثيابهم الخمر وامروهم بالقيام للصليب اذا مروا به عليهم . ويظهر ان المسلمين في تلك السنة (سنة ٦٥٨) بعد ان هزم المغول في عين جالوت لم يطيقوا احتمال ما مس بهم النصارى . فثارت عوام دمشق وخربت كنيسة مريم بدمشق بعد احراقها ونهب ما فيها . (٢)

وهناك مظهر آخر للكنائس غير الهدم والتخريب او البناء والتشييد . وقد سجل لنا التاريخ بعض هذه الحوادث . واغلب الظن انه لم يخل منها عصر من العصور . فكثيرا ما يجتمع المسلمون والنصارى في الكنائس للنظر والجدل في المسائل الدينية : منها المناظرة التي جرت بين المسعودى وابو زكريا دنجا الكاتب النصراني المتفلسف في كنيسة الخضراء في تكريت حول الثالث وغيره . (٣) وفي حدود سنة ٦٣٩ هـ لما اشتد غزو التتار على البلاد الاسلامية وعاثوا فيها فسادا وحاربتهم جيوش المسلمين والنصارى مجتمعة . خاف اهل ملطية من غدر التتار فاجتمع والد المؤرخ ابن العبرى "بالمطران دينوسيوس وتشاوروا في مرابطة المدينة . وجمعا المسلمين والنصارى في البيعة الكبيرة وتحالفوا ان لا يخون بعضهم بعضا ولا يخالفوا المطران في جميع ما يتقدم اليهم من مداراة التاتار والقيام بحفظ المدينة والبيتوتة على اسوارها وكف اهل الشر عن الفساد . فنظر الله الى حسن نياتهم ودفع العدو عنهم " (٤)

على ان الاديرة قد تميزت عن الكنائس بنوع الحياة التي تحياها وكان لتلك الحياة مظاهر متعددة لا تخلو من فائدة جليلة القدر . والظاهر ان المسلمين اهتموا كثيرا بالاديرة والفوا حولها المجلدات الضخمة ولم يتركوا ناحية صغيرة او كبيرة فيها الا واسهبوا في وصفها . وما

---

(١) S.A II,168 عن Tritton p. 57

(٢) المقريزى ج ٢ ص ٤٩٧

(٣) المسعودى — تنبيه ص ١٥٥

(٤) ابن العبرى — مختصر ص ٤٤٠ — ٤٤١ .

يلفت النظر كثرة هذه الاديرة في الرقعه الاسلامية . فمدينة الرها مثلا كان فيها وما يجاورها " زيادة على ثلاثمائة دير وصوامع كثيرة " كما يقول الاصطخرى . اما ابن الفقيه فيوصلها الى ثلاثماية وستين ديرا [(١)] فما قولك بما كان في سائر البلدان الاخرى المتسعة من هذه الاديرة . وليس من الغريب كثرة هذه الديارات وازدهار الحياة فيها فهي بعيدة اولا عن متناول يد العامة وتطاول بعض الحكام والولاة ، لان الديار لا تكون عادة الا في الضواحي وفي الهضاب وسفوح الجبال وذرى المستشرفات والمتنزهات النائية عن ضوضاء المدينة ، وثانيا لان النصارى تركوا احرارا في اقامة الكنائس والاديرة خارج المدن والامصار الاسلامية . فمن الطبيعي اذن ان تتكاثر وتزداد على مر الايام والسنين . يقول الزيات " وقد ألف غير واحد من الائمة وفحول الشعراء في هذه الديارات والحلنات وجمعوا الاشعار المقولة فيها ، وما كان يحدث فيها ويجرى بين جدرانها من شجون ومجون وزهد وعبادة . ووصفوا بعض مواضعها وخصائصها وما كان يرتفع منها من الخمور والاثمار والنباتات والتجارات ، ويحمل اليها من النذور ، ويستشفى بها من الادواء والعاهات . ونبهوا على ما كان مشتهرا خاصة بنزول الملوك والكبراء فيها ، وانقطاع بعض الشعراء والمجان اليها " [(٢)]

من هذه المؤلفات ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط ومنها ما هو مفقود . فمن التي لا تزال مخطوطة ، كتاب الديارات للشابشتي الكاتب المتوفى سنة ٣٨٨ هـ . وهو كتاب جامع فيم ذكر فيه كل دير بالعراق والموصل والجزيرة والشام والديارات المصرية . [(٣)] اما المطبوع منها فهو ما جاء في وصف الاديار وتعدادها في معجم البلدان لياقوت الحموى . وباب الديارات في كتاب مسالك الابصار وممالك الامصار لشهاب الدين العمرى . وذكر الاديرة المصرية فقط في كتاب الخطط للمقريزى .

وعدا عن اطلاق يد النصارى في بناء الاديرة والقلالي راينا كيف ساهم وساعد بعض الخلفاء والولاة في بناء الاديرة واقامة معالمها .

ولعل موقع الاديرة اكسبها ميزة خاصة فهي مقصد للتسلي والنزهة والفرجة لكثرة رياضها وبساتينها ولغزارة الاعياد الضخمة التي كانت تقام فيها . يقول ابن حوقل : " كانت بلاد

---

(١) مسالك الممالك ص ٧٦ ، مختصر البلدان ص ١٣٤ .

(٢) الديارات ص ٤

(٣) المصدر نفسه ص ٥

الجزيرة مقصودة مفضلة لكثرة بساتينها ومتنزهاتها ومزارعها ومن اجل بقاعها نصيبين وما يجاورها من ضياع جليلة "الى ديارات للنصارى وبيع وقلايا تقصد للنزهة وتنتجع للفرجة والفرح ". (١)
ومثل هذا النوع ما ذكره ياقوت عن دير درمالس ودير النصير ودير الخنافس . (٢)

وكثيرا ما كان الشعراء الخليعون والمجان يقصدون الديارات للتغزل بفتيانها وفتياتها او النظر الى غلمان النصارى ونسائهم في ايام الاعياد . فما قاله ابن المعتز في راهب من دير عبدون بسرى من رأى الى جنب المطيرة :

سقى المطيرة ذات الظل والشجر ودير عبدون هطال من المطر
يا طالما نبهتني للصبوح به في ظلمة الليل والعصفور لم يطر
اصوات رهبان دير في صلاتهم سود المدارع نعارين في السحر
مزنرين على الاوساط قد جعلوا على الرؤوس اكاليلا من الشعر
كم فيهم من مليح الوجه مكتحل بالسحر يطبق جفنيه على حور
لاحظته بالهوى حتى استقاد له طوعا واسلفني الميعاد بالنظر
وجاءني في ظلام الليل مستترا يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
فقمت افرش خدي في التراب له ذلا واسحب اذيالي على الاثر
فكان ما كان مما لست اذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر . . (٣)

وللسري الرفاء يذكر ليلة سكر فيها بقطربل :

ودير شققت بغزلانه نكدت انيق صلبانها . (٤)

واليك هذه الابيات التي يقولها الشاعر الكندى المسيحي في راهب من دير مر ماعوث على شاطئ الفرات من الجانب الغربي ننقلها لطرافتها . :

يا طيب ليلة دير مر ماعوث سقاه رب الناس صوب غيوث
وسقى حمامات هناك صوادحا ابدا على سدر هنات وتوث
ومورّد الوجنات من رهبانه هو بينهم كالظبي بين ليوث
ذى لثغة فتانة ينسي الطاووس حين يقول بالطاووث

---

(١) صورة الارض ص ٢١١ ج (٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٦٥٨ ، ٦٦٠
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٧٨ (٤) الثعالبي – يتيمة الدهر ج ١ ص ٤٩٨ .

حاولت منه نبلة فاجابنـي ... لا والمسيح وحرمة الناقوث
اتراك ما تخشى عقوبة خالق ... وتعيث بين شمامث وقسوث
حتى اذا ما الراح سهل حثها ... منه العسير برطلة المحثوث
نلت الرضا وبلغت ناصية المنى ... منه برغم رئيسة الديوث
ولقد سلكت مع النصارى كلما ... سلكوه غير القول بالثالوث
يتناول القربان والتكبير للصلبان والتمسيح بالطيبوث . . . . . . (١)

ولمدرك بن علي الشيباني - وكان يطرق دير الروم في بغداد "في الاحاد والاعياد للنظر الى من فيها من المردان والوجوه الحسان من الشمامسة والرهبان في خلو ممن يقصد الموضع لهذا الشان :

وجوه بدير الروم قد سلبت عقلي ... فاصبحت في خبل شديد من الخبل
فكم من غزال قد سبى العقل لحظه ... ومن ظبية رامت بالحاظها قتلي
بدور واغصان غنينا بحسنها ... عن البدر في الاشراق والغصن في الشكل
اذا رمت ان اسلو ابى الشوق والهوى ... كذاك الهوى يغري المحب ولا يسلي . (٢)

ويحكى ان شاعرا مغربيا يعرف بابن الحداد مر بدير رقة بصعيد مصر ودون اسيوط "ليحج من جهة عيذاب في البحر فرأى ديرانية اسمها نويرة فانما اذ ذاها في قلبه نعرها ، وشبها في جوانحه من حدود ها المحمرة نظرها . فألقى عندها عصا سفره ، ونفع ولني عندها منتهى ما يؤمن من ظفره . وترك الحج كأنه ما تعنى له من اقصى بلاده ولا نوى اليه السفر في رحلته وزاده " .

وقال فيها اشعار فائقة . ولما طال مقامه وقفت عليه وسالت عن سبب اقامته فقص عليها الخبر وصارت لاتراه الا لماما وبخلت عليه بكلامها . ثم صارت لاتراه الا احتجبت . "فلما كان يوم عيد من اعياد النصارى ، طلعت تلك الدمى ، كأنجم السماء وبرزت تلك الديرانية في اترابها ، وخرجت كالصباح المسفر من وراء حجابها ، فوقف عليهن وقال :

عساك بحق عيساك ... مريحة قلبي الشاكي
فان الحسن قد ولا ... ك احيائي واهلاكي
واولعني بصلبان ... ورهبان ونساك

---

١) ياقوت - معجم البلدان ج ٢ ص ٧٠ (٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٦٦٢ مسالك الابصار ص ٢٧٢ .

ولم آت الكنائس عن هوى فيهن ، لولاك
فهل تدرين ماتقضي على عيني عيناك
وما يذكيه من نار بقلبي نورك الذاكي
حجبت سناك عن بصري وفوق الشمس سيماك
وفي الغصن الرطيب في النقا المرتج عطفاك
وعند الروض خداك وفي رياه ريساك ...... (١)

وكثيرا ما تقصد الديارات لا للتسلي فقط والتمتع بجمال الفتيان والفتيات بل لشرب الخمر . وقد اشتهرت الديارات لطيب خمرتها . وهناك حانات عديدة كان يأوى اليها الشعراء والمجان ويؤمها عشاق اللهو وطلاب الخمرة . قال في مسالك الابصار عن دير العذارى ان " فيه رواهب عذارى وكانت حوله حانات للخمارين وبساتين ومتنزهات . لايعدم من دخله ان يرى من رواهبه جوارى حسان الوجوه والقدود والالحاظ والالفاظ . " قال الخالدي انشدني جحظة البرمكي لنفسه :

قالوا : قميصك مغمور باثار من المدامة والريحان والقار
فقلت : من كان مأواه ومسكنه دير العذارى لدى حانوت خمار
وساده يده والارض مفرشه لايستطيع لسكر حل ازرار
لم ينكر الناس منه ان حلته خضراء كالروض او حمراء كالنار .... (٢)

ويقول جحظة البرمكي من قصيدة له في دير العلث - على شاطئ دجلة - وكان لايخلو من القصف :

فاذا ما تممت حولا فاعدلا بي الى كروم اوانا
واحططا لي الشراع بالدير بالعلث لعلى اعاشر الرهبانا
وظباء يتلون سفرا من الانجيل باكرن سحرة قربانا
لابسات من المسوح ثيابا جعل الله تحتها اغصانا
خفرات حتى اذا دارت الكاس كشفن النحور والصلبانا .... (٣)

ويقول الشاعر الثرواني في دير اشموني وكان من اجل متنزهات بغداد :

اشرب على ضرب النواقيس في دير اشموني بتغليس
لاتخل كاس الشرب والليل في حد نغم لا ولا بؤس

---

١) مسالك الابصار ص ٢٨٤ - ٢٨٦ (٢) المصدر نفسه ص ٢٥٨ - ٢٥٩
٣) ياقوت - معجم البلدان ج ٢ ص ٦٨١

الا على قرع النواقيس   او صوت قسان وتشميس
وهكذا فاشرب والا فكن   مجاورا بعض النواويس ...... (١)

يقول الاستاذ الزيات .. "ولعل هذه الهنات من التخيلات التي يهيم بها الشعراء في اودية الشعر او من قول مالا يفعلون . والناظر الى تلك الاشعار والاقوال يبدر الى وهمه "ان اعراض سكان الديارات كانت وتتخذ لحما على وضم يتناوله من شاء . وان بيوت الصلاة كانت اولى ان تسمى بيوت الريبه ولكن اذا تذكر ان الشعر اعذبه اكذبه تحقق ان كل ما هنالك من دعوى الاستمتاع وقصص المنادمات والمداعبات لم يكن في الحقيقة الا ضربا من ضروب الوشي والتطريز في النظم يراد به مجرد الاغراب والاطراب " (٢) .

واذا كان هذا شان الزيات في حكمه على ما كان يجرى في الديارات او يصيبها ، فما باله يتطرف بقوله في فقرة تالية يعلق فيها على خبر من الاخبار "من هذا الخبر الجديرة بالعبرة والاستبصار يتضح حرج موقف الديارات وما كانت عرضة له من الاخطار والنكبات . وما كان يحل بها من اونه لاخرى من عوادي الظلم والاستبداد لعجزها عن التصون والاتقاء بين شعب قاهر . وفي دولة سلطان جائر " . (٣)

ولقد بقيت الديارات كدور للضيافة ينزلها من يجتاز بها من الناس ويقصدها من طاب له المقام فيها . يقول الخالدي في دير باريثا بارض الموصل : "رايته في بعض السنين وكان به راهب يقال له كوربال ، من عباد النصارى . فاضافنا احسن ضيافة واكرمنا اتم اكرام ، بالطعام الكثير والشراب العتيق الواسع وعلف الدواب ، واكثر ، فعظم في عيني ، وعاتبته على الاسراف في فعله . فقال : هذا والله رسمنا مع كل من ينزل بنا ." (٤)

وكانت الاديار كذلك محطا للخلفاء وارباب الدولة ووجوهها . كدير مران بدمشق الذى كان ينزله يزيد بن معاويه (٥) ونزله جماعة من الخلفاء الامويين والعباسيين كالوليد والرشيد والمامون وغيرهم (٦) . ودير صليبا ودير يونا ودير الرصافة في الشام ، ودير عبدون ودير مار مارى ودير القائم ودير زكي ودير باعربا ودير مار فثر مرونا في العراق × والجزيره (٧)

---

١) ياقوت - معجم البلدان ج ٢ ص٦٤٢   (٢) الديارات ص ٦١ و ٧١
٣) المصدر نفسه ص ٨٣   (٤) مسالك الابصار ص ٣٠٧
٥) ياقوت - معجم البلدان ج ٣ ص٧٧٢   (٦) مسالك الابصار ص ٣٥٥
٧) المصدر نفسه ص ٢٦٩ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٦٦ ، ٣٠١ ، ٣٣٢ .

وفي مصر دير القصير وكان اعظم اديار الروم الملكيين الفه الملوك والامراء والولاة والعمال ورجال الدولة . (١) وقال اسحق الموصلي . "لما خرجنا مع الرشيد الى الرقه مررنا بالقائم وعنده الدير . فاستحسن الرشيد الموضع . وكان الوقت ربيعا وكانت المروج مملوءة بالشقائق والزهر . فشرب على ذلك ثلاثة ايام . ودخلت الدير اطوف فيه فرايت ديرانية حين نهد ثدياها ، وعليهما المسوح ، ما رايت احسن من وجهها وجسمها . وكأن تلك المسوح عليها حلي . فدعوت بنبيذ وشربت على وجهها انداحا . وقلت :

بدير القائم الاقصى … غزال شادن احوى

برى حبي له جسمي … ولا يدري بما القى

واكتم حبه جهدي … ولا والله ما يخفى

ثم دعوت بالعود فغنيت في الدير صوتا مليحا صريعا . وما زلت اكرره واشرب وانظر اليها وهي تضحك من فعلي حتى سكرت . فلما كان الغد دخلت على الرشيد وانا ميت من السكر . فقال لي : اين شربت ؟ فاخبرته القصة . فقال : طيب وحياتي ! ودعا بالشراب فشرب . فلما كان العشي قال : قم بنا حتى اتنكر وادخل الى صاحبتك هذه واراها . فقمت معه وتنكر ودخل الدير . فرآها وقال مليحة والله ! وامر من جاء بكأس وجرة ذي (خمر) . واحضرت عودي فغنيته الصوت الذي صنعته ثلاث مرات ، وشرب عليه ثلاثة ارطال . ثم خرج وامر لي بمائتين الف درهم . فقلت : يا سيدي ، وصاحبة القصة ؟ اريد ان يبين عليها اثري . فامر لها بخمسة الاف درهم . وامر ان لا يؤخذ من مزارع ذلك الدير خراج . واقطعهم اياه وجعل عليه عن الخراج عشر دراهم في كل سنة تؤدى ببغداد ." (٢) اما الاصبهاني فيقول ان الرشيد امر للدير بالف دينار وامر باحتمال خراجه له سبع سنين . (٣)

وقد عرفت الديارات كذلك بكثرة النذور التي تخص بيعها والاستشفاء في ارجائها من الامراض والعاهات . وكثيرا ما كانت تدر على الاديار الهبات والصدقات وتحمل اليها القرابين من كل الاقطار توددا وتقربا من قديس مدفون بها او ما تضمه من رفات شهيد يرجون شفاعتهم وعونهم . ولم يكن النصارى وحدهم يقدمون النذور والقرابين للاديرة او يقصدونها للاستشفاء

---

(١) الديارات للشابشتي ص ١٢٥ عن الزيات ص ٣٠ .

(٢) مسالك الابصار ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

(٣) الاغاني ج ٥ ص ١٢٣ — ١٢٤ .

وانما شاركهم فيها المسلمون احسنهم وتوددوا للشهداء والقديسين . ومن اشهر تلك الاديار دير برصوما . يقول ياقوت : " وهو الدير الذى يلاذى له بحمل نذوره في نواحي الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد الروم وهو قرب ملطية على راس جبل يشبه القلعة ، وعنده متنزه وفيه رهبان كثيرون يؤدون في كل عام الى ملك الروم للمسلمين من نذوره عشرة الاف دينار ... حدثني العفيف مرجا الواسطي التاجر ، قال : استزت مه قاصدا الى بلاد الروم فلما قربت منه اخبرت بفضله وكثرة ما ينذر له ، وان الذين ينذرون له قلى ما يخالف مطلوبهم ، وان برصوما الذى فيه احد الحواريين . فالقى الله على لساني ان قلت ان هذا القماش الذى معي مشتراه بخمسة الاف درهم فان بعته بسبعة الاف درهم فلبرصوما من خاص مالي خمسون درهما . فدخلت ملطية وبعته بسبعة الاف درهم سواء ، فتعجبت . فلما رجعت سلمت الى رهبانه خمسين درهما ". (١)

ومن تلك الخرافات التي كان يعتقد بها المسلمون ما يذكره ياقوت عن دير العباس في ضواحي حمص . قيل كان فيه عظام يحمر الشهداء تزار طلبا للعافية . " وكان البطين الشاعر قد مرض . فجاؤوا به اليه يستشفي فيه ، فقيل ان اهله عنوا عنه فبان قدام قبر الشاهد (اى الشهيد) واتفق ان مات عقيب ذلك . فشاع بين اهل حمص ان الشاهد قتله وقصدوا الدير ليهدموه ، وقالوا نصراني يقتل مسلما ؟ لا نرضاه ، او تسلموا لنا عظام الشاهد حتى نحرقها ". فرشا النصارى امير حمص حتى رفع عنهم العامة . فقال احد الشعراء يذكر ذلك ويرثي الشاعر البطين :

وقيل شاهد هذا الدير اتلفه حقا مقالة وسواس وخناس
أعظم باليات ذات مقدرة على مضرة ذى بطش وذى باس
لكنهم أهل حمص لا عقول لهم بهائم غير معدودين في الناس .. (٢)

- - - - - - - - - -

+ + + + + + + + + + +
x x x x x x x x x
. . . . . .
!!!!!!!
؟!

---

(١) ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٦٤٤

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٠٢

الفصل الرابع

النواحي الاجتماعية الاخرى

من الطبيعي ان يتصل النصارى بالمسلمين ويحتكوا بهم في كل مجارى حياتهم ويشاركوهم الى حد ما بعواطفهم وشعورهم ويساهموا في كل ما يطرأ على البلاد من خير او يصيبها من شر وقد رأينا النصارى وسنراهم مرة اخرى يضطلعون بلعباء الحياة العلمة ويضربون في السهم الاوفر من سياسة وادارة وحرب وعلم وادب • على ان هناك اتصالا آخر بين المسلمين والنصارى او ناحية اجتماعية اخرى هي غير ما ظهر في السياسة والادارة وغير ما رأيناه في اللباس والمواسم والاعياد • نواح متعددة هامة لم يكن للمسلمين سبيل في تجنبها بالنسبة لعلاقاتهم مع النصارى ولم يكن للنصارى بحكم مشاطرتهم المسلمين العيش بد من اهمالها او الاغضاء عنها• اعني بها المعاملات الدينية والمدنية من تزاوج وميراث ودخول الاراضي المقدسة واماكن الصلاة والعبادة ومعاملات تجارية مع كل ما يتعلق بهما بصورة مباشرة او غير مباشرة من مظاهر الحياة الاجتماعية •

الزواج

جاء في القرآن الكريم "اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذين اخدان ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الاخرة من الخاسرين • سورة المائدة ٥ : ٧"

القرآن اذا يسمح بزواج المسلم بالكتابية نصرانية كانت او يهودية • والاسلام "جعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم ان تتمتع بالبقاء على عقيدتها والقيام بفروض عبادتها، والذهاب الى كنيستها او بيعتها ••• ولم يفرق الدين في حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية • ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى "ومن آياته ان جعل لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون "(1) على ان المسلمة لا يحق

---

(1) محمد عبدة ـ الاسلام والنصرانية ص ٧٩ الشافعي ــ الام ــ ج ٤ ص ١٨١

لها ان تتزوج الا بالمسلم وهذا من اجتهاد الائمة اذ لم يرد في القرآن ما يؤيد ذلك .

والتاريخ يحدثنا عن كثير من المسلمين تزوجوا من النصرانيات زواجا شرعيا او من نبيل التسرى . ففى عهد عمر بن الخطاب ماتت ام الحارث ابن ابي ربيعة وكانت نصرانية فحضر الاشراف جنازتها . (١) وقد كثر زواج بعض الخلفاء والامراء خاصة من قبيلتي كلب وتغلب النصرانيتين . فالخليفة عثمان تزوج نائلة بنت الفراخصة الكلبية النصرانية وكانت من خيرة ازواجه وهي التى حامت عنه في يوم مقتله فقطعت اصابعها . (٢)

ويورد ابن رسته في كتابه الاعلاق النفسية قائمة باسماء الاشراف من العرب ابناء النصرانيات كالحارث بن عبدالله بن ابي ربيعة المخزومي وخالد بن عبد الله بن يزيد القسرى عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ابوا الاعور السلمى ، حنظلة بن صفوان الكلبي ، وعبد الله بن الوليد بن عبد الملك ، ويزيد بن اسيد . (٣) ولعل ميسون ابنة يحدل الكلبية ام يزيد بن معاوية نصرانية كذلك (٤) وكانت حدراء احدى زوجات الفرزدق نصرانية . (٥)

اما في العصر العباسي فقد انتشر الزواج بغير المسلمات وعم الكبير والصغير وامتلات قصور الخلفاء والعمال والاشراف بالجوارى الروميات والفارسيات اللاتي ربما تزوجن من اسيادهن وحصلن على جميع الحقوق الزوجية وامثال هذا كثير . ولا يستبعد ان نرى التزاوج يعم بين المسلمين وبين النصرانيات من بقية قبيلتى غسان وتنوخ (٦)

ويظهر ان زواج المسلمين بالنصرانيات في العصر العباسي اصبح عادة اجتماعية كغيرها من العادات الاخرى ولم تعد كما كانت في العصر الاموى بارزة يؤاخذ عليها بعض الناس . ولعل طبيعة الحياة العباسية اقتضت ذلك . ولما كان التاريخ يتنبه للحوادث الفردية البارزة التى لا توافق اهواء العصر ولا تتفق مع الشعور العام نراه يذكر الى حد ما بعض من تزوج من النصرانيات في العصر الاموى ويسكت عن تعداد من تزوج منهن في العصر العباسي . لان الناس ربما الفوا هذه العادة واصبحت مظهر امن مظاهر حياتهم

ومما يجب ان نلاحظه ان كتب الفقه تصدت لدرس العلاقة بين المسلمين والنصارى في الزواج واسهبت في شرحها وتفصيلها . وان كانت احكام الفقهاء لم تتبع وتحترم دوما فليس من شك ان شدة الاراء الشرعية ساعدت على بلورة الشعور العام واخضاعه للتقيد بتلك الاراء واليك بعض هذه الاحكام النظرية :

---

(١) الاغاني ج ١ ص ٣٢ (٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٦ Lammens. Moawia, 294

goldziher p. 199 (٣) ص ٢١٣ (٤) الاغاني ج ١٤ ص ١٢٤ ج ١٦ ص ٣٣

العقد الفريد ج ٢ ص ٢٩٩ و ٣١٣ ، اليعقوبي ص ٦١٢ راجع Lammens: Moawia

(٥) الاغاني ج ١٩ ص ١٨ . (٦) Lammens: Moawia: 295

قال الشافعي : اذا اسلمت الذمية تحت الذمى حاملا كانت لها النفقة حتى تضع حملها . فان ارضعته فلها اجر الرضاع . واذا اسلمت النصرانية تحت النصراني بعد ما يدخل بها لها المهر فان كانت قبضته إلا اخذته بعد اسلامها : واذا كانت النصرانية عند المسلم فطهرت من الحيضة جبرت على الغسل منها فان امتنعت ادبت حتى تفعل لانها تمنعه الجماع في الوقت الذى يحل له . وقد قال تعالى : ولا تقربوهن حتى يطهرن (١) واذا طلق المسلم امرأته النصرانية ثلاثا فنكحها نصراني او عبد فاصابها حلت له اذا طلقها زوجها وانقضت عدتها لان كل واحد من هذين زوج . (٢) ثم قال "اذا اسلمت ام النصراني حيل بينه وبينها واخذ بنفقتها وامرت ان تعمل له في موضعها ما يعمل مثلها فان مات فهى حرة وان اسلم خلى بينه وبينها . (٣)

وجاء في العقد انه اذا تزوج رجل منر من يهودية او نصرانية وحصل بينهما شقاق فيحكم بينهما كما جاء في القرآن "فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها . (٤)

وعلى النصارى ان يزوجوا مسلما محجورا الا باذن وليه ولا يمنعون من ان يزوجوه حرة اذا كان حرا ما كان بنفسه او محجورا باذن وليه بشهود المسلمين . (٥) واذا قذف النصراني امرأته (اى ارتاب او شك بها) فرافعته ورضيا بالحكم حكم بينهما وفرق بينهما ونفي الولد كما يصنع بالمسلم . واذا ابى النصراني الحكم لم لوما ولم يحد لانه ليس على من قذف نصرانية حد . (٦)

واذا انذر النصراني ان لا يقرب امرأته اربعة اشهر وفي نهاية المدة حضر الى القاضي المسلم ليحكم له حكم عليه كما يحكم على المسلم في ان يفئ او يطلق ويؤمر اذا فاء بالكفارة ولا يجبر عليها (٧)

وقد رأينا ان من الافعال التى ينتقض بها عهد الذمى ان يزنى بمسلمة او يصيب مسلمة بنكاح . (٨) قال ابو يوسف "الذمى اذا استكره المرأة المسلمة على نفسها فعليه من الحد ما على المسلم في قول فقهائنا ، وقد رويت فيه احاديث منها ما حدثنا داود بن ابى هند عن زياد بن عثمان ان رجلا من النصارى استكره امرأة مسلمة على نفسها فرفع ذلك الى ابى عبيدة فقال "ما على هذا صالحناكم ، فضرب عنقه" (٩)

---

(١) الام ج ٤ ص ٢٨٣ . (٢) الام ج ٤ ص ١٨٦ (٣) الام ج ٤ ص ١٨٩

(٤) ابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٩٤ (٥) الام : ج ٤ ص ١٢٦ (٦) الام : ج ٤ ص ١٨٤

(٧) الام : ج ٤ ص ١٨٤ (٨) الميزان ج ٢ ص ١٧٤

(٩) الخراج ص ٢١٢

وقد حدث سنة ٦١٧ هـ ان كبس الطبيب ابو على بن ابى البقاء المسنحى وعنده امرأة مسلمة تعرف بست شرف . "فلما قبض عليه اقر على جماعة من المسلمين كن يأتينه لاجل دنياه من جملتهن زوجة ابن البخارى صاحب المخزن اسمها اشتياق . نخرج الامر بسجن المرأتين وفدى ابو على نفسه بستة آلاف دينار " (١)

الميراث

اتفق اكثر الفقهاء والعلماء ان اهل الذمة لا يتوارثون . وهناك حادثة جرت في عهد عمر بن الخطاب قيل : "كانت دردة بنت معدى كرب عمة الاشعث (ابن قيس) عند رجل من اليهود فماتت ولم تخلف ولدا فاتى الاشعث عمر بن الخطاب يطلب ميراثها فقال له عمر : لا ميراث لاهل ملتين " (٢)

وعن ابي يوسف قال : "جاء في كتاب لعمر به عبد العزيز لاحد عماله : من اسلم من اهل الذمة فعليه في ماله الصدقة ولا جزية عليه ، وميراثه لذوى رحمة اذا كان منهم يتوارثون كما يتوارث اهل الاسلام وان لم يكن له وارث فميراثه في بيت مال المسلمين الذى يقسم بين المسلمين " (٣)

فايما ذمى اسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وما له وما كان من ارض فانها من فيء الله على المسلمين . واذا هلك من اهل الذمة ممن لا ولد له ولا وارثا "فان ارضه ترجع الى قريته في جملة ما عليهم من الجزية ومن هلك ممن جزيته على رؤوس الرجال ولم يدع وارثا " فان ارضه للمسلمين " (٤) وكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب عن رهبان يترهبون بمصر فيموت احدهم وليس له وارث فكتب اليه عمر : "ان من كان منهم له عقب فادفع ميراثه الى عقبه ومن لم يكن له عقب فاجعل ماله في بيت مال المسلمين فان ولاءه للمسلمين " (٥٠)

وقد بقيت هذه الاحكام معمولا بها في العصر العباسى ولم نسمع عن قوانين او آراء تنافيها والدليل على ذلك ان الفقهاء منذ رأينا في الامثلة السابقة كانوا يستوحون الماضى اذا ما احتاجوا لتقرير سنة او حكم ما

دخول مكة والمدينة والجوامع :

تذكر بعض المصادر ان النصارى حظر عليهم دخول مكة والمدينة وقد روى عن النبي

---

(١) ابن العبرى ص ٤١٩ (٢) ابن رسته ص ٤١٩ (٣) الخراج ص ١٥٧

(٤) ابن عبد الحكم ص ١٥٤ المقريزى ج ١ ص ٧٧

(٥٠) ابن عبد الحكم ص ٩٠

انه قال : لا يجتمع دينان بجزيرة العرب [١] على ان هذا الحديث لم يؤيد وقد يروى بقي مشكوكا به بدليل انه يخالف سيرة النبي مع النصارى وبعض اليهود وقد كان اهل الذمة في حياته يسكنون في المدينة ومكة وخيبر واليمن ونجران وقد اخذ النبي نفسه من نصراني يدعى موهب كان يسكن مكة دينارا كل سنة كجزية عن راسه . [٢] وكان عمر بن الخطاب "لا يأذن لسبي قد احتلم في دخول المدينة حتى كتب المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يذكر له غلاما عنده صنعا ويستأذنه ان يدخله المدينة ويقول ان عنده اعمالا كثيرة فيها منافع للناس . انه حداد نقاش نجار فكتب عمر اليه فاذن له ان يرسل به الى المدينة " وهذا الغلام هو ابو لؤلؤة الذى قتل الخليفة عمر فيما بعد [٣]

وعن الشافعى ان عمر بن الخطاب كان ياخذ من النبط النصارى من الحنطة والزيت نصف العشر يريد ذلك ان يكثر الحمل الى المدينة ومعنى هذا ان النصارى كانوا يدخلون الحجاز . (٤) وكان ابو زبيد الشاعر النصراني يتردد الى المدينة ويزور الخليفة عثمان في مجلسه ويتردد اليه [٥] وحنين النصراني المغني كان يغني بحضرة سكينة بنت الحسين (٦) وكان يزيد بن معاوية يصحب معه الطبيب ابو الحكم النصراني في موسم الحج في حياة ابيه معاوية [٧] وقد ارسل عبد الملك بن مروان مهندسا نصرانيا الى مكة ليبنى فيها السدود اتقاء الخطر من الفيضان . [٨] والوليد بن عبد الملك ارسل صناعا من الروم والقبط من اهل الشام ومصر ليعيدوا بناء مجلس المدينة سنة ٨٧ هـ [٩] وكان الطبيب جبرائيل بن بختيشوع يخرج مع الرشيد الى مكة في موسم الحج [١٠]

ومما جاء في كتب الفقه انه بامكان الذمى ان يزور الحجاز على ان لا يبقى اكثر من ثلاثة ايام . "واما مكة فلا يدخل الحرم احد منهم بحال ابدا كان لهم بها مال او لم يكن . وان غفل عن رجل منهم فدخلها فمرض اخرج مرضا او مات اخرج ميتا ولم يدفن بها . وان مات منهم ميت بغير مكة دفن حيث يموت او مرض" [١١] ويقول ابو حنيفة : يجوز للكافر دخول الحرم والاقامة فيه مقام المسافر لكن لا يستوطنه مع قول الائمة الثلاثة : انه يمنع من دخول الحرم والذى على راى ابي حنيفة لا يمنع من استيطان الحجاز وهو مكة والمدينة وما حولهما مع قول الائمة الثلاثة انه يمنع الا ان يكون الداخل منهم تاجرا او ياذن له الامام ولا يقيم اكثر من ثلاثة ايام ثم ينتقل . [١٢]
ومما يجب أن نلاحظه ان احكام الفقهاء لا تتفق مع ما كان يجرى في طبيعة

---

(١) مالك ـ موطأ ـ ص ٣١١ (٢) الصولى ص ٢١٤ الشافعى ج ٤ ص ١٠١ (٣) ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢٥٠ . (٤) الشافعى ج ٤ ص ١٢٥ المقريزى ج ٢ ص ١٢١
(٥) الاغاني ج ١١ ص ٢٤ (٦) الاغاني ج ٢ ص ١٢٧ (٧) اصيبعة ج ١ ص ١١٦
(٨) البلاذرى ص ٥٤ (٩) البلاذرى ص ٧ ابن رسته ص ٦٩ (١٠) اصيبعة ج ١ ص ١٣٠
(١١) الشافعى الام ج ٤ ص ١٠٠ (١٢) الشعراني ـ الميزان ج ٢ ص ١٧٤

الحال وقد رأينا النصارى يدخلون مكة والمدينة في كل مناسبة . وربما كانت احكام الفقهاء ليست نافذة في كل الاحوال كاكثر القوانين التى اشترعوها في تحديد علاقة اهل الذمة بالمسلمين .

وقد ارتأى بعض اصحاب المذاهب الفقهية ان لا يدخل النصراني الجوامع واماكن الصلاة الاسلامية . واجاز احدهم دخولها بعد الاستئذان من الوالي او الحاكم . فمالك واحمد بن حنبل قالا بمنع اهل الذمة من دخول المساجد في كل الاحوال . اما ابو حنيفة فصرح لهم بدخولها دون الاستحصال على اذن خاص . في حين نرى الشافعي يشترط عليهم ان يستحصلوا على اذن من المسلمين (١)

على ان الوقائع برهنت ان تلك الاحكام النظرية لم تكن تتفق مع ما كان يجرى في طبيعة الحال . فقد كان النصارى يدخلون المساجد بكل حرية وقد رايناهم ياتون المدينة في زمن الوليد فيعيدون بناء جامعها . وكان الشاعر الاخطل يدخل المسجد ويقعد للحكم فيه بين القبائل المتشاجرة (٢) وفي زمن عمر بن العزيز كانت وفود الروم تدخل المسجد الجامع بدمشق للزيارة (٣) وكثيرا ما كان القاضى يقعد في المسجد وياتى النصارى اليه للنظر في اختلافاتهم وليحكم بينهم . من هذا ما حدث في عهد القاضى خير بن نعيم (١٢٠ ـ ١٢٨ هـ) فقد كان يجلس بعد العصر فيقضى بين النصارى . وكان بعض القضاة يجعلون للنصارى يوما في منازلهم واول من ادخلهم المسجد قاضى مصر محمد بن مسروق في زمن الرشيد (١٧٧ ـ ١٨٤ هـ) (٤)

قتل النفس والدية

جرى العرف ان من يقتل نفسا بريئة بغير ذنب فقد استحق القتل . واختلف الائمة في قصاص المسلم اذا قتل نصرانيا والنصراني اذا قتل مسلما . يروى عن عمر بن الخطاب عن النبي انه قال : "من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة" (٥)

وتكاد تتفق اراء الائمة حول عدم قتل المسلم بالنصراني وقد خالفهم في ذلك ابو حنيفة فاجاز قتله . (٦) وقال ابو حنيفة بقتل الحر بالعبد والمسلم بالكافر كما يقتل العبد بالحر والكافر بالمسلم . وحكى انه رفع الى ابى يوسف القاضى وهو من

---

(١) الشعراني ـ الميزان ـ ج ٢ ص ١٧٤ (٢) الاغانى ج ٧ ص ١٧٩ (٣) ابن عساكر ج ١ ص ٢١٠ (٤) الكندى ص ٣٥١ ، ٣٩٠ (٥) البخارى صحيح ج ٤ ص ٩٩ (٦) الشافعى ، الام ج ٧ ص ٢٩١

اصحاب ابي حنيفة مسلم قتل كافرا "فحكم عليه بالقود فاتاه رجل برقعة فالقاها اليه فاذا فيها مكتوب :

يا قاتل المسلم بالكافر جرت وما العادل كالجائر
يا من ببغداد اطرافها من علماء الناس او شاعر
استرجعوا وابكوا على دينكم واصطبروا فالاجر للصابر
جار على الدين ابويوسف لقتله المؤمن بالكافر

فدخل ابو يوسف على الخليفة الرشيد واخبره الخبر واقرأه الرقعة فقال له الرشيد : تدارك هذا الامر بحيلة لئلا تكون فتنة فخرج ابو يوسف وطالب اصحاب الدم ببينة على صحة الذمة وثبوتها فلم ياتوا بها فاسقط القود" (١)

واختلف في دية اليهودي والنصراني ، فذهب ابو حنيفة الى انها كدية المسلم وقال مالك نصف دية المسلم وعند الشافعي انها ثلث دية المسلم[٢] وقد كانت دية المعاهد في عهد ابي بكر وعمر وعثمان كدية المسلم تامة حتى جعل معاوية نصف الدية في بت المال . اما مقدار الدية الكاملة فهو لا يزيد عن ٨٠٠ دينار "(٨٠٠٠) درهم (٢) ويذكر صاحب الاغاني ان معاوية " الزم بن مخزوم دية ابن اثال النصراني اثنى عشر الف درهم ادخل بيت المال منها ستة آلاف درهم واخذ ستة آلاف ولم يزل ذلك يجرى في دية المعاهد حتى ولى عمر بن عبد العزيز فابطل الذى ياخذه السلطان لنفسه واثبت الذى يدخل بيت المال (٣)

واذا ما اردنا تفسير اختلاف الائمة حول دية النصراني وفي جعلها نصف دية المسلم بصورة خاصة انه في البدء كان يرصد لبيت المال نصف الدية بدليل ما فعل معاوية . ولما اثبت عمر بن عبد العزيز الذى يدخل بيت المال فقط او نصف الثمانماية دينار اتى الفقهاء في العصر العباسي وقبلوا هذه العادة وسنوا قانونا "بجعل دية النصراني نصف دية المسلم . في النتيجة لم تكن آراء الفقهاء لتتبع دوما وربما صنع الحاكم حسب ما يوحى له هواه دون التقيد باية سنة او قانون .

وقد يكون اختلاف الائمة حول الاحكام الفقهية يسيغ للحاكم استعمال سلطته هذا اذا لم يشايع صاحب السلطان مذهبا من المذاهب ويعمل بموجبه وهذا نادرا . وقد حدثنا بعض

---

(١) الماوردي ص ٢٠٢ (٢) الماوردي ص ٢٠٢ (٢) الشافعي ـ الام ج ٧ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ (٣) الاغاني ج ١٥ ص ١٣

المؤرخين ان في كثير من الاحوال كان المسلم يعدم اذا تعمد قتل مسلم ما وكذلك قتل النصراني (١)

الارتداد عن الاسلام

اما الاحكام التي وردت بشأن نصراني او ذمي ارتد عن الاسلام فيكاد ائمة المذاهب والفقهاء يتفقون على قتله ان بقي مصرا على ارتداده . قال ابو يوسف :

"واما المرتد عن الاسلام الى الكفر فقد اختلفوا فيه فمنهم من راى استتابته ومنهم من لم ير ذلك ... وكل قد روى في ذلك آثارا واحتج بها . فمن راى ان لا يستتاب فيقول : قال رسول الله (صلعم) "من بدل دينه فاقتلوه" ومن راى ان يستتاب فيحتج بما روى عن النبي (صلعم) من قوله : " امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله " . وعن الشيعي ان النبي قال : "يستتاب المرتد ثلاثا فان تاب والا قتل" . وقيل ان "معاذا دخل على ابي موسى وعنده يهودي فقال : ما هذا ؟ قال : يهودي اسلم ثم ارتد وقد استتبناه منذ شهرين فلم يتب ،فقال معاذ : لا اجلس حتى اضرب عنقه قضاء الله وقضاء رسوله " فهذه الاحاديث يحتج من راى من الفقهاء — وهم كثير — الاستتابة ،واحسن ما سمعناه من ذلك — والله اعلم — ان يستتابوا فان تابوا والا ضربت اعناقهم على ما جاء في الاحاديث المشهورة وما كان عليه من ادركناه من الفقهاء " اما النساء فلا يقتلن اذا هن ارتددن عن الاسلام ولكن يحبسن ويدعين الى الاسلام ويجبرن عليه ... ، (٢)

اما ما جاء بهذا العدد من اختلاف الائمة فيذكر الشعراني في الميزان ان ابا حنيفة حتم قتل المرتد في الحال واذا استتيب ولم يتب لم يحصل الا ان يطلب هو الامهال وقال مالك : تجب استتابته فان تاب في الحال قبلت توبته وان لم يتب امهل ثلاثا لعله يتوب فان تاب والا قتل . وقال الشافعي : من اشهر قوليه : تجب استتابة ولا يمهل بل يقتل في الحال اذا اصر على ردته . وعن احمد بن حنبل روايتان . احداهما كمذهب مالك والثانية تقول بعدم وجوب الاستتابة واختلفت الروايات عنه في وجوب الامهال اما حكم المرأة المرتدة فهو كحكم المرتد من الرجال حسب الائمة الثلاثة مع قول الامام ابي حنيفة ان المراة تحبس ولا تقتل . (٣)

---

(١) راجع ابن العبري (B. H. Chronicle p 330,449) عن Tritton p. 181

(٢) الخراج ص ٢١٣ و ٢١٥ (٣) ج ٢ ص ١٤٥

ولم تتفق آراء الفقهاء في الغالب مع بعض الحوادث التي يرويها لنا التاريخ قبل العصر العباسي . (١)

ومما يؤثر عن الخليفة المأمون انه خاطب مرتدا الى النصرانية قال : "اخبرنا عن الشيء الذى اوحشك من ديننا بعد انسك به واستيحاشك مما كنت عليه فان وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به وان اخطأ بك الشفاء ونبا عن دائك الدواء كنت قد اعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة وان قتلناك قتلناك بحكم الشريعة وترجع انت في نفسك الى الاستبصار والثقة وتعلم انك لم تقصر في اجتهاد ولم تفرط في الدخول من باب الحزم قال المرتد : اوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف فيكم : قال المأمون : لنا اختلافان : احدهما كالاختلاف في الاذان والتكبير في الجنائز والتشهد وصلاة الاعياد وتكبير التشريق ووجوه القراءات ووجوه الفتيا وليس هذا باختلاف انما هو تخيير وسعة وتخفيف من المحنة ... والاختلاف الاخر كنحو اختلافنا في تأويل الاية من كتابنا وتأويل الحديث مع اجتماعنا على اصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر . فان كان الذى اوحشك هذا حتى انكرت هذا الكتاب فقد ينبغي ان يكون اللفظ بجميع التوراة والانجيل متفقا على تأويل كما يكون متفقا على تنزيله ولا يكون بين جميع اليهود والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات ... قال المرتد : اشهد ان لا اله الا الله وان المسيح عبد وان محمدا صادق وانك امير المؤمنين حقا . (٢)

ويظهر من هذه الرواية ان جزاء المرتد القتل شرعا في زمن المأمون . ويروى ابن قتيبة ان رجلا من النصارى كان "يختلف الى الضحاك بن مزاحم فقال له يوما : لو اسلمت ! قال : يمنعني من ذلك حبي للخمر قال فاسلم واشربها فاسلم . فقال له الضحاك : انك قد اسلمت فان شربت الخمر حددناك وان رجعت عن الاسلام قتلناك فحسن اسلامه . (٣)

ورفع سنة ٣٧٥ هـ الى محمد بن النعمان والى القضاء في مصر ان نصرانيا اسلم ثم ارتد وقد جاوز الثمانين فاستتيب فابى فانهى امره الى الخليفة العزيز بالله الفاطمي "فسلمه الى الشرطة وارسل الى القاضي ان يرسل اربعة من الشهود ليستتيبوه فان تاب ضمن له عن مائة دينار وان اصر فليقتل فعرض عليه الاسلام فابى فقتل ثم امر بتغريقه في النيل . (٤)

وفي زمن اضطهاد الحاكم بامر الله للنصارى اضطر كثير منهم الى قبول

---

(١) راجع ابن عبد الحكم ص ١٦٨ وابو يوسف ص ٢١٧ (٢) ابن قتيبة — عيون الاخبار ج ٢ ص ١٥٤ الجاحظ — البيان ج ٣ ص ٢٢٣ العقد الفريد ج ١ ص ٢٥٥ (٣) عيون الاخبار ج ١ ص ٢٠٢ الكندى — ملحق — ص ٥٩٣ — (٤) تغرى بردى ج ٢ ق ٢ ص ٦٩ (امريكية)

الاسلام . ولكنه عاد فسمح اليهم بعد سنوات بالرجوع الى ديانتهم . ويقال ان الحاكم في آخر ايامه قد ادعى الربوبية فمال اليه الخلق طمعا في الدنيا . وكان اليهودى والنصراني اذا لقيه يقول : الهى قد رغبت في شريعتى الاولى فيقول الحاكم : افعل ما بدا لك فيرتد عن الاسلام . (١)

وفي سنة ٤١٨ هـ اذن الخليفة الظاهر لمن اظهر الاسلام في ايام الحاكم ان يعود الى النصرانية . (٢)

وهناك احكام اخرى كانت تعكس لنا بعض وجوه العلاقة بين المسلمين والنصارى منها قبول شهادة المسلم على النصراني او العكس بالعكس . ويقول ميخائيل السرياني ان عمر بن عبد العزيز هو اول من رفض شهادة النصراني على المسلم (٣) اما شهادة اهل الذمة بعضهم على بعض فابو حنيفة قبلها . وقال مالك والشافعى لا تقبل . ويروى عن احمد بن حنبل روايتين وافق بهما الرأيين السابقين . وقال ابو حنيفة ومالك والشافعى : لا تقبل شهادتهم على المسلمين في الوصية وفي السفر حتى اذا لم يوجد غيرهم. وقال احمد بن حنبل تقبل ويحلفان بالله مع شهادتهما انهما ما خانا ولا بدلا ولا غيرا وانهما لوصية الرجل (٤)

وكان القاضي خير بن نعيم (١٢٠ - ١٢٨ هـ) يقبل شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود . (٥)

هذا ولا حاجة الى تفصيل الاحكام الاجتماعية الاخرى التي تساوى فيها النصارى والمسلمون معا امام الشرع والقانون .

المعاملات التجارية :

اما المعاملات التجارية فقد كان النصارى واليهود هم ارباب اكثر الصنائع فمن النصارى الاطباء والعطارون والصيارفة ومن اليهود الصباغون والدباغون والحجامون والقصابون (٦) فلا بد اذن من اتصالهم بعضهم ببعض ومشاركتهم في تجارتهم .

ومما جاء فى الاحكام الشرعية ان مالك لا يرى من الحق ان يستأجر المسلم بستانا او كرما من نصراني على سبيل الشركة ويحق للنصرانى ان يستأجر بستان المسلم حسب تلك القاعدة ويسمح كذلك للمسلم ان يشارك النصراني على شرط ان يكون المسلم حاضرا ومطلعا على ما يجريه النصراني من المعاملات . (٧)

---

(١) المقريزي ج ١ ص ٣٥٥ (٢) Tritton p. 186 عن (Long) p. 253

(٤) الشعراني – الميزان – ج ٢ ص ١٨٦ . (٣) رحمة الامة ج ٢ ص ١٩٢ (٥) الكندى ص ٣٩

(٦) الجاحظ ثلاث رسائل ص ١٧ (٧) المدونة الكبرى ص ١١ ، ٥٧ ، ٣٨ عن ترتيون ص ١٩٠

وجاء في العهدة المنسوبة الى عمر ان على النصراني ان لا يبيع مسلما خمرا او خنزيرا وبحسب الشافعي اذا باع نصراني خمرا لمسلم بطل البيع ورد المال الى المشترى . [١] على ان الاتجار بالخمر لم يتقيد بقانون ثابت طيلة العصر العباسي ولنا من الحياة الاجتماعية في ذلك العصر خير شاهد على ذلك . وتظهر قيمة الاتجار بالخمر في المواسم والاعياد النصرانية وقد كانت تدر على النصارى الارباح الطائلة ويقال ان الحاكم بامر الله منع الناس من بيع المسكرات [٢]

ويحدثنا ابو شامة ان النصارى كانوا يتجرون مع المسلمين حتى في زمن اشتداد الحروب الصليبية ويسيرون المراكب من مصر الى الشام . وحدث مرة ان استولى الافرنج على مركبين تجاريين للنصارى وللمسلمين سنة ٥٦٢ هـ فهدد نور الدين زنكي بارجاعها فارجعوهما "فلما اعادوا الى الناس اموالهم لم يصل الى كل انسان الا اليسير وكان يحمل المتاع فكل من كان اسمه عليه او على ثوب اخذه وكان في الناس من ياخذ ما ليس له . وكان احد هؤلاء المصاريين (التجار) فيه امانة وكان نصرانيا فلم ياخذ الا ما عليه اسمه وعلامته " وذهب من ماله شيء كثير على انه حصل على مال لاحد التجار المسلمين لدفعته امانته لان يسلمه اليه ولكن التاجر المسلم امتنع من اخذه وكلفه باخذ جميع المال لانه احوج اليه فلم يفعل رغم الالحاح الشديد [٣]

ويحدثنا ابن العبري في فاتحة القرن السابع ان التجار المسلمين والنصارى والاتراك كانوا يسيرون معا الى جميع الاطراف ويتجرون في جميع اصناف التجارة [٤]

الاسماء والكنى والالقاب

ذكر الطرطوشي في جملة الشروط التي فرضها عمر بن الخطاب على اهل الشام ان لا يتكنوا بكنى المسلمين . [٥] على ان هذا الشرط لا يتفق مع عادات العرب في اوائل الفتح الاسلامي . والتلقب لم يكن معروفا في عهد عمر بن الخطاب وصدر الاسلام ولا في زمان الخلفاء الامويين . ولذلك لم يتلقب احد منهم . وغاية ما سمع عن الالقاب في عصر الراشدين : الفاروق ، وسيف الله ، وذي النورين في مدح عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعثمان بن عفان . وهذه الاوصاف اذا صحت نسبتها لم تكن حقيقة الا نعوتا يراد بها التشريف لا مجرد التعريف . [٦]

---

(١) الام ج ٤ ص ١٣١ (٢) المقريزي ج ٢ ص ٢٨٧

(٣) الروضتين ج ١ ص ٢٠٣ (٤) ابن العبري – مختصر الدول ص ٤٠٠ و٤٠١

(٥) سراج الملوك ص ١١٠ (٦) الزيات – الخزانه الشرقية الجزء الاول ١٩٣٦ ص ٧

واول ما نشأ التلقب في الدولة العباسية مع السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد . واصبح سنة للخلفاء والملوك وسائر رجال الدولة فيما بعد . وليس هنا . مايثبت تميز المسلمين وانفرادهم بها دون النصارى « اوغيرهم . والجاحظ يشهد ان النصارى في ايامه : "تسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي واكتفوا بذلك اجمع" (١) والتاريخ يخبرنا ان النصارى ظلوا دهرا طويلا بعد زمن الجاحظ يتخذون الاسماء الاسلامية حتى بين بطانة الخلفاء والامراء انفسهم . مثل سعيد بن نوفيل ، ومالك بن الوليد ، وابراهيم بن ايوب ، والعلاء بن عبيد الله بن الفضل ويحيى بن عدى ، ويحيى بن سعيد ، وموفق الدين يعقوب ، وابو الفرج عبد الله بن مسرور ابوعلي الدنداني ا الفضل بن مروان (٢)

وكانت كذلك الكنى شائعة عند النصارى شيوعها عند المسلمين . ممن اشتهر بها من المسيحيين : ابوعلي ابن المسيحي رئيس الطب في بغداد وابوعلي عبد الله بن علي المنجم المعروف بالدنداني ، وابوعلي بن جبير الكاتب ، وابو الحسن المختار بن الحسين بن بطلان الطبيب المشهور . وابو الحسن علي ابن ابراهيم بن بكوس الطبيب ، وابو الحسن سعيد بن سنجلا كاتب الخليفة الراضي ، وابو الحسن بن ابراهيم التسترى الكاتب ، وابو الفضل بن داود الكاتب ، وابو الفرج بن العبرى . (٣)

اما الالقاب فاول ما اتخذت مع الاسماء في زمن الخليفة المكتفي بالله (٢٨٩—٢٩٥ (٩٠٢—٩٠٨ م) ثم استحدث التلقيب بالاضافة الى الدين في خلافة القادر بالله (// ٣٨٥—٤٢٢ هـ) ٩٩٢—١٠٣١) " وتزايد وانفرط حتى دخل فيه الكتاب والجند والاعراب والاكراد وسائر من طلب واراد ." (٤) وقد وجدت طائفة كبرى من النصارى اتخذوا مثل تلك الالقاب واضافوا كلمة الدولة والدين والملك على اسمائهم ، كجمال الدين بن علي بن اثردى النسطورى ، وموفق الدين يعقوب ابن سقلاب ، وتاج الدولة سيف الاسلام بهرام الارمني وزير الخليفه الحافظ لدين الله . وامين الدوله موفق الملك ابو الحسن هبة الله بن التلميذ الطبيب النسطورى .

وهذا برهان قاطع ان ذلك الشرط موضوع مختلق كغيره من الشروط الاخرى التي نسبت الى عمر بن الخطاب ، هذا فضلا عن ان المسلمين لم يكونوا مهتمين بعادة التكني والتلقب في ايامهم الاولى حتى حلول العصر العباسي .

. . . .

---

١) ثلاث رسائل ص ١٨

(٢) راجع الباب النصارى في خدمة الدولة والباب ، اثر النصارى العلمي والادبي .

(٣) الخزانة الشرقية ص١٢

٤) القلقشندى ج ٥ ص ٤٤٢

البـــــاب الثاني

الضـــــرائب

البـــاب الثانـــي

الضـــرائب ـ الجزية والخـــراج

الجزية والخراج هما من الضرائب التي وضعها المسلمون على اهل الذمة عامة من نصارى ويهود وصابئة ، وغيرهم . ومعنى الخراج في كلام العرب الكراء والغلة . ويسمون غلة الارض والدار والعبد خراجا . منه حديث النبي (صلعم) " الخراج بالضمان ." وفي الغالب هو ما اختص بضريبة الارض . وجاء في القرآن عنه بينة خالفت نص الجزية ولذلك كان موقوفا على اجتهاد الائمة . قال الله تعالى : "ام تسألهم خرجا فخراج ربك خير ." ففي قوله ام تسالهم خرجا ـ وجهان : احدهما اجرا ، والثاني نفعا [1] .

واما الجزية فهي الضريبة الموضوعة على الرؤوس . يقول الماوردي واسمها مشتق من الجزاء . والاصل فيها قوله تعالى "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون " ... "فيجب على ولي الامر ان يضع الجزية على رقاب من دخل الذمة من اهل الكتاب ليقروا بها في دار الاسلام ويلتزم لهم ببذلها حقان : احدهما الكف عنهم . والثاني الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين ." [2] واحسن ما قيل في تعريف الجزية ما قاله القرطبي في كتابه " الجامع لاحكام القرآن " : "والجزية وزنها فعلة من جزى يجزي اذا كافأ عما اسدى اليه ، فكأنهم اعطوها جزاء ما منحوا من الامن ." [3] ويقول البستاني : قيل عنها جزية لانها تجزي عنهم اي تكفيهم معاملة الحربيين وقيل لانها تكفيهم مؤونة الجهاد كالمسلمين . وقيل هي معرب "كزيت" بالفارسية ولا يعتد به . [4]

والفارق الآخر بين الجزية والخراج ان الجزية نص جاء في القرآن وتسقط بحدوث

---

(1) الاموال ص ٧٢ ، الماوردي ص ١٢١ ، الكشاف ج ٢ ص ٤٠١ ، تاج العروس ج ٢ ص ٢٨ .

(٢) الماوردي ص ١٢٧ ، تاج العروس ج ١٠ ، ص ٧٣

(٣) ج ٨ ، ص ١٠١ ـ نقلا عن النظم الاسلاميه ـ حسن ابراهيم حسن ص ٢٧٥ .

(٤) المحيط ج ١ ، ص ٢٥٢ .

الاسلام ، والخراج اجتهاد ولا يسقط بالاسلام (١)

ويجب ان نلاحظ ان استعمال كلمتي الجزية والخراج بالمعنى الذى وصل الينا في العصور المتأخرة من انهما ضريبتان مختلفتان وضعت احداهما على الانفس والثانية على الارض لم يكن معروفا في زمن الفتح . وكل ما نستنتجه من النصوص ان عمر بن الخطاب وضع ضريبتان واحدة على الارض والثانية على الرقاب ، واختص بالجزية اوضريبة الرقاب وبالخراج اوضريبة الارض بعض المناطق دون الاخرى ، حيث بات معناهما او المراد منهما مختلط . ويقول الاستاذ ارنولد : ان هناك ادلة وبراهين تظهر ان الفاتحين العرب لم يغيروا شيئا من نظام الضرائب الذى وجدوه جاريا في البلاد المفتوحة المقتطعة من الامبراطورية البزنطية ، وتفسير معنى الجزية بانها ضريبة على الانفس او الرؤوس لم يكن الا من اختراع الفقهاء المتأخرين الذين كانوا يجهلون حقيقة الموقف في الايام الاولى الاسلامية . (٢)

وقد اخطأ كثير من الفقهاء في تفسير معنى الجزية بالجزاء او القصاص لبقاء من وضعت عليهم على دينهم وعدم ... قبولهم الدين الاسلامي . (٣) وقد رأينا ان المسلمين لم يضطروا احدا على تغيير عقيدته وانما اشترطوا على من دخل في ذمامهم مالا معينا يدفعه لقاء حمايته . وكان حظ النصارى من هذا الشرط كحظ غيرهم من اهل الذمة فرضت عليهم الجزية او الخراج لتدافع جيوش المسلمين عنهم وليعفوا كذلك من الخدمة في الجيش . فاهل الحيرة النصارى قبلوا صلح خالد بن الوليد وادوا الجزية المعروضة عليهم على ان يحميهم المسلمون من ضغط الآخرين من مسلمين وغيرهم . (٤) وجاء في كتاب لخالد لبعض نصارى فيما جاور الحيرة : "فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا حتى نمنعكم ." (٥) وهناك شواهد كثيرة على امثال هذه الحوادث في كل البلاد المفتوحة . ففي زمن عمر بن الخطاب لما جمع الامبراطور هرقل الجموع العظيمة لاسترداد ما فتح من بلاد الشام . كتب القائد ابوعبيدة "الى كل وال ممن خلفه في المدن التي صالح اهلها يأمرهم ان يردوا عليهم ما جبي من الجزية والخراج . وكتب اليهم ان يقولوا لهم انما رددنا

---

(١) الماوردى ص ١٢٦

(٢) Arnold p. 59

(٣) Aghnides p. 398 f. راجع ادب الكاتب الصولي ص ٢١٣ نمرو ١

(٤) الطبرى الجملة الاولى : ٢٠٥٥

(٥) المصدر نفسه الجملة الاولى : ٢٠٥٠ .

عليكم اموالكم لانه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم ، وانا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم . فلما قالوا ذلك لهم ، وردوا عليهم الاموال التي جبوها منهم ، قالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم . فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا . واخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا لنا شيئا . (١)

والجزية كانت تفرض كذلك على النصارى لقاء اعفائهم من الخدمة العسكرية . وقد اظهر كثير من الحوادث ان النصارى الذين خدموا في جيش المسلمين او حاربوا معهم رفعت عنهم تلك الضريبة . فنصارى حمص ساعدوا المسلمين على دفع جيوش البزنطيين فرد المسلمون عليهم ما كانوا اخذوا منهم من الاموال . (٢) وقبيلة الجراجمة صالحت المسلمين على ان تكون عونا لهم تقاتل الى جانبهم اذا حصرت معهم حربا اوغزاة على ان لا يؤخذوا بالجزية . (٣) . والذي يراجع عهود النبي كلها للنصارى يلاحظ انه قد تعهد بحمايتهم والمدافعة عنهم لقاء دفع الجزية . (٤) وربما كانت الجزية فرضت كذلك على الذمي مقابل فرض الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان ، لان الذميين والمسلمين رعية لدولة واحدة ويتمتعون بحقوق واحدة وينتفعون بمرافق الدولة عامة بنسبة واحدة . (٥)

فلما ان المسلمين لم يستوفوا ضريبتين مختلفتين من نصارى البلاد المفتوحة ، واحدة ضريبة عن رؤوسهم والثانية على ارضهم . فقد شاهدنا خالدا يقبض الجزية من اهل الحيرة وابا عبيدة يرد الخراج لاهل حمص وباقي البلاد الشامية الاخرى . وكثيرا ما صولحت بعض المدن على مال مقطوع يدفعونه للمسلمين او ثياب او انعام او ارزاق . وربما استوفى المسلمون جزية عن الرؤوس وخراجا عن الارض في وقت واحد كما فعل يزيد بن معاويه فانه وضع الخراج على اراضي السامره بالاردن وجعل على رأس كل امرىء منهم دينارين (٦) . والواقع ان الجزية والخراج لم يتخذا شكليهما النهائي ويستوفيا معا من النصارى الا في العصر العباسي او قبيله بقليل عندما

---

(١) ابو يوسف - الخراج ص ١١٦

(٢) البلاذري ص ١٣٦ . (٣) المصدر نفسه ص ١٥٩

(٤) الصولي ص ٢١٤ ، البلاذري ص ٥٩

(٥) النظم الاسلامية ص ٢٧٤ .

(٦) البلاذري ص ١٥٨ .

بدأ الفقهاء واصحاب المذاهب الاسلامية في سن القوانين والاحكام الاسلامية .

وقد اختلف مقدار الضريبة التي فرضها المسلمون على اهل الذمة وتفاوت بالنسبة للمدن والبلاد المفتوحة حسبما تكون البلاد فتحت عنوة او دخلت بصلح او روعيت شروط اخرى اخذها المسلمون على انفسهم . فالنبي محمد فرض على اهل نجران من النصارى الفي حلة ثمن كل حلة اربعين درهما وان يضيفوا رسله شهرا فما دونه . (١) ولما عاد النبي من غزوة تبوك الى المدينة وضع الجزية على من بالمدينة ومكة وخيبر واليمن ونجران من اهل الذمة دينارا ونحوه . واستثنى من ذلك النساء والصبيان . وتعهد لهم ان يمنعهم ممن يظلمهم ويقاتل عنهم ان فهر عليهم عدوهم . (٢) ووضع النبي كذلك على اهل تبوك وايلة (العقبة) دينارا واحدا عن كل رجل . (٣) وفي زمن ابي بكر لما فتحت بصرى وضع على كل حالم من اهلها دينارا واحدا وجريبا من القمح . (٤)

وفي عهد عمر بن الخطاب لما اتسعت رقعة البلاد المفتوحة فرض في البدء دينارا واحدا وجريبا من القمح على كل جمجمة . ويظهر ان الخليفة عمر قد غير قيمة هذه الضريبة فيما بعد . فخالد ابن الوليد الزم اهل دمشق من الجزية دينارا وجريب حنطة وخل وزيتا لقوت المسلمين . (٥) وفرض عياض بن غنم على اهل الرقة دينارا وعدة اقسطه من القمح وشيئا من خل وزيت وعسل . (٦) وقيل ان ابا عبيدة صالح اهل دمشق على دينارين دينارين وبعضهم على الطاقه ، ان زاد المال زاد عليهم ، وان نقص ترك ذلك عنهم . (٧) ويذكر البلاذري عن اسلم مولى عمر بن الخطاب ان عمر كتب الى امراء الجزية ان لا يضربوها الا على من جرت عليهم الموسى . وجعلها على اهل الذهب اربعة دنانير ، وجعل عليهم لارزاق المسلمين من الحنطة لكل رجل مدين ومن الزيت ثلاثة اقساط ، بالشام والجزيرة مع اضافة من نزل بهم ثلاثة ايام (٨) .

---

(١) البلاذري ص٦٤ . (٢) الصولي ص٢١٤ .

(٣) البلاذري ص ٥٩ . (٤) المصدر نفسه ص ١٠٣

(٥) المصدر نفسه ص١٢٤

(٦) المصدر نفسه ص١٧٣

(٧) ابن عساكر ج ١ ص ١٥٠

(٨) فتوح البلدان ص ١٥٢

وفي رواية اخرى ان عمر امر ان تجعل الجزية على اهل الورق على كل رجل اربعين درهما وعلى اهل الذهب اربعة دنانير ومديان حنطة وثلاثة انساط زيتا كل شهر لكل انسان في الشـام والجزيرة . وجعل لكل انسان بمصر في كل شهر اردبا وكسوة وضيافة ثلاثة ايام . (١)

اما الجزية التي ضربت على مصر عند فتحها فالروايات متضاربة في تقدير مقدارها . فهناك من يقول ان ضريبتهم كانت دينارين او دينارين وشيئا من الارزاق . (٢) وقيل وضع على بعض اهل مصر على كل حالم دينارين جزية الا ان يكون فقيرا والزم كل ذى ارض مع الدينارين ثلاثة ارداب حنطة وقسطي زيت وقسطي عسل وقسطي خل ، ووظف عليهم بعض الثياب من الصوف والبرانس والعمائم والسراويل والاحذية . (٣) ويذكر البلاذرى كذلك عن احد الرواة ان عمرو بن العاص صالح جميع اهل مصر ووضع عليهم الخراج على كل جريب دينارا وثلاثة ارداب طعاما ، وعلى راس كل حالم دينارين . (٤) وقيل ان اهل الجزية بمصر صولحوا في خلافة عمر بعد الصلح الاول ، مكان الحنطة والزيت والعسل والخل على دينارين دينارين ، فالزم كل رجل اربعة دنانير فرضوا بذلك . (٥)

ومهما يكن من امر فان ضريبتي الجزية والخراج لم تستقرا على قيمة معينة في العصر الاول الهجرى وانما خضعتا لزيادات كثيرة او نقصان ، على الرغم من ان لاهل الذمة من الشروط ان لا يزاد عليهم في جزيتهم . (٦) ـ طبقا لرغائب الحكام او حاجة الدولة الى المال . حتى ان العمال في زمن عمر بن الخطاب كانوا يختلفون في تقدير قيمة الخراج كما حدث عند مسح اراضي السواد . (٧) ففي ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر اخذت الجزية من الرهبان عن كل راهب دينارا وهي اول جزية اخذت منهم . وزيد في ضريبتي الجزية والخراج فشكى الناس ذلك الى عبد الملك بن مروان . (٨) وفي ولاية الحر بن يوسف الثقفي (١٠٧ هـ) على مصر كتب عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراجها الى هشام بن عبد الملك بان ارض مصر تحتمل الزيادة فزاد على كل دينار قيراطا فثار القبط من اجل ذلك . (٩) وظلت الضرائب بين زيادة ونقصان

---

(١) البلاذرى ص: ١٢٥ ، (٢) المقريزى ج ١ : ص: ٧٦ و ٢٩٤ .

(٣) البلاذرى ص: ٢١٤ ، الصولي ص ٢١٧ (لكنه لا يذكر ان ثيابا وضعت عليهم) .

(٤) فتوح البلدان ص : ٢١٥ ، (٥) المصدر نفسه ص : ٢١٦

(٦) الصولي ص: ٢١٧ ، (٧) راجع ابي يوسف ص ٤٣ ـ ٤٤ .

(٨) المقريزى ج ٢ ، ص: ٤٩٢ ، الصولي ص: ٢١٧

(٩) المقريزى ج ٢ ، ص : ٤٩٢ ، الكندى ص ٧٣

طيلة العصر الاموي وبعض الفترات في العصر العباسي . ففي سنة ١٦٧ هـ . تشدد موسى بن مصعب امير مصر في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما كان يؤخذ منه ، وجعل خراجا على اهل الاسواق وعلى الدواب . [١] ويقول احد المؤرخين السريان ان امر الزيادة أن نسما من سياسة هارون الرشيد بحيث اضطر كثير من النصارى ان يهاجر ويترك ملكه بايدي العرب . [٢] وحدثت الزيادة كذلك في سنة ٢١٣ هـ . [٣] على اننا يجب ان لا نشق كما يقول الاستاذ تريتون بامر زيادة الضرائب كثيرا ، فهناك شواهد عديدة تبرهن على ان الضريبة خففت ولوحظ هذا الامر في بلاد مصر على الاخص . [٤]

الخـــراج - مقــــداره :

فرضت ضريبة الخراج على ثلاثة اصناف من الناس : اصحاب الاراضي الذين يدفعونه من نتاج ارضهم ، واهل الحرف ويدفعونه من ايرادهم ودخلهم ، ثم التجار ويؤدونه من منافعهم . ويتساوى الجميع في مقدار الخراج المدفوع .[٥]

وقد روعي في مقدار الخراج ما تحتمله الارض كاختلاف الارضين واختلاف الزروع واختلاف السقي . [٦] وكان الخراج يؤخذ بحسب الجريب . والجريب مساحة معلومة من الارض تساوي ستين ذراعا مربعا . وفي زمن عمر بن الخطاب كان يستوفى من ارض السواد عن كل جريب درهما وقفيزا - . والقفيز ثمانية ارطال وثمنه ثلاثة دراهم . [٧] وجاء في البستان ان القفيز يساوي ١٢ صاعا او ٤٨ مدا . [٨] ولكن هذا القدر المعروض تغير فيما بعد واختلف الناس على الاخص في خراج الســواد . فقيل انه كان :

---

(١) الكندي ص ١٢٥ ،

(٢) S. A. II, 3 عن Tritton p. 211

(٣) الكندي ص ١٨٥

(٤) Tritton p. 211

(٥) سيرة عمر لابن عبدالحكم ص ٦٩ ، عن

(٦) الماوردي ص ١٣٢ - ١٣٣

(٧) البلاذري ص ٢٦٩ ، الماوردي ص ١٣٢

(٨) ج ٢ ص ١٩٨١ ، ج ١ ص ١٣٧٤

عشرة دراهم على جريب الكرم

" " " النخل – الصولي يقول خمسة دراهم ص ٢١٨ .

ستة دراهم " " القصب

اربعة دراهم " " القمح

درهمين " " الشعير (البلاذري ص ٢٦٦)

وروى ان مقداره كان :

عشرة دراهم على جريب الكرم .

ستة " " " الرطبه (الخضار

خمسة " " " السمسم

ثلاثة " " " الخضر من غلة الصيف

خمسة " " " القطن .[1]

وهناك رواية اخرى ان المغيرة بن شعبة اخذ من ارض السواد : ثمانية دراهم عن العامر والكروم والرطبة والسمسم وغيرها .[2]

ويذكر احد الرواة ان عمر بن الخطاب وضع على :

جريب الكرم عشرة دراهم

" الرطبه " "

" القطن خمسة دراهم

" النخل درهما ...[3] وهناك روايات اخرى.[4]

وروى عن الشعبي ان عثمان بن حنيف مسح السواد فبلغ ستة وثلاثين الف الف جريب فوضع على كل جريب درهما وقفيزا ولم يذكر غير ذلك[5] وقيل انه الغى الكرم والنخل والرطاب والى هذا ذهب اكثر الفقهاء .[6] وهناك عدد من الروايات تذكر قيما مختلفة للخراج .ومن هنا نلاحظ ان الضريبة لم تكن مستقرة دوما وكانت تتبع احتمال الارض واختلاف آراء العمال انفسهم .

---

(١) البلاذري ص ٢٦٩ . الصولي ص: ٢١٨ (٢) البلاذري ص ٢٧٠ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٢٧٠ (٤) ابو يوسف ص : ٤٣

(٥) المصدر نفسه ص : ٤٢ (٦) المصدر نفسه ص ٤٥ ، الصولي : ص ٢١٨

اما في الشام والجزيرة فروى ان الضحاك بن عبد الرحمن الفهرى - في زمن عبد الملك بن مروان - "حسن الاموال على قدر قربها وبعدها . فجعل على كل مائة جريب فرع مما قرب دينارا ، وعلى كل مائتي جريب مما بعد دينارا ، وعلى كل الف اصل كرم مما قرب دينارا ، وعلى كل الفي اصل مما بعد دينارا ، وعلى الزيتون ،على كل مائة شجرة مما قرب دينارا ، وعلى كل مائتي شجرة مما بعد دينارا . وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم واليومين واكثر من ذلك . وما دون اليوم فهو في القرب . وحملت الشام على مثل ذلك ، وحملت الموصل على مثل ذلك ."(١)

ولما دخل الفاطميون مصر جباها القائد جوهر (سنة ٣٥١ هـ)عن كل فدان سبعة دنانير . وقد كانوا فيما سلف يؤدون عن الفدان ثلاثة دنانير ونصفا .(٢) وكان يؤخذ في العهد الفاطمي كذلك عن فدان الحبوب ثلاثة ارداب . فلما مسحت البلاد المصرية في سنة ٥٧٢ هـ . تقرر على كل فدان اردبان ونصف ، ثم صار اردبان .(٣)

ويذكر القلقشندى عن ابن مماتي صاحب "قوانين الدول": انه كان على كل صنف من اصناف المزروعات قطيعة مقررة في الديوان السلطاني لا يختلف امرها : وكانت قطيعة القمح الى آخر سنة ٥٦٧ هـ عن كل فدان ثلاثة ارداب ثم انه تقرر عند المساحة في سنة ٥٧٢ هـ اردبان ونصف وهكذا كانت قطيعة باقي الاصناف من الحبوب والخضار تتراوح بين ثلاثة ارداب واردبين ونصف . وكثيرا ما كانت القطيعة او الخراج مالا يدفعه صاحب الارض . وقد تقرر اخذ على كل فدان ثلاثة دنانير الى ما دونها حتى دينار واحد .(٤)

ويذكر المقريزى كيفية تقدير الخراج في ارض مصر والعادة المتبعة منذ زمن عمرو بن العاص . يقول : كانت الجباية بالتعديل : "اذا عمرت القرية وكثر اهلها زيد عليهم وان قل اهلها وخربت نقصوا . فيجتمع عرافو كل قرية وامراؤها ورؤساء اهلها فيتناظرون في العمارة والخراب حتى اذا اقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور . ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع . ثم تجتمع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الارض العامرة . فيبتدئون ويخرجون من الارض فدادين لكنائسهم

---

(١) ابو يوسف ص: ٤٩ (٢) ابن حوقل ج ١ ص: ١٦٣ .

(٣) المقريزى ج ١ ص ١٠١

(٤) صبح الاعشى ج ٣ ، ص ٤٥٣ .

وحماياتهم ومعدياتهم من جملة الارض • ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان • فاذا فرغوا تفرقوا لما في كل قرية من الصناع والاجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم • فان كانت بيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها • وقلما كانت تكون الا للرجل الشاب او المتزوج – ثم يقسمون ما بقي من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الارض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم ، فان عجز احد منهم وشكى ضعفا عن زرع ارضه وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال • وان كان منهم من يريد الزيادة اعطي ما عجز عنه اهل الضعف ، فان تشاحوا قسموا ذلك على عدتهم " (١) ولا حاجة لذكر الطريقة المتبعة في استيفاء الخراج في العهد الفاطمي والتي سنذكرها في باب النصارى في خدمة الدولة • ويقول الماوردي : اذا كانت ارض الخراج لا يمكن زرعها في كل عام حتى تراح في عام وتزرع في عام روعي حالها في ابتداء وضع الخراج عليها • (٢)

<u>الجزيـــــة : مقـــدارها :-</u>

اكثر الاخبار التي وردتنا عن تحديد الجزية وتقدير كميتها صادرة عن الائمة والفقهاء • ويكاد يتفق اكثرهم على تصنيف اهل الذمة الى ثلاثة اصناف • : اغنياء واوساط وفقراء • الا انهم اختلفوا في قدر الجزية على كل منهم • فبحسب ابو حنيفة يؤخذ من الاغنياء ثمانية واربعون درهما او اربعة دنانير ، واوساط يؤخذ منهم اربعة وعشرون درهما او دينارا ، وفقراء ويؤخذ منهم اثنا عشر درهما او دينار واحد • ولا تجب الجزية عليهم الا في السنة الا مرة واحدة • اما احمد بن حنبل فيقول ان الجزية ليست مقدرة وانها موكولة الى راي الامام • وفي رواية له وافق بها ابو حنيفة • ويروى عنه ايضا انه قال بتحديد الاقل ولم يحدد الاكثر • والمشهور عن مالك انه جعلها مقدرة على الغني والفقير جميعا اربعة دنانير او اربعون درهما لا فرق بينهما • (+) وقال الشافعي هي دينار يستوى فيها الغني والفقير والمتوسط • وهذه الاختلافات تعكس لنا وجهة النظر المحلية لكل امام • يقول الشعراني : "ووجوه الاقوال كلها ظاهرة لرجوعها الى اجتهاد

---

(١) المقريزي ج ١ ، ص ٧٧ •

(٢) الاحكام السلطانية ص: ١٣٥ •

(+) <u>ملاحظة :</u> اختلف في قيمة الدينار فمنهم من جعلها ١٢ درهما ومنهم من جعلها ١٠ دراهم •

الائمة بالنصر لاهل بلادهم ٠ واتفق الائمة الثلاثة ان الفقير الذى لا شيء عنده لا تؤخذ منه جزية مع قول الشافعي بوجوبها عليه ٠ [١] ومما ورد عن الجزية قبل العصر العباسي ما ذكره ابو يوسف من ان عياض بن غنم الفهرى لما فتح الجزيرة وضع على كل جمجمة دينارا ومدين قمحا وقسطين زيتا وقسطين خلا ٠ وجعلهم جميعهم طبقة واحدة ٠ ويقول ابو يوسف هذا الخبر لم يؤيد برواية ثابتة عن نفسه ٠ ولما ولي عبدالملك بن مروان بعث الضحاك بن عبدالرحمن الاشعرى الى الشام والجزيرة فاستقل ما يؤخذ منهم فاحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالا بايديهم وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وادمه وكسوته وحذائه ، وطرح ايام الاعياد في السنة كلها ٠ فوجد الذى يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد اربعة دنانير فالزمهم ذلك جميعا وجعلهم طبقة واحدة ٠ [٢]

واختلف الفقهاء كذلك حول من تجب عليه الجزية ٠ يقول ابو يوسف : ان الجزيـــة واجبة على الرجال فقط دون النساء والصبيان ٠ ولا تؤخذ الجزية من المسكين الذى تصدق عليه ، ولا من اعمى لا حرفة له ولا عمل ، ولا من مقعد ٠ وتؤخذ من رهبان الديارات واهـــل الصوامع اذا كان لهم يسار ٠ واذا لم يكن لهم اعفوا منها ٠ [٣] وقال الحسن البصرى : لا يلزم الرهبان اصحاب الصوامع جزية لفقرهم وتخليهم عن الدنيا ٠ [٤] وكان اهل الذمة كما يقول ابن عبدالحكم يتحملون جزية من ترهب منهم ٠ [٥] ويذكر احد المؤرخين السريان ان شياد وسيوس الذى كان يتولى مركزا اداريا عاليا في الاسكندرية كان يعادى البطريرك القبطي اغاثو واضطره مرة ان يدفع ٣٦ دينارا جزية عن بعض اتباعه ٠ [٦] وقد رأينا عبدالعزيز بن مروان والي مصر في العهد الاموى يامر باحصاء الرهبان ويأخذ الجزية منهم عن كل راهب دينارا ٠ وهي اول جزية اخذت من الرهبان واقتدى به اسامة بن زيد التنوخي ٠ [٧] واراد علي بن عيسى بن الجراح والي مصر في العهد العباسي (سنه ٣١٣ هـ) ان يأخذ الجزية من الاساقفـــة والرهبان وضعفاء النصارى ~~ومن يجبرون~~ فادوها ٠ ومضى طائفة منهم الى بغداد واستغاثوا بالخليفة المقتدر ٠ فكتب الى مصر بان لا يؤخذ من الاساقفة والرهبان والضعفاء جزية وان يجروا على العهد الذى بأيديهم ٠ [٨]

---

(١) الميزان ج ٢ ص ١٧٢ ـ ١٧٣ ، الماوردى ص/ ١٢٨ و ١٣٠ ابو يوسف ص/ ١٤٦

(٢) الخراج ص: ٤١ (٣) المصدر نفسه ص: ١٤٦ ، الميزان ج ٢ ص: ١٧٢ ، الماوردى ص ١٢٨

(٤) الصولي ص: ٢١٦ (٥) فتوح مصر ص ١٥٦ (٦) S.113 عن Tritton p.217

(٧) المقريزى ج ٢ ص: ٤٩٢ ، المكين ص ٦٨ ، (٨) المقريزى ج ٢ ، ص ٤٩٥ ٠

ولما فتح صلاح الدين بيت المقدس (سنه ٥٨٣) طلب النصارى من اهل القدس الذين ليسوا من الفرنج ان يمكنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فاجابهم الى ذلك .(١)

وقد عرفت الجزية باسم آخر هو الجوالي . ورد في كتاب الخراج لابي يوسف ذكر لها . وقد عدت من انواع الجبايات كالخراج والعشور والصدقات . (٢) وجاء في محيط المحيط : "الجالية اهل الذمة . قيل لهم ذلك لان الامام عمر اجلاهم عن جزيرة العرب . ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من اهل الذمة والمجوس وان لم يجلوا عن اوطانهم . ويقال استعمل فلان على الجالية اذا ولي اخذ الجزية منهم ... والعامة تطلق الجالية على نفس الجزية ، وجمعها جوال " (٣) ويقول القلقشندى ان الجوالي : هي ما يؤخذ من اهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة . (٤) ويذكر ابن قتيبه ان ابا العاج كان على جوالي البصرة فاتى برجل من النصارى "فقال ما اسمك ؟ فقال : بنداذ شهر بنداذ . فقال اسم ثلاثة وجزية واحد : لا والله العظيم . قال : فاخذ منه ثلاث جزى " (٥)

وقد بلغت الجوالي ببغداد في منتصف القرن الثالث الهجرى مائة الف وثلاثين الف درهم ثم ارتفعت الى ٢٠٠ الف درهم . (٦) اما في مصر فيذكر المقريزى انها بلغت في سنة ٥٨٥ هـ ١٣٠ الف دينار . (٧)

وقد استنبط بعض الفقهاء والعلماء الشروط التي يجب ان يتقيد بها الامام او الحاكم عند عقد الجزية مع اهل الذمة : قال الماوردى : يشترط في عقد الجزية شرطان ، مستحق ومستحب . اما المستحق فستة شروط :

١) ان لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له .

٢)ان لا يذكروا رسول الله (صلعم) بتكذيب له ولا ازدراء .

٣)ان لا يذكروا دين الاسلام بذم له ولا قدح فيه .

٤)ان لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح .

---

(١) ابن الاثير ج ١١ ، ص ٣٦٦

(٢) الخراج ص ٥٨ .

(٣) البستاني ج ١ ص ٢٧٨ .

(٤) صبح الاعشى ج ٣ ، ص ٤٦٢ .

(٥) عيون الاخبار ج ١ ص ٧٧

(٦) ابن خرداذبه ص ١٢٥ ، ٢٥١ .

(٧) خطط ج ١ ، ص ١٠٧ .

٥) ان لا يفتنوا مسلما عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دينه ٠

٦) ان لا يعينوا اهل الحرب ولا يودوا اغنياءهم ٠

فهذه الستة شروط تشترط عليهم اشعارا لهم وتأكيدا لتغليظ العهد عليهم ويكون ارتباطها بعد الشرط نقضا لعهدهم ٠ واما المستحب فستة اشياء :

١) تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار ٠

٢) ان لا يعلوا على المسلمين في الابنية ويكونوا ان لم ينقصوا مساوين لهم ٠

٣) ان لا يسمعوهم اصوات نواقيسهم ولا تلاوة كتبهم ولا قولهم في عزير والمسيح ٠

٤) ان لا يجاهروهم بشرب خمورهم ولا باظهار صلبانهم وخنازيرهم ٠

٥) ان يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة ٠

٦) ان يمنعوا من ركوب الخيل عتاقا وهجانا ، ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير ٠

فهذه الستة المستحبة لا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضا لعهدهم لكن يؤخذون بها اجبارا ويؤدبون عليها زجرا ، ولا يؤدبون ان لم يشترط ذلك عليهم ٠ [1]

واذا امتنع احد الذمة من اداء الجزية كان نقضا لعهدهم ٠ قال ابو حنيفة : وينتقض به عهدهم الا ان يلحقوا بدار الحرب ويؤخذ منهم جبرا كالديون ٠ "واذا نقض اهل الذمة عهدهم لم يستبح بذلك قتلهم ولا غنم اموالهم ولا سبي ذراريهم ما لم يقاتلوا ٠ ووجب اخراجهم من بلاد المسلمين آمنين حتى يلحقوا مأمنهم من ادنى بلاد الشرك ، فان لم يخرجوا طوعا اخرجوا كرها ٠" [2]

على ان هذه الشروط هي كغيرها من الاحكام النظرية الاخرى لم توضع قيد التنفيذ الا في بعض الاحوال والظروف المعينة القصيرة ٠

العشـــــور على التجارة – المكس: –

ومما يدخل في بحث الضرائب بعض الرسوم التي وضعها العرب على تجارة اهل الذمة ٠ يقال ان عمر بن الخطاب هو اول من فرض هذه الرسوم ٠ فيؤخذ عن تجارة المسلم ربع العشر او ٢،٥ بالمائة ، ومن اهل الذمة نصف العشر او ٥ بالمائة ، ومن اهل الحرب

---

(١) الاحكام السلطانية ص : ١٢٩

(٢) المصدر نفسه ص : ١٣٠ ٠

-الغرباء- العشر او ١٠ بالمائة . ويستوفى هذه العشور عن سنة واحدة فقط . (١) وكان الخليفة عمر بن الخطاب يأخذ من النبط النصارى من الحنطة والزيت نصف العشر يريد بذلك ان يكثر الحمل الى المدينة . وروى احدهم انه كان ياخذ من النبط العشر . (٢)

يقول مالك : "ما أنام الذمة في بلادهم التي صالحوا عليها فليس عليهم فيها الا الجزية الا ان يتجروا في بلاد المسلمين ويختلفوا فيها فيؤخذ منهم العشر فيما يديرون من التجارة . وان اختلفوا في العام الواحد مرارا الى بلاد المسلمين فعليهم كلما اختلفوا العشر ، واذا اتجر الذمي في بلاده من اعلاها الى اسفلها ولم يخرج منها الى غيرها فليس عليه شيء مثل ان يتجر الذمي الشامي في جميع بلاد الشام ، او الذمي المصرى في جميع مصر ، او الذمي العراقي في جميع العراق ." (٣) وكلام مالك يخالف قول ابي يوسف واصحاب المذهب الحنفي واصحاب المذهب الشافعي الذين يجعلون مدة العشر سنة ، فلا يأخذون من الذمي عشرا ما على تجارته الا بعد انقضائها .

واذا بلغت قيمة التجارة عشرة دنانير لا يؤخذ منها عشرا . ذكر ان عمر بن عبد العزيز كتب الى صاحب مكس مصر ان يأخذ من تجارة المسلمين من كل اربعين دينارا دينارا ، وما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين دينارا ، وان نقصت لا يؤخذ منها شيء . وان يستوفى من تجارة الذمي من كل عشرين دينارا دينارا او خمسة بالمائة ، فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ، وان يكتب لهم كتابا بما يؤخذ منهم الى مثلها من العام القادم . (٤) .

ويظهر ان كلمة المكس كانت تطلق على العشور . فيقال للعشار الماكس ، واصل المكس في اللغة الجباية . (٥) وكان اهل الورع والتقوى من السلف يكرهون هذا العمل وكثيرا ما انفوا من قبول هذه الوظيفة . (٦) ويذكر السيوطي ان عمرو بن العاص دعا خالد بن ثابت اللفهمي ليجعله على المكس فاستعفاه فقال عمرو مما تكره منه ؟ فقال : ان كعبا قال لا تقرب المكس فان صاحبه في النار . (٧) ولا اظن هذا القول صحيحا ، فلو كان صاحب المكس في النار لابطله

---

(١) الخراج ص ١٠٨ ، (٢) الام ج ٤ ص ١٢٥ ، الاموال ص ٥٣٣ المقريزى ج ٢ ص ١٢١

(٣) المقريزى ج ٢ ، ص ١٢١ ، (٤) الخراج ص ١٦٣ .

(٥) المقريزى ج ٢ ، ص ١٢١ ، محيط المحيط ج ٢ ص ١٩٩٦

(٦) المقريزى ج ٢ ، ص ١٢٢ (٧) حسن المحاضرة ج ١ ص ٧٤ ، المقريزى ج ٢ ص ١٢٣

الخلفاء الراشدون . ولكن قيل ان عمر بن عبد العزيز نهى عن اخذ المكس وكتب الى عماله ان ضعوا عن الناس هذه المكوس ، فليس بالمكس ولكنه النجس [١] وقد لوحظ استيفاء هذه الرسوم في العصور المتأخرة الاخرى . [٢]

وكان الخليفة المنصور (سنة ١٦٧ هـ) اول من قرر الضريبة على الاسواق . وفي نفس السنة وضع صاحب خراج مصر خراجا على الاسواق وعلى الدواب . [٣] وامر المتوكل سنة ٢٢٥ هـ باخذ العشر من منازل النصارى . [٤] وفي سنة ٣٨٩ هـ فرضت ضريبة على بعض انواع الثياب المصنوعة في بغداد ، وقد احتج الناس على ذلك فابطلت [٥]

ولوحظ كذلك ان الضرائب في ابتداء القرن الخامس الهجري كانت فادحة في مصر خاصة . يذكر المقدسي انها كانت "ثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ، واما ثياب الشطوية فلا يمكن القبطي ان ينسج شيئا منها الا بعد ما يختم عليها بختم السلطان ، ولا ان تباع الا على يد سماسرة قد عقدت عليهم . وصاحب السلطان يثبت ما يباع في جريدته . ثم تحمل الى من يطويها ثم الى من يشدها بالقشر ، ثم الى من يشدها في السفط ، والى من يحزمها . وكل واحد منهم له رسم يأخذه . ثم على باب الفرضة يؤخذ ايضا شيء ، وكل واحد يكتب على السفط علامته . ثم تفتش المراكب عند اقلاعها . ويؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار ومثل هذا واشباهه . ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال . رايت بساحل تنيس ضرائبيا جالسا فهل نبالة هذا الموضع في كل يوم الف دينار ومثله عدة على ساحل البحر بالصعيد وساحل الاسكندرية . وبالاسكندرية ايضا على مراكب الغرب وبالفرما على مراكب الشام . ويؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم " [٦]

وربما تحمل النصارى ضريبة اخرى في ابتداء الفتح العربي اعني بها ضريبة الضيافة التي اقتضتها ظروف الحرب وتغرب العرب الفاتحين عن بلادهم . وقد زالت هذه الضريبة في العصور المتأخرة بعد ان استقر العرب في البلاد واستوطنوها ولم تعد الحاجة تقتضيها . [٧]

اضف الى كل هذا الضرائب الدورية او المصادرات التي كان يفرضها بعض الخلفاء

---

(١) المقريزي ج ١ ، ص ١٠٣ ، الاموال ص ٥٢٧ .

(٢) " " ٢ ، ص ١٢٢ ، (٣) الكندي ص ١٢٥ ، المقريزي ج ١ ص ١٠٣

(٤) الطبري : الجملة الثالثة ص ١٣٩٠ (٥) مسكويه ج ٢ ، ص ٣٣٦ عن تريتون ص ٢٢١ . ١٥٢

(٦) احسن التقاسيم ص ٢١٣ (٧) البلاذري ص ٦٣ ، الاموال ص ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، المقريزي ج ١ ص ٧٧ .

والولاة على النصارى في احوال شاذة لا تلبث ان تزول كما فعل ابو الفضل الوزير الذى صادر الرعية والتجار وابتدأ باهل الذمة لسد حاجات الجند والاقامات التي تلزمه للاتباع والحاشية في سنة ٣٦١ هـ[١] وفي زمن الحاكم بامر الله قبض على جميع ما هو محبس على الكنائس والديارات وادخله في الديوان وكتب الى اعماله كلها بذلك .[٢] ناهيك عما فعله احمد ابن طولون ببطريرك اليعاقبة ميخائيل لما حمله عشرين الف دينار[٣] وقد ذكرنا في السابق قسما من اعماله وما قام به من المصادرات . وفي سنة ٦٥٨ هـ . لما دخل السلطان الملك الظافر قطز الى دمشق قرر على النصارى بها مائة الف وخمسين الف درهم جمعوها من بينهم وحملوها اليه .[٤]

وقد يكون من الفائدة بعد ان عرضنا لبحث الجزية والخراج والضرائب الاخرى ان نذكر مقدار ما كان يجبى من اهل الذمة عامة من الاموال في بعض العصور الاسلامية وكان علينا ان نحصي فقط الضرائب التي كان يدفعها النصارى . الا ان هذا الامر جد عسير نظرا لعدم معرفة عدد النصارى اولا في العصر العباسي وثانيا لان الضرائب كانت خاضعة للزيادة والنقصان في احوال كثيرة ، واخيرا لان الكثيرين منهم كانوا يعتنقون الاسلام على مجرى العصور .

ويجب ان نلاحظ ان الارقام التي سنوردها والتي ذكرها بعض المؤرخين عن مقدار مجموع الضرائب التي كان يدفعها اهل الذمة هي قليلة جدا ومبهمة الى حد كبير ، وربما كان بعضها مبالغ به . ومما يجب ان ننبه اليه ايضا ان اختلاط الضرائب التي كان يقدمها اهل الذمة وغيرهم الى الدولة في بعض الاصقاع الاسلامية جعلت استخراج ما يدفعه النصارى او اهل الذمة من المجموع العام صعبا جدا . اما في مصر فقد خص المؤرخون الضرائب التي كان يدفعها اهل الذمة في فترات معينة من التاريخ العربي .

---

(١) مسكويه ج ٢ ، ص ٣٠٨

(٢) المقريزى ج ٢ ، ص ٤٩٥

(٣) المكين ص ١٧٦ ، المقريزى ج ٢ ، ص : ٤٩٤ .

(٤) المقريزى ج ٢ ، ص : ٤٩٧ .

الضـــرائب في مصر (١)

الحاكم او صاحب الخراج	الخليفة	السـنة		مقدار الخراج بالدينـــار
عمرو بن العاص	عمر بن الخطاب	١٩-٢٥		٢ ٠٠٠ ٠٠٠
			وقيل	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠
عبد الله بن سعد ابن ابي سرح ،	عثمان بن عفان	٢٦-٥٣		٤ ٠٠٠ ٠٠٠
			"	١٤ ٠٠٠ ٠٠٠
اسامة بن يزيد	سليمان بن عبد الملك	-	"	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠
عبيد الله بن الحبحاب	هشام بن عبد الملك	١٠٧		٤ ٠٠٠ ٠٠٠
(ابن خردازبه يذكر هذا الرقم . ويقول المقريزي ان هذا			"	٢ ٧٢٣ ٨٣٧
(وهم لانه هذا المال حمل الى بيت مال دمشق بعد اعطية اهل مصر)				....
موسى بن عيسى	....	......		٢ ١٨٠ ٠٠٠
....	المامون	٢٠٠ هـ		٤ ٢٥٧ ٠٠٠ (دينارين على (الفدان)

٢٥٤ هـ - نقصت الضريبة الى ٠٠٠ ٨٠٠ ١ ، ولكن احمد بن طولون جعلها ٠٠٠ ٣٠٠ ٤

٠٠٠٠ - محمد بن طغج الاخشيد	٢ ٠٠٠ ٠٠٠
٣٥٨ هـ - جوهر الصقلي - خلافة المعز -	٣ ٤٠٠ ٠٠٠
- وزارة اليازوري - المستنصر بالله بن الظاهر	٢ ٠٠٠ ٠٠٠ مليون من الشام
٤٦٣ هـ - -	٢ ٨٠٠ ٠٠٠
٥٨٥ صلاح الدين الايوبي	٤ ٦٥٣ ٠١٩

فهذه الارقام كافية لاتظهر ان الروايات التى تنسب ١٢ مليون دينارا الى عمر بن العاص او اسامة بن زيد و١٤ مليون دينارا المعزوة الى عبيد الله بن ابي سرح هى مبالغ بها حتما . وقد ازداد خراج مصر لان الفدان اصبح يستوفى منه سبعة دنانير لا دينارين فى السابق .

وكان خراج حمص كما يذكر ابن خرداذبه ٠٠٠ ٣٤٠ دينارا فى سنه من السنين ثم اصبح ٢١٨ الفا ، ثم ٠٠٠ ١١٨ دينارا . (٢)

---

(١) المقريزي ج ١ ص ٧٩ ، ٩٨ - ١٠٠ ، خردادبه ص ٨٣ ، ٨٤ ، ابن حوقل ج ١ ص ١٦٣

(٢) المسالك والممالك ص ٧٦ ، ٢٦٤ ، ٢٥١

الظاهر ان العرب لم يثقلوا كاهل النصارى واهل الذمة بالضرائب بعد ان استتب الامن واستقر الحال كما يتوقع ان يكون . والتاريخ يحدثنا ان الضرائب كانت تخفف عليهم في كثير من الاحيان رغم قلتها او يعفوا منها على الاخص في الايام المتاخرة . قيل ان رجلا اتى الى عمرو بن العاص من نبط مصر فقال : ارايت ان دللتك على مكان تجرى فيه السفن حتى تنتهي الى مكة والمدينة اتضع عني الجزية وعن اهل بيتي ؟ قال نعم ! فدله ففعل [(١)] . ويقول القاضي ابو يوسف للخليفة هارون الرشيد : "وقد ينبغي يا امير المؤمنين ايدك الله ان تتقدم في الرفق باهل ذمة نبيك وابن عمك محمد (صلعم) والتفقد لهم حتى لايظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولايؤخذ شيء من اموالهم الا بحق يجب عليهم ." [(٢)] ويقترح ابو يوسف ان يكون مستوفي الجزية من اهل الصلاح والتقوى في كل مصر من الامصار يصير معه اعوانا يجمعون اليه اهل الاديان من اليهود والنصارى [(٣)] .

ويحدثنا احد المؤرخين السريان ان المامون امر بتخفيف الضرائب عن نصارى الرها والغاء بعضها . دخل المامون مرة كنيسة الرها فاخذه العجب من جمالها وروعتها . فسال الاسقف عن دخلها قال : ان ثروتها عظيمة بفضلك ونعمتك يا امير المؤمنين ولكن اكثر دخلها يقدم ضريبة عنها . فامر المامون حينئذ ان لاتوضع ضريبة على الخانات او الاسواق او الحمامات او الطواحين التي تخص الكنيسة . ويستثنى من ذلك البساتين والاراضي الزراعية .[(٤)] وبصدد ذلك يقول بعض الائمة ان الذمي اذا بنى بناء من حوانيت او غيرها في ارض الخراج لا ضريبة عليها ، فان جعلها بستانا الزم الخراج [(٥)] .

وبالمناسبة نذكر ان الدولة البزنطيه فرضت الضرائب الكثيرة على الاراضي والمزارع واستوفت ضريبة عن الاشخاص . وكان موظفوها وحكامها يحصون الناس في روحاتهم وغدواتهم [(٦)]

---

١) ابن عبد الحكم ص ١٦٦

٢) الخراج ص ١٤٦

٣) المصدر نفسه ص ١٤٧

٤) S.A.II,23 عن Tritton p. 226

٥) البلاذري ص ٤٤٨

٦) Tritton p. 222

وفي النتيجة - كما نبهنا من قبل - ان العهود الاولى التي فرضت بموجبها الجزية او الخراج على اهل البلاد المفتوحة قد تنوسيت تماما ، وربما كانت جميع الروايات التي نقلها الينا المؤرخون كانوا وضعوها على ضوء الاحكام المتأخرة دون ان يعرفوا اصولها الاولى على الضبط . واكبر دليل على ذلك ما شاهدناه من الخلط بين الجزية والخراج في الايام الاولى الاسلامية وعدم التمييز بينهما بعكس الاحكام المتأخرة التي تميز بينهما .

اضف الى هذا ان العهود العمرية لم تكن متجانسة وانما كانت تختلف من مدينــــة الى اخرى . واما ما يدعيه المؤرخون في تفسيرهم قلة الضرائب هنا وكثرتها هناك بحسب دخول المسلمين الى بلد ما عنوة او صلحا - . بمعنى ان الصلح يقتضي ضريبة سهلة بعكس دخول البلد عنوة والذى يستوجب دفع ضريبة فادحة ، فاكثر الظن انه من اختراع المشرعين والرواة المتأخرين .

ومما لا مشاحة فيه ان أهل الذمة قد تحملوا ثقل الضرائب باجمعها في ابتداء الفتح العربي . ولكن من الواضح انها خففت عنهم بالتدريج وصار المسلمون انفسهم يشاطرونهم وضع خراج الارض وما كانوا يؤدونه من الزكاة والصدقات بحيث اصبح المسلمون واهل الذمة متساوين تقريبا في تحمل باقي الضرائب الاخرى .[(١)]

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. .

.

---

(١) Tritton p. 223

الباب الثالث

الدولة والكنيسة

البـــاب الثالث

الدولـة والكنيســـة

وجد العرب في فتحهم بلاد السواد والشام ومصر طوائف نصرانية متعددة على مذاهب مختلفة كالنساطرة واليعاقبة والملكية . وكان كل مذهب يعاكس المذهب الاخر ويضاده ، والقسوس والرهبان في خصام دائم حول المسائل اللاهوتية الغامضة وما يتعلق منها بطبيعـــة المسيح . ولم تتورع اية فرقة ان تكيد للفرقة الاخرى وتضطهدها وتضمر لها البغض والحقد . وما ان استتبت سلطة الاسلام حتى اوقفت هذه المنازعات الظاهرة . لكن المسلمين لم يناهضوا فرقة على اخرى او يدعموا مذهبا دون آخر وانما تركوا لكل وما يعتقد وشملوا الجميع بسياسة ورعاية واحدة اغلب الاحيان . بل ذهبوا الى ابعد من هذا بكثير اذ انهم اعتبروا الكنيسة الشرقية دولة ضمن دولة وسمحوا لها ان تحتفظ بقضائها الديني وحقوقها الكنسية . ويمكننا ان نقول بصورة عامة ان حقوق الكنيسة في ممارسة مهامها الخاصة كانت محترمة الى حد كبير . فكل المسائل التي تتعلق بالزواج والميراث كانت من خصائص الكنيسة وحدها ، وكان يعتبر كل من رئيس اليهود الديني – الجالوت – والرئيس النصراني – البطريرك – شخصية سياسية كبيرة . وربما كان الخليفة يعترف بالبطريرك – الى حد ما – كرئيس للمؤسسة النصرانية بكاملها وليس كقيم على راس كنيسته ومذهبه فحسب . ففي ابتداء القرن العاشر الميلادي حصل البطريرك النسطوري من الخليفة على حق استثنائي يخوله الاقامة في بغداد في حين لا يسمح لمطران اليعاقبة او اسقف الملكيين ان يزورها الا في اوقات معينة .[1] وهناك نص يذكره احد المؤرخين انه في سنة ٥٣٣ هـ ١١٣٨ م جعل الخليفة البطريرك النسطوري جاثليقا لجميع نساطرة بغداد والاقطار الاسلامية الاخرى ورئيسا مقدما لجميع اليعاقبة والملكيين .[2]

على انه لا يمنع في بعض الاحيان ان تلاحظ الحكومة بعض اعمال البطاركة والرهبان وتعمل ما هو صالح بنظرها ، او أن تراقب الكنيسة كذلك وتشرف اسميا على انتخاب الجاثليق او

---

(١) راجع Becker p: 32. Shedd, P:111,114,115, Arnold,p: 70
I. Britannica, Vol. VI Articlo : Christianity p: 287

(٢) راجع : Tritton, p: 86-87 عن Bulletin of the John Rylands Librairy, 1920;

البطريرك تاركة حق انتخابه الى النصارى والرهبان شرط ان يصدق الخليفة على انتخابه اسميا .
ويقول ابن العبري انه لم تعين قاعدة مقررة للحصول على موافقة الخليفة على انتخاب البطريرك الا في سنة ٣٧٧ هـ . وهذا لا يعني ان هذه القاعدة لم تكن معروفة من قبل وانما كانت تجرى بصورة غير رسمية في الغالب .(١)

اما رؤساء الكنيسة فكانوا شبه موظفين سياسيين يمارسون الى حد ما سلطة عملية وليست روحية فحسب ، وتتوقف على اعتراف الدولة الاسلامية بها ليستطيعوا التصرف في كل ما يتعلق بوظيفتهم من الاعمال . ولكن كون الخليفة هو المرجع الاعلى فيما يتعلق بانتخاب البطرك على الاخص سبب ضررا اذ برزت الرشوة بشكل مخيف وصار كل حزب من النصارى يبذل الاموال الطائلة للخليفة حتى يدعم مرشحه ويصادق على انتخابه . ولقد لعب الاطباء النصارى والكتاب منهم في البلاط دورا فعالا . وربما كانت اكثر الاحتكاكات والمؤامرات تنشأ عنهم كما سنرى في بعض الحوادث ، والتواريخ السريانية خاصة طافحة بأخبار تلك الاحتكاكات .(٢)

على ان البطاركة لم يسلموا في بعض الاحيان من تصرفات الحكام وعسفهم ، والتاريخ يحدثنا عن كثير من الجثالقة والبطاركة صودرت اموالهم او نفوا او اضطهدوا او قتلوا لانهم لم ينزلوا عند ارادة الحكام ويعملوا بما تشاء به اهواؤهم .

ومما يجب ان نلاحظه ان الخليفة او الوالي كان يحل الخلافات التي تقوم بين الطوائف النصرانية او بين البطريرك وأهل ملته . وكثيرا ما عقدت المجالس في بيوتات الخلفاء والامراء للنظر في تلك القضايا وقبول الحلول التي يعرضونها .

لما توفي يوحنا بطريرك سمنود لم يوافق البطاركة على من عين سلفا له وانتخبوا احدهم دون انتظار اذن الوالي . فامر الوالي وهو عبدالعزيز بن مروان بجلبهم الى القاهرة وابطال الانتخاب وعين احد اعوانه المدعو اسحق بطركا عليهم (٣) .

ولما قضى اسحق نحبه أحضر يوحنا المنتخب القديم الى عبدالعزيز . وقد حصل

---

(١) Shedd, p: 116 عن Bar. H. EU. Chronicle III 255

(٢) Shedd, P: 139

(٣) Tritton p: 78 عن Severus p.120

كذلك بعض الاعتراف عليه واقترح ان يكون سيمون هو البطريرك . فاحضر سيمون الى عبدالعزيز نسأله : هل تعتقد ان يوحنا هذا يصلح لان يكون بطريركا ؟ فاجاب لا يوجد في مصر حتى ولا في الشرق من يصلح لهذه الوظيفة غيره . انه ابي الروحي الذى علمني ورباني منذ الصغر وهو شبيه بالملائكة . عند ذلك هتف جميع من حضر من المطارنة والكتاب النصارى : اطال الله عمر الوالي ، ليعطى الامر الى سيمون نفسه لانه يستحق ان يكون بطركا . ولما سمع عبدالعزيز قولهم لم يعارضهم فيما اقترحوه . (١)

وفي زمن عبدالملك بن مروان عندما توفي الجاثليق يوحنا منع الحجاج النصارى من انتخاب خلف له . ولم يزل هذا الامر نافذا حتى قضى الحجاج (٢) . وحدث عين الفعل في زمن الخليفة الوليد بن عبدالملك عند وفاة بطريرك انطاكية اذ منع انتخاب من يخلفه (٣)

ويظهر ان الامبراطور البزنطي كان يتدخل في بعض الاحيان في انتخاب بطريرك الملكية ويستعمل نفوذه الادبي . من هذا ما حدث سنة ١٠٧ هـ . فقد انتم الامبراطور لاون " قسيما " بطركا للملكية في الاسكندرية . فمضى هذا ومعه هدية الى هشام بن عبدالملك ، فكتب له برد كنائس الملكية اليهم ، واخذ من اليعاقبة كنيسة البشارة . وكان الملكية اقاموا سبعا وسبعين سنة بغير بطرك في مصر من عهد عمر بن الخطاب الى خلافة هشام لان اليعاقبة تغلبوا على جميع كنائس مصر (٤) . ولما طلب الى الحر بن يوسف احد الولاة في مصر ان يوافق على انتخاب احد البطاركة سألهم ان يعطوه مالا ، ولما لم ينفذوا مطلبه رفض التصديق على الانتخاب . ولكن حلفه حفص سمح لهم بذلك فانتخبوا ميخائيل احد رهبان وادى هبيب . (٥)

وما ان حل العصر العباسي حتى تجسم كل امر يتعلق بالكنيسة فالى جانب اضطهاد البطاركة والجثالقة والتدخل في انتخابهم نرى بعض الخلفاء يجعلون لبعضهم شأنا يذكر ويحيطونهم بشتى انواع الرعاية ويطلقون يدهم في جميع الامور التي تتعلق بسياسة اتباعهم ولا يعرضون ارادتهم على الرعية من النصارى في اختيار هذا او ذاك من الناس ليكون رئيسا دينيا عليهم .

---

(١) S. 133 Tritton p. 78

(٢) الياس النصيبي ص ١ عن تريتون ص ٧٨ Elias of Nisibis p.9

(٣) Severus p.140 عن Tritton p. 79

(٤) المقريزى ج ٢ ص ٤٩٣

(٥) S. P. 158 عن Tritton p. 80

على انه يجب ان نضيف الى كل ذلك الرشوة التي لعبت دورها كثيرا في استمالة الخلفاء والولاة وتأييدهم في قضية الانتخابات والاختلافات الدينية ، وربما اصبحت هذه الرشوة سنة متبعة يقدمها النصارى لولاة الامر كهدية في تلك المناسبات دون ان يطلبوها منهم ٠

امر الخليفة ابو العباس السفاح ان يكون اسحق الاسقف بطركا على انطاكيه والشرق لانه كان يتردد اليه ويخدمه قبل ان يتولى الخلافة وسند كل من يخالفه بالقتل ٠ فقتل بسببه مطرانين ٠ [١] وكان الخليفة المنصور يتدخل في بعض الاحيان في الامور الكنسية ويؤيد احكامه بالقوة ٠ وهذه الحكاية التي سنقدمها توضح مدى استبداد بعض الخلفاء في امورهم وتعلن شعور النصارى وموقفهم نحو بعضهم بعضا ٠ قيل ان المطران النسطوري سورين في زمن الخليفة المنصور توصل الى مركز البطاركة بحيله وبمساعدة رشوة الجند الذي عقده حسب اوامر الخليفة ٠ وسجن من جراء ذلك بطاركة الروم الملكيين واليعاقبة والنساطرة في بغداد [٢] ومن جملة الذين حاكوا الدسائس حول البطاركة الطبيب النصراني عيسى بن شهلا فقد "بسط يده على المطارنة والاساقفة يأخذ اموالهم لنفسه حتى انه كتب الى مطران نصيبين يلتمس منه من آلات البيعة اشياء جليلة المقدار ويتهدده متى اخرها عنه ٠ وكان في كتابه الى المطران : الست تعلم ان امر الملك بيدي ان شئت امرضته وان شئت عافيته ؟ فعندما وقف المطران على الكتاب احتال في التوصل حتى وافى الربيع (حاجب المنصور) وشرح له صورته واقرأه الكتاب فاوصله الربيع الى الخليفة حتى عرف شرح ما جرى ٠ فامر بنفي عيسى بن شهلا بعد ان اخذ منه جميع ما ملكه ٠" [٣]

ومما يدل على مراقبة الدولة لاعمال البطارقة والاساقفة وتدخل الخلفاء ما حدث كذلك في زمن المنصور ٠ فقد توصل احد رهبان دير بقرب الرها المدعو اسحق الى مصادقة اثناسيوس صندلانا Sandalana اسقف شمالي الجزيرة العراقية والتقرب من الخليفة المنصور ٠ فاقاما اثناسيوس مطرانا على حران بصورة غير مشروعة واجبر المنصور بدوره جميع المطارنة على انتخابه في سنة ١٣٩ هـ ٠ وحتى لا يعترض عليه احد من رجال الكنيسة او لا يقبله قبولا حسنا ، استحصل من الخليفة على اذن في الاقامة واتحف كذلك بثياب من بيت المال ٠ ولكن الحماية اخيرا رفعت عنه فقتل وطرحت جثته في نهر الفرات ٠ ومن ثم اقترح المنصور على المطارنة ان يختاروا

---

(١) المكين ص ٩٨ ٠

(٢) عن B.H.Ed.Chr:III,135 Shedd p.131

(٣) طبقات الاطباء ج ١ ص ١٢٥ ٠

اثناسيوس لمركز البطريركية وكتب له كتبا بالامانة وزوده بالجند لتثبيت مركزه وبعد سنتين توفي اثناسيوس فاختار مطارنة الجهة الغربية مطرانه الشمالي جورج وانتخب مطارنة شمالي الجزيرة يوحنا . ولما مات يوحنا وشى داود مطران دارا بالمطران جورج امام الخليفة متهما اياه انه قال في يوم من الايام انه سوف لا يجري اسم النبي محمد على لسانه مطلقا . وطامران هذا الاتهام كان سخيفا صحيحا ومع ذلك فقد وضع جورج في السجن مدة عشرة سنوات الى حين وفاة الخليفة المنصور. فانتخب داود بطريركا بمشيئة المنصور سنة ١٤٦ هـ . وقيل ان داود عندما زار كنيسته وجد المعبد ملآنا بالجند والفرسان لا بالقسس والرهبان وكل من لم يعترف ببطركيته سجن في حران (١)

وفي فترات كثيرة كان يرتفع شان بعض البطاركة عند الخلفاء وتصبح لهم كلمة نافذة في الدولة ولعل شخصية البطريرك نفسه كانت تجعل له هذا المقام وتحله محل حسنا عند الخلفاء . فالبطريرك طيموثاوس "Timothy" النسطوري كان من اعظم البطارنة النساطرة فقد اصطنع باعباء كنيسة تمتد كراسيها من سواحل البحر الابيض المتوسط حتى تخوم مملكة الصين . وكان قد بقي مدة خمسين سنة . وكان صاحبها موفقا لخمسة من كبار خلفاء العباسيين المهدي والهادي والرشيد والامين والمأمون . وقيل انه كان مدينا في انتخابه الى والي الموصل وكاتبه النصراني ابو نوح . والى اكياس الدراهم التي بذلت لائمة النساطرة . (٢)

والبراهين كثيرة جدا على مدى تأثير الرشوة وفعالية اغنياء ابلاد او سائر الفقهاء وتدخل القوى المسلحة في قضية انتخاب البطاركة او تنحيتهم .

ولما ارتفع شأن الوزراء وانحط مركز الخلفاء في الايام التي تلت وصار النساطرة يحيكون دسائسهم مع هؤلاء في حين ان بطريرك اليعاقبة كان منزويا في الاصقاع الغربية من المملكة معتمدا في رعايته على معروف السلالات الكثيرة التي كانت تنمو وتسقط من سلاجقة وايوبيين .وحتى الصليبيين انفسهم كانوا يرتشون . وما ذلك الا لان قسما من كنيسة اليعاقبة كان خاضعا للصليبيين والقسم الاخر منها للامراء المسلمين فيما بين النهرين .(٣)

وعدا عن كون الخليفة هو المرجع الاسمي الاعلى في اختيار البطاركة نراه في كثير من

---

(١) G.M. 236, 243, 47 عن Tritton p. 81

(٢) Thomas of Marga II, 383 عن Shedd p. 133

(٣) Shedd p. 133

الاحيان يتدخل في النزاع الداخلي الذى يحصل بين الروءساء الكنسيين واتباعهم ويكون حكمه نافذا ناطعا • من هذا ما حدثنا به ابن الراهب عن البطريرك يوساب : "هذا الاب كان قد قطع اسقف مصر واسقف تنيس لما اشتكى شعبهما منهما • فانذرهما فلم يرجعا • وكان قد عصى اهل البشمور على المملكة لعدلهم فلم يسمعوا فكوتب في امرهم عبد الله المامون فوصل من بغداد الى مصر بسببهم •••• وصحبته ديوناسيوس بطريرك انطاكيه فاجتمعا وارسلهما اليهم فلم يطيعوا فسار المامون بعساكره وقاتلهم واهلك جمعهم • ولما راى كثرة القتلى رحمهم واسر من اسر من النساء والرجال • وبعد ذلك مضى المقطوعون الى الملك وقالوا : البطريرك سوحمل هوءلاء القوم على الشقاق • واحضروه ليقتل • فلما علم قدبهم امرج عن البطريرك وكتب له سجلا باكرامه ومراعاته وان لايعارضه احد في حكمه ولا في من يوسمه ولا في من يقطعه" (١)

ومما يذكره ابن العبرى ان احكام المامون في حسم الخلاف الناشيء كانت في اغلب الاحيان مقبولة من النصارى باجمعهم موءيده منهم • فكثيرا ما كان النزاع بين اليهود حول رئيسهم الجالوت "يوءدى الى اصدار امر يبيح لكل عشرة اشخاص يهوداً كانوا او نصارى او مجوساً ان يختاروا رئيسا عليهم • وقد اراد بطريرك اليعاقبه ان يخضع مطران بغداد الى قوانينه ولكن هذا الاخير بمساعدة بعض اتباعه رفض التسليم والخضوع فعرضت القضية على الخليفه وحضر البطريرك بنفسه الى بغداد ليدعم حقه في ممارسة القوانين والانظمه الكنسية ويحتج على القرار السابق لانه يهدم سلطة الكنيسة .وبعد عدة مناقشات قبل الخليفة وجهة نظر البطريرك تجاه تلك القضية وصرح بان تراعى قوانينه وتطبق حسب مشيئته وامر بنقض القرار المذكور ."(٢)

والحوادث كثيرة على رقابة السلطة للروءساء الكنسيين وشدة اهتمام بعض الخلفاء والولاة بقضاياهم • فلما ولي عبد الله بن طاهر على الرقة من قبل الخليفه المامون حضر البطريرك ابراهام "Abiram" واتباعه اليه وطلبوا منه ان يزودهم بسلطة نافذة وتفويضا في امورهم الدينيه لما ان علم بطريرك انطاكيه ديوناسيوس بالامر حتى حضر بنفسه الى الرقه وفضح اعمال هوءلاء العصاة المنشقين امام الوالي والجمهور • فسال عبد الله عن قصتهم هذه فاخبره البطريرك عن جميع افعالهم ومعارضتهم لمن سلفه وانهم انما يطلبون هذا التفويض حتى يعيثوا في

---

١) ابن الراهب ص ١٢٩ الى ١٣٠

٢) B.H. Ec. Chro:III, 255 عن Shedd p. 117

الارض فسادا ويخلقون الشغب والاضطراب . فامر عبد الله ان يكف البطريرك ابراهام المجنون الدعي هو وحزبه عن الشغب والمعارضة ولما ساله عن مشروعية مركزه اجاب بانه هو البطريرك الحنيفي . فما كان من عبد الله الا ان امر احد حجابه ليذهب الى جماهير النصارى المحتشدة في الخارج ويسالهم عن بطركهم الحنيفي ورئيسهم الشرعي . فهتف الجميع بصوت واحد : "لا رئيس علينا الا البطريرك ديوناسيوس" . ولما سمع عبد الله ذلك وتذكر التنويه الذى اعطاه الخليفه المامون ووالده طاهر بن الحسين للبطريرك الانطاكي نظر شزرا الى ابراهام وقال له : قد تبين لي انك خائن دعي وهذا البطريرك هو الرئيس الفعلي . وفى الحال نزع طيلسان البطاركة عنه ووبخه وقال له : لااريد ان اسمع مرة ثانيه انك راجعت لبس الطيلسان او حملت بيدك عصى الرعوية . او ادعيت انك بطركا . واذا سمعت انك تتجول في البلاد اعدمتك فورا . عند ذاك اعاد عبد الله البطريرك ديوناسيوس الى انطاكيه مبجلا مكرما مشيعا بعطفه واحترامه الزائدين .

ولكن الحوادث نفسها تعود الى الظهور مرة ثانيه فيتوصل سيمون شقيق ابراهام الى تثبيت بطركيهُ اخيه بطريقة من الطرق ويحظيه الخليفه المامون تفويضا بهذا بذلك . ولما علم عبد الله ابن طاهر بالامر حنق على سيمون واخيه وكتب الى ديوناسيوس بانه لايتمكن من ابعاد ابراهام عن البطركيهَ وما عليه الا ان يحضر بنفسه الى بغداد ويستحصل على امر بابطال العهد من الخليفه نفسه . (١) .

وعلى الرغم من شدة وطاة المتوكل على النصارى لم نره يتدخل في سلطة البطاركة والجثالقة الدينية . يقول ابن العبرى كان الطيفورى النصراني الكاتب يحسد حنينا طبيب المتوكل ويعاديه "واجتمعا يوما في دار بعض النصارى ببغداد وهناك صورة المسيح والتلاميذ وقنديل يشتعل بين يدى الصورة . فقال حنين لصاحب البيت : لم تضيع الزيت فليس هذا المسيح ولا هؤلاء التلاميذ وانما هي صور . فقال الطيفورى : ان لم يستحقوا الاكرام فابصق عليهم فبصق فاشهد عليه الطيفورى ورفعه الى السوق . فساله اباحة الحكم عليه لديانة النصرانية . فبعث الى الجاثليق والاساقفة وسئلوا عن ذلك . فاوجبوا حرم حنين فحرم وقطع زناره . وانصرف حنين الى داره ومات من ليلته فجأة وقيل انه سقى نفسه سما " (٢) .

---

(١) S. A.II, 369 عن Tritton p. 84

(٢) تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٢ .

وفي ولاية احمد بن طولون على مصر قاسى بطريرك اليعاقبة ميخائيل (٢٦٣-٢٨٠ هـ) شدائد كثيرة والزمه ابن طولون بحمل عشرين الف دينار ، باع فيها رباع الكنائس بالاسكندرية وارض الحبش بمصر وباع الكنيسة المجاورة للمعلقة بقصر الشمع لليهود ، وقرر الديارية على كل نصراني قيراطا في السنة . فقام البطريرك بنصف المقرر عليه ومات ابن طولون قبل ان ياخذ النصف الباقي (١)

بقي الحكام والولاة يتدخلون في شؤون الكنيسة الداخلية في احيان كثيرة نظرا للشغب الذى يحصل من جراء النزاع بين البطاركة وطائفتهم . فبطرك الملكية على الاسكندرية سعيد بن البطريق ظل سبع سنين ونصف في شرور متصلة مع طائفته وشقاق كثير وادى ذلك الى ان سير محمد بن طغج صاحب مصر قائدا من قواده وضم اليه جماعة من الجند الى مدينة تنيس فختم على كنائسهم وما بها من الالات والصناعات وكانت كثيرة . فمضى اسقف تنيس الى جماعة الكتاب فتوسطوا الحال مع الاخشيد على خمسة الاف دينار ويعاد اليهم موجودهم ، فاجاب الى ذلك فباعوا من وقف الكنائس والعقارات التي للكنائس بقيمة المبلغ وحملوه اليه . فلما علموا ان شقاقهم اوجب هذا اصطلحوا واجتمعوا في كنيسة واحدة وصالح البطريرك سعيد بن البطريق طائفته (٢)

وقد لوحظ فيما بعد ان الكنائس كانت تملك ثروة عظيمة ويتيسر لنا ان على تضخم ثروتها من الاموال التي كان يقدمها تجار النصارى للخلفاء والولاة طمعا في الحصول على تأييدهم وشد ازرهم في تسنم مركز البطريركية . ففي سنة ٣٥٠ هـ . قيل ان الطبيب النسطوري فيثون قدم الى الوزير ثلاثماية الف درهم اذا ضمن له مقام البطريركية . لكن المطارنة لم يكونوا راغبين فيه واخيرا اختاروا احدهم بعد ان دفعوا مائة وثلاثين الف درهم . وحصلوا على هذا المبلغ من بيع آنية الكنيسة الفضية حتى لا يضيعوا الثروة التي خلفها البطريرك السابق والتي تبلغ سبعين الفا دينارا ذهبا وستماية الف درهما فضة . ويظهر ان الرشوة انضبت خزينة الكنائس . فلما اعتلى "مارى" سنة ٣٧٧ هـ مقام البطريركية لم يجد في الخزينة ما قيمته درهما واحدا . على ان اكثر البطاركة كما قيل خلفوا ثروة لا بأس بها . وبقيت عادة تقديم الرشوة متبعة حتى تبين سقوط بغداد وانقراض دولة بني العباس فهناك خمسة واربعين الف دينار من الذهب اعطيت للخليفة حينذاك (٣) .

---

(١) المكين ص١٧٦ ، ابن الراهب ص ١٣٢ ، المقريزي ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٢) المكين ص ٢٠٨، المقريزي ج ٢ ص٤٩٥ .

(٣) Von Kremer, Culturgeschichte II, 192,
Bar Hebraeus, ED, Chronicle III, 249, 425, 255
Hedd p.119-120

عـــن

وهناك روايات تظهر تحيز بعض الخلفاء لاحدى الطوائف دون الاخرى . ففي سنة ٣٧١ هـ . اخذت الملكية كنيسة السيدة من اليعاقبة . وسببه ان العزيز بالله الفاطمي صاحب مصر "تزوج امرأة نصرانية ملكية ورزق منها بنتا ، وكان للمرأة اخوان احدهما اسمه ارميس صيره بطركا على بيت المقدس والاخر ارسانيس صيره بطركا للملكية على القاهرة ومصر ، وكان لهما من العزيز جانب لانهما اخوالة ابنته . وتقدما في مملكته" فطلب ارسانيوس الكنيسة المذكورة من العزيز فامر ان تعطى له . (١)

ولا حاجة للتنبيه مرة اخرى لما فعله الحاكم بامر الله في البطاركة فقد "لاقى بطريرك اليعاقبة زخريا من البلايا والاضطهاد مدة سبع سنين اعتقل فيها ثلاثة اشهر ورمي في السجن (٢)

وكثيرا ما كان البطاركة واسطة بين الخلفاء وبين بعض ملوك النصرانية . ففي سنة ٤٨٢ هـ . لما نقص النيل بعث المستنصر بالله الفاطمي البطرك ميخائيل الحبيس الى بلاد الحبشة بهدية سنية فتلقاه ملكها وساله عن سبب قدومه . "فعرفه نقص النيل وضرر اهل مصر بسبب ذلك فامر ان يفتح سد يجرى منه الماء الى ارض مصر فقتح وزاد النيل واستمرت الزيادة حتى رويت البلاد وزرعت . ثم عاد البطرك فخلع عليه المستنصر واحسن اليه . (٣)

وكان يؤدي اختلاف النصارى فيما بينهم حول البطركية الى تدخل السلطة وابطالها سنين عديدة ، في سنة ٦٢٤ هـ . اتفق بعض كتاب النصارى مع الملك العادل ابي بكر بن ايوب وولوا القس داود بن يوحنا بن لقلق من غير ان يعلم الملك الكامل محمد ابن السلطان . فشق ذلك على النصارى وتوجهوا سحرا ومعهم الشموع الى قلعة الجبل حيث كان يسكن الملك الكامل واستغاثوا به وقالوا له لا يصح بشريعتنا اختيار البطرك الا باتفاق الجمهور عليه . "فبعث الملك الكامل يطيب خاطرهم . وكان القس داود قد ركب بكرة ومع الاساقفة وعالم كبير من النصارى ليقدموه بالمعلقة بمصر وذلك يوم الاحد . فركب الملك الكامل بشجو كبير من القلعة الى ابيه بدار الوزارة من القاهرة حيث سكنه . واوقف ولاية القس . وبعث السلطان في طلب الاساقفة ليتحقق الامر منهم ، فوافتهم الرسل مع القس في الطريق فاخذوهم وتحصن القس الى كنيسة بوجرج التي بالحمراء

---

(١) المكين ص٢٤٧

(٢) المصدر نفسه ص٢٦٤ ، المقريزي ج ٢ ص ٤٩٥ . (يقول تسع سنين لا سبع اعتقل فيها)

(٣) المقريزي ج ٢ ص٤٩٦ .

وبطلت بطركيته وانامت مصر بغير بطرك تسع عشر سنة " • ثم بعد ذلك تدم هذا القس بطركا سنة ٦٢٣ هـ • (١)

وفي سنة ٦٢٣ هـ • في زمن الملك الصالح نجم الدين ايوب عصى كثير من النصارى على البطريرك كيرلس بن لقلق واهانوه • وكان رجلا عالما بارعا ذا فنون كثيرة الا انه كان يحب جمع المال واخذ الشرطونية • فعقدوا له مجالس بحضور نائب السلطان والعدول والوزير معين الدين ابن شيخ الشيوخ واثبتوا عليه امورا شنيعة وعزموا على خلعه • فتدخل بالامرا لكتاب المستوفون بديار مصر واتفقوا مع معين الدين على تغريمه اثني عشر الف دينار يدفعها اقساطا .(٢)

نستدل من جميع الروايات السالفة ان الخليفة او الوالي او العامل لا يتدخل في امور الكنيسة الداخلية والقضايا الكهنوتية وانما جعل لنفسه الحق في المصادقة اسميا على اختيار البطرك او الجاثليق بعد ان يكون النصارى قد انتخبوه بمحض ارادتهم • ولكن الدسائس والمؤامرات التي كان يقوم بها بعضهم سمحت للحاكم في بعض الاحيان ان يفرض ارادته لحسم النزاع خوفا من الشغب الذي يجعل امور البلاد في فوضى مستمرة • وكنتيجة لهذه الدسائس ظهرت الرشوة التي كانت تقدم للحكام حبا في استرضائهم • وتنافس النصارى فيما بينهم لتقديم الاموال الباهظة وبذلها بسخاء ليحصل كل على مآربه الخاصة • وما المصادرات والاضطهادات التي كان يؤخذ بها بعض البطاركة الا لمخالفتهم اهواء بعض الحكام وغاياتهم الخاصـــة •

ومما ورد من الاحكام النظرية التي سنها الفقهاء ان النصارى اذا تشاجروا في دينهم واختلفوا في معتقدهم لم يعارضوا فيه ولم يكشفوا عنه • واذا تنازعوا في حق وترافعوا فيه الى حاكمهم لم يمنعوا منه ، فان تراجعوا فيه الى حاكمنا حكم بينهم بما يوجبه دين الاسلام وتقام عليهم الحدود اذا اتوها • (٣)

يذكر صاحب العقد ان النصارى تقول : لا نختار للجثلقة الا زاهدا فيها غير طالب لها • (٤) ويقول الجاحظ : "الجاثليق والجالوت لا يمكنهما في دار الاسلام حبس ولا ضرب ، فليس عندهما الا ان يغرما بالمال ويحرما الكلام ، على ان الجاثليق كثيرا ما يتغافل عن الرجل العظيم القدر الذي له من السلطان ناحية • " (٥)

---

(١) المقريزي ج ٢ ص ٤٩٧ (٢) ابن الراهب ص ١٤٢ ، المقريزي - السلوك ج ١ ص ٢٥٢ ، الخطط ج ٢ ص ٤٩٧ •

(٣) الماوردي ص ١٣٠ (٤) ابن عبد ربه ج ١ ص ٩ ، ٣٢

(٥) الحيوان ج ٤ ص ٩ •

ومما يرويه الجاحظ عن نظرة عامة النصارى الى الجاثليق انه وقع بين فتى من النصارى وبين ابن نهريز الجاثليق كلام "فقال له الفتى : ما ينبغي ان يكون في الارض رجل واحد اجهل منك ؟! وكان ابن نهريز في نفسه اكثر الناس علما وادبا وكان حريصا على الجثلقة ، فقال للفتى : وكيف حللت عندك هذا المحل ؟! قال : لانك تعلم اننا لا نتخذ الجاثليق الا مديد القامة وانت قصير القامة ، ولا نتخذه الا جهير الصوت جيد الحلق وانت دقيق الصوت رديء الحلق ، ولا نتخذه الا وافر اللحية عظيمها ، وانت خفيف اللحية صغيرها . وانت تعلم اننا لا نختار للجثلقة الا رجلا زاهدا في الرئاسة وانت اشد الناس عليها كلبا واظهرهم لها طلبا . فكيف لا تكون اجهل الناس وخصالك هذه كلها تمنع من الجثلقة ؟ وانت قد شغلت في طلبها بالك واسهرت بها ليلك" (١) . وربما كانت هذه الاقوال من تصنيف الجاحظ نفسه اوردها ليزيد مادة كتابه في خصائص الخطيب وأصول الخطابة وبيان الكلام وبلاغته .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. .

.

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص/ ١١٧ .

الباب الرابع

النصارى في خدمة الدولة

الباب الرابع

النصارى في خدمة الدولة

لعب النصارى دورا هاما في تصريف أمور الدولة العربية الاسلامية منذ نشوئها حتى العصر المغولي الذى ابتدأ بسقوط بغداد وانقراض الخلافة العباسية ، واخذوا على عاتقهم مسؤليات صعبة عليها يتوقف مستقبل البلاد خيره وشره ، وضربوا بسهم وافر من جميع مجارى الدولة واتجاهاتها السياسية والادارية والعمرانية والاقتصادية . وكان منهم من توصل الى أعلى المراكز والمناصب في الادارة والسياسة . ففي الشام ومصر كانت ادارة أمور الدولة الداخلية في أيامها الاولى بأيديهم وقد تركهم الامويون يتصرفون بها لانهم اهل خبرة وتجربة وحذاقة في ادارة الاعمال وشؤون الكتابة ومعرفة احوال البلاد ، حتى ان تعريب الديوان من اليونانية في الشام ومصر لم يصرف النصارى من الخدمات الادارية . واذا كان سرجون الكاتب النصراني في بلاط الخليفة عبد الملك بن مروان قد أنبأ الكتاب النصارى بعد حركة التعريب ان يطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة بعد ان قطعها الله عنهم [1] ، فالتاريخ يحدثنا انهم استرجعوا مكانتهم في العصور التالية وكان منهم الوزراء والحجاب والولاة والعمال والقواد واصحاب الدواوين وبيوت الاموال والسفراء والاطباء في البلاط ، وعمال الخراج والخبراء الماليون والمهندسون وعمال المساحة ، وخواص الخلفاء وندمائهم وجلسائهم ومستشاريهم . ووضعت مقدرات المسلمين وغيرهم في ايديهم فتنافس الناس في خطب ودهم واكرامهم واحترامهم ، وبجلهم كبار المسلمين واحترموهم وعرفوا فضلهم وسالوهم قضاء مصالحهم وحاجاتهم لان بعضهم توصل لان يكون واسطة بين الخليفة وعامة الناس . واذا كنا نراهم في فترات متقطعة يستخدمون ثم يصرفون من الخدمة ويضطهدون ، فما ذلك الا من سوء تصرف أصحاب الوظائف الكبيرة منهم واساءتهم الصريحة وعدائهم لبعضهم بعضا وللمسلمين أنفسهم . وكأنهم انما اعطوا تلك الميزة واسندت اليهم المراكز العالية ليسلبوا الناس اموالهم وأملاكهم ويعاملوهم بفظاظة وقسوة متناهيتين . وهناك شكاوى كثيرة بحقهم رفعها الناس الى الخليفة المنصور ، والمهدى والهادى والرشيد والمامون والمتوكل والمقتدر ومن أتى بعدهم ، والى بعض الخلفاء الفاطميين كالعزيز والحاكم والحافظ وغيرهم ، يحتجون فيها على عسف اولئك الموظفين وظلمهم لهم .

---

١ ــ البلاذرى ص ١٩٣

وربما تعرضوا كذلك لكثرة الناس وعدم استخدام الحكام بسبب تجسس بعضهم للدولة العباسية، او غيرها من الدول، او لانهم اتهموا بأنهم كانوا يراسلون الصليبيين ويكاتبونهم · فشملتهم بعض الاحكام الصارمة المقيدة كما شملت عامة النصارى[1] ·

ويجب ان لا ننسى ان من الدوافع على صرفهم من الخدمة ما كان يلحق عامة النصارى من التشديد او التقييد الذى قام به بعض الخلفاء · ولرب جريرة واحدة او عمل فردى سيئ يقوم به احد النصارى كان يكفى في بعض الاحيان لاخذ النصارى اجمعهم بالعقوبة الصارمة · وفي احيان كثيرة كان الموظفون من النصارى يرتعون في بحبوحة من العيش آمنين مطمئنين في ظل الخلفاء والولاة بينما كانت التغييرات تجرى بحق النصارى الاخرين · حتى في اشد حالات الخصام او النفور الذى سببته الحروب الصليبية بين النصارى والمسلمين، نراهم يحتلون في زمن صلاح الدين وخلفائه وظائف الحسبة والكتابة والتسجيل ويتمتعون برغد العيش لا يشكون من شئ سوى فساد رجال الكنيسة وانحطاطهم[2] ·

هذا ناهيك عن الاموال الطائلة والغنى الفاحش الذى اصابه ارباب الوظائف من النصارى في ظل العباسيين أكثر منَ أى أناس آخرين بحكم اتصالهم بالبلاط الذى كانت تنهال عليه الثروات انهيالا من اقطار آسيا الغنية · فكثيرا ما نقرأ عن ثروات اطباء البلاط الضخمة ونفوذهم السياسي العظيم · وقد بلغ دخل احدهم السنوى مائتين وثمانين الف درهم من مهنته فقط، وثمانمائة الف درهم من املاكه واقطاعه · وقد زاره احد من عاصره من الكتاب في يوم قائظ وتعجب من وجوده في غرفة مزخرفة مفروشة بالسجاد الفاخر الثمين ومرتديا الثياب السميكة الثمينة وكيف زال تعجبه من منظره غير المناسب عندما جلس فوجد نفسه في مجرى هواء بارد منبعث من غرفة مخفية مملوءة بالجليد · وعلى العكس لقيه في يوم قارس يرتدى الثياب الصينية الرقيقة في بيت اخضر شبيه ببستان[3] ·

وقد اقتنى بعضهم الضياع الواسعة والقصور الفخمة والجوارى الحسان والعبيد والغلمان · وعندما يذكر القلقشندى ارباب الوظائف الديوانية كالوزراء ولباسهم الفخم في

---

١ ـ راجع Belin P. 435-480 Arnold P. 78

٢ ـ Renaudot P. 388 عن Arnold P. 108

٣ ـ Von Kremer II, 179 عن Shedd P. 118

القرن التاسع يقارن بين هؤلاء وبين من تقدمهم من الوظائف يقول : "وتجمل هذه الطائفة بمصر اكمل بما هم بالشام في زيهم وملبوسهم الا ما يحكى عن قبط مصر من بيوتهم من اتساع الاحوال والنفقات، حتى ان الواحد منهم يكون في ديوانه بادنى اللباس وياكل ادنى المآكل ويركب الحمار حتى اذا صار في بيته انتقل من حال الى حال وخرج من عدم الى وجود ". [١]

يروى عن عمر بن الخطاب انه قال : "لا تستعملوا اليهود والنصارى فانهم اهل رشا في دينهم ولا يحل في دين الله الرشا ". [٢] واغلب الظن ان هذا الحديث مشكوك به لانه لا يتفق مع سيرة عمر مع أهل الذمة لمعاوية لما فتح قيسارية سبى منها اربعة آلاف رأس بعث بهم الى عمر بن الخطاب فقسمهم على يتامى الانصار وجعل بعضهم من الكتاب والاعمال للمسلمين [٣] . ومعنى هذا ان عمر سمح باستخدام النصارى . ويروى ابن قيتبة من عيون الاخبار ان عمر بن الخطاب قال لابي موسى الاشعرى : "ادع لنا كاتبك ليقرأ لنا صحفا جاءت من الشام، فقال أبو موسى : انه لا يدخل المسجد . قال عمر : أبه جنابة ؟ قال : لا ، ولكنه نصراني ، فرفع (عمر) يده فضرب فخذه حتى كاد يكسرها ثم قال مالك ! قاتلك الله ! اما سمعت قول الله عز وجل (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء) ؛ الا اتخذت رجلا حنيفا ! قال ابو موسى : له دينه ولي كتابته . فقال عمر : "لا اكرمهم اذا اهانهم الله ولا اعزهم اذا اذلهم ولا ادينهم اذا اقصاهم ". وذكر لعمر غلام كاتب حافظ من اهل الحيرة وكان نصرانيا فقيل له : لو اتخذته كاتبا . فقال "لقد اتخذت اذا بطانة من دون المؤمنين " [٤] . وقليل من النظر في هذه الروايات يكفي لردها وعدم قبولها وبعدها عن عمر . ويبعد كثيرا من التصديق ان يعتقد عمر بن الخطاب في ان الله اهان النصارى واذلهم وهو براء من ذلك . وقد لوحظ استعمال النصارى كذلك من قبل بعض الخلفاء كعثمان فقد تولى احد النصارى ادارة سجن خارج الكوفة في زمانه . [٥]

---

١ ـ صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٣

٢ ـ المتطرف ح ١ ص ١٠٤

٣ ـ البلاذرى ص ١٤٢

٤ ـ ح ١ ص ٤٣

٥ ـ الاغاني ح ٤ ص ١٨٦ .

اما في عصر الامويين فقد عرضنا في السابق للمراكز الكبرى التي احتلها النصارى واستخدام الامويين لهم ويكفي دليلا على ذلك ان المناصب الادارية للدولة العربية بقيت في ايديهم حتى زمن عبد الملك بن مروان عندما ابتدأ في تعريب الدواوين . ويلاحظ كذلك بقاؤهم في بعض المراكز على الرغم مما اصدره الخليفة عمر بن عبد العزيز من الاوامر . قيل كتب عمر الى عماله نسخة واحدة : " اما بعد فان الله عز وجل اكرم بالاسلام اهله وشرفهم واعزهم وضرب الذلة والصغار على من خالفهم وجعلهم خير امة اخرجت للناس فلا تولين امور المسلمين أحد من اهل ذمتهم وخراجهم فتبسط عليهم ايديهم والسنتهم فتذلهم بعد ان اعزهم الله وتمينهم بعد ان اكرمهم الله تعالى وتعرضهم لكيدهم والاستطالة عليهم . ومع هذا فلا يؤمن غشهم اياهم " [١]

ومما اخذه هشام بن عبد الملك على خالد بن عبد الله القسري والي العراق استعانته بالمجوس والنصارى وتوليتهم رقاب المسلمين وجبوة خراجهم وتسلطهم عليهم. [٢]

اما في ابتداء العصر العباسي فيلاحظ كثرة الاطباء النصارى المستخدمين في البلاط العباسي كآل بختيشوع وآل ماسويه وآل حنين بن اسحق وعيسى بن شهلا ومن لف لفهم . وقد بلغ كل من هؤلاء مكانة سامية ومركزا عاليا وأصابوا من الجاه الكثير ما حسدهم الناس عليه . وتوصل احدهم لان يتصرف بالامور ويجبر الناس على طاعته . فجرجس بن جبرائيل خدم بصناعة الطب المنصور وكان حظيا عنده رفيع المنزلة ونال من جهته اموالا جزيلة . ومما يدل على شدة اكرام المنصور له انه اختار من الجواري الروميات الحسان ثلاثا وبعث بهن الى جرجس مع ثلاثة آلاف دينار ولكن جرجس لم يقبلهن بل ردهن الى الخليفة . ولما سأله المنصور لم رد الجواري أجاب : نحن معشر النصارى لا نتزوج باكثر من امرأة واحدة وما دامت المرأة في الحياة لا نأخذ غيرها فحسن موقعه من الخليفة وامر من وقته ان يدخل جرجس الى حظاياه وحرمه ويخدمهن وزاد موضعه في عينه وعظم محله . ولما مرض جرجس واشتد مرضه "امر به الخليفة فحمل على سرير الى دار العامة وخرج اليه الخليفة ماشيا وراءه ، وساله عن خبره ، فبكى جرجس بكاء شديدا وقال له : ان رأى امير المؤمنين اطال الله بقاءه ان يأذن لي في المصير الى بلدي لانظر الى اهلي وولدي وان مت قبرت مع آبائي . فقال الخليفة يا جورجس اتق الله واسلم وانا اضمن لك الجنة ! قال جورجس : انا على دين

---

١ ــ ابن الاثير ج ٥ ص ٢٧ (طبعة مصرية) راجع الكندي ص ٦٩

٢ ــ المبرد ص ٧٩٦ .

آبائي أموت وحيث يكون آبائي أحب ان اكون اما في الجنة او في جهنم . فضحك الخليفة من قوله وقال له : وجدت راحة عظيمة في جسمي منذ رأيتك والى هذه الغاية ، وقد تخلصت من الامراض التي كانت تلحقني ، فقال له جرجس : انى اخلف بين يديك عيسى وهو تربيتي . فأمر الخليفة ان يخرج جورجس الى بلده وان يدفع له عشرة آلاف دينار." [١]

ولما استخدم المنصور عيسى بن شهلا "بسط يده على المطارنة والاساقفة يأخذ اموالهم لنفسه . حتى انه كتب الى مطران نصيبين كتابا يلتمس منه فيه من آلات البيعة أشياء جليلة المقدار ويتهدده حتى آخرها عنه وقال في كتابه الى المطران : ألست تعلم ان أمر الملك بيدى ان شئت امرضته وان شئت عافيته ؟" . ولما علم المنصور بانعاله صرفه من الخدمة وصادر جميع أمواله . [٢]

وخدم بختيشوع بن جورجس من الخلفاء المهدى والهادى وجعله الخليفة الرشيد رئيس الاطباء كلهم وله يسمعون ويطيعون . [٣] على ان ابنه جبرائيل بلغ مكانة سامية عند الخلفاء ، هارون الرشيد والامين والمأمون وحصل من جهتهم من الاموال ما لم يحصله غيره من الاطباء . صدف ان تشنجت يد حظية الرشيد فعالجها جبرائيل وأبرأها فامر الرشيد لجبرائيل بخمسماية الف درهم وأحبه مثل نفسه وجعله رئيسا على جميع الاطباء . وكان محل جبرائيل يقوى فى كل وقت حتى ان الرشيد قال لاصحابه كل من كانت له الىّ حاجة فليخاطب بها جبرائيل لاني افعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني . فكان القواد يقصدونه في كل أمورهم . وهذه ولا يم الحق مكانة لم يبلغها احد . وكان جبرائيل يخرج مع الرشيد الى مكة في موسم الحج فقال له يوما وهو بمكة يا جبرائيل علمت مرتبتك عندى . قال : يا سيدى وكيف لا اعلم . قال له : دعوت لك والله في الموقف دعاء كثيرا ثم التفت الى بني هاشم فقال : عسى أنكر ثم تولى له ؟ فقالوا يا سيدنا ذمّى ! فقال نعم ولكن صلاح بدني وقوامه به وصلاح المسلمين بي فصلاحهم بصلاحه وبقائه . فقالوا صدقت يا أمير المؤمنين .

وصار لجبرائيل المقام نفسه عند الامين والمأمون . حتى ان الامين كان لا يأكل ولا يشرب الا باذنه . وانتهى به الامر عند المأمون ان كان كل من تقلد عملا لا يخرج الى عمله الا بعد ان يلقي جبرائيل ويكرمه . وكان عند المأمون مثل ابيه .

---

١ ــ اصيبعة ج ١ ص ١٢٥ ، القفطى ص ١٥٨ ، صاعد ص ٣٦ .

٢ ــ اصيبعة ج ١ ص ١٢٥ ، القفطى ص ٢٤٨ . ٣ ــ القفطى ص ١ ؛ أصيبعة ج ١ ص ١٢٥ ــ ١٢٧

وبعد جبرائيل في زمانه من اكثر الناس ثروة . "ذكر ان رزقه كان برسم العامة في كل شهر من الورق عشرة آلاف درهم وبرسم الخاصة في المحرم من كل سنة من الورق خمسون الف درهم ، وثياب بقيمة عشرة آلاف درهم ، ولفصد الرشيد دفعتين في السنة مائة ألف درهم ، ولشرب الدواء دفعتين في السنة مائة ألف درهم . ومن اصحاب الرشيد كل سنة على ما فصل مع ما فيه من قيمة الكسوة وثمن الطيب والدواب من الورق اربعمائة ألف درهم" ومن غلة ضياعه بجنديسابور سبعمائة الف درهم . وكان يصير اليه من البرامكة في كل سنة من الورق (مليون واربعمائة الف درهم) الف الـف واربعمائة الف درهم . هذا سوى الصلات الجسام والصدقات التي لا تعد .[1] ومهما يكن جبرائيل قد بلغ من الثروة فلا شك ان هذه الارقام مبالغ بها جدا .

والطبيب بختيشوع بن جبرائيل بلغ من عظم المنزلة والجاه وكثرة المال ما لم يبلغه احد من سائر الاطباء الذين كانوا في عصره . وكان يضاهي المتوكل في اللباس والفراش وكثرة المال والضيافات وما شاكل ذلك . كان في خدمة الخليفة الواثق وبعد وفاته اختصه المتوكل وعظم منزلته . قيل دخل "بختيشوع يوما الى المتوكل وهو جالس على سدة في وسط دار الخاصة فجلس بختيشوع على عادته معه على السدة . وكان عليه دراعة ديباج رومي وقد انفتق ذيلها قليلا فجعل المتوكل يحادث بختيشوع ويعبث بذلك الفتق حتى بلغ الى حد النيفق ، ودار بينهما كلام اقتضى ان سأل بختيشوع بماذا تعلم ان المشوش يحتاج الى الشد والقيد ؟ قال : اذا بلغ في فتق دراعة طبيبه الى حد النيفق شددناه . فضحك المتوكل حتى استلقى على ظهره وامر له في الحال بخلع سنية ومال جزيل" .

وحدث احد الكتاب انه دخل على بختيشوع في يوم شديد الحر "وهو جالس في مجلس مخيش بعدة طاقات من الخيش طاقتان بينهما طاق اسود وفي وسطها قبة عليها جلال من قصب" . وعليه جبة يمانى سعيدى مثقلة ومطرف قد التحف فعجبت من زيه فحين حصلت معه من القبة نالنى من البرد امر عظيم فضحك وامر لى بجبة ومطرف ، وقال : يا غلام اكشف جوانب القبة فكشفت فاذا ابواب مفتوحة من جوانب الايوان الى مواضع مكبوسة بالثلج وغلمان يروحون ذلك الثلج فيخرج منه البرد الذى لحقنى . ثم دعا بطعامه فأتى بمائدة في غاية الحسن عليها كل شئ ظريف ثم اتى بفراريج مشوية يقلف اللوز والبزرقطونا وتسقى ماء الرمان . ولما كان في صلب الشتاء دخلت

---

١ ـ أصيبعة ح ١ ص ١٢٧ ــ ١٢٨ ، القفطى ص ١٣٢ ــ ١٤٦ العكبرى ص ١٢٢

عليه يوما والبرد شديد وعليه جبة محشوة وكساء وهو جالس في طارقة الدار على بستان في غاية الحسن وعليه سمور قد ظهرت به ، وفوقه جلال حرير مصبغ ولبود مغربية وانطاع ادم يمانية وبين يديه كانون فضة مذهب مخرق وخادم يوقد العود الهندى وعليه غلالة قصب في نهاية الرفعة . فلما حصلت معه في الطارمة وجدت منه الخمر امرا عظيما فضحك وأمر لى بغلالة قصب وتقدم يكشف جوانب الطارمة فاذا مواضع لها شبابيك خشب بعد شبابيك حديد وكوانين فيها فحم الغضا وغلمان ينفخون ذلك الفحم بالزقاق كما تكون للحدادين ، ثم دعا بطعامه فاحضروا ما جرت به العادة في السرو والنظافة " . [١]

ولكن المتوكل غضب عليه فيما بعد وقبض ما له ونفاه الى البحرين . وبعد وفاة المتوكل عفي عنه واستحضر الى بغداد وخدم عدة خلفاء واسترجع مكانته السابقة عندهم . [٢]

واشتهر من آل بختيشوع في خدمة البلاط العباسى جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع وقد طبب الخليفة المقتدر ، ومعز الدولة وعضد الدولة ، والصاحب بن عباد فأكرموه واجزلوا له العطايا وجعلوا له مقاما ساميا عندهم . [٣]

ويضاهي آل بختيشوع في خدمة الخلفاء والامراء : آل ماسويه الاطباء . فيوحنا بن ماسويه جعله الرشيد أمينا على الترجمة ورتب له كتابا حذاقا يكتبون بين يديه . وخدم بعد الرشيد ، الامين والمأمون ومن اتى بعدهم من الخلفاء الى ايام المتوكل . وكان ملوك بنى هاشم لا يتناولون شيئا من اطعمتهم الا بحضرته . ومن نوادره ان قسيسا اتاه من الكنيسة التى كان يتقرب بها يوحنا وقال : " قد فسدت علىّ معدتي فقال له يوحنا استعمل جوارش الخوزى فقال له قد فعلت ، قال : فاستعمل الكمونى ، قال قد استعملت منه ارطالا . فأمره باستعمال " القداذيقون " فقال : قد شربت منه جرة . قال له استعمل المروسيا ، قال له فعلت واكثرت . فغضب يوحنا وقال له : ان أردت ان تبرأ فاسلم فان الاسلام يصلح المعدة ".

وعاتبه النصارى على اتخاذ الجوارى وقالوا : خالفت ديننا وأنت شماس . فاما كنت على سنتنا واقتصرت على امرأة واحدة وكنت شماسا لنا ، واما أخرجت نفسك عن الشماسية واتخذت ما بدا لك من الجوارى . فقال لهم : انما امرنا في موضع واحد ان لا نتخذ امرأتين ولا ثوبين ، فمن جعل الجاثليق العاض بظر أمه اولى ان يتخذ عشرين ثوبا من يوحنا الشقى في اتخاذ اربع جوار ؟ فقولوا لجاثليقكم ان يلزم قوانين دينه حتى نلزم معه فان خالف خالفناه ". [٤]

---

١ ـ أصيبعة ج ١ ص ١٣٨ ـ ١٤٤ القفطى ص ١٠٢ ـ ١٠٤ ؛ ٢ ـ البطرى الجملة الثالثة ص ١٤٣٧ ابن النديم ص ٤١٣ القفطى ص ١٠٣ اصيبعة ح ١ ص ١٤١ ابن العبرى ص ٢٤٩ ابو الفداء ح ٢ ص ٤٦

٣ ـ القفطرى ص ١٤٦ ـ ١٥١ اصيبعة ح ١ ص ١٤٤ ـ ١٤٨ ؛ ٤ ـ القفطى ص ١٨٠ ـ ٢٨٧ اصيبعة ج ١ ص ٨٣ ابن انديم ص ٤١١ ابن صاعد ص ٣٦ ابن العبرى ص ٢٢٧

وكان والد يوحنا ماسويه في خدمة الرشيد والمأمون . وكان المأمون معجبا بمخائيل بن ماسويه هذا [١] .

واختص بخدمة الخلفاء كذلك حنين بن اسحق وابنه اسحق بن حنين . على انهما اشتهرا بالترجمة والتأليف اكثر من اشتهارهما بالطب . وسنعرض اليهما في فصل آخر .

وهناك طائفة كبرى من الاطباء النصارى استخدمهم الخلفاء والولاة والعمال من شتى العصور لا يمكن ان يحصرهم عد . على اننا سنشيد بسيرة بعضهم في بعض الاحيان ونخص بالذكر من اشتهر منهم وحاز المكان الرفيع . كان لامير مصر احمد بن طولون طبيب خاص نصراني يدعى بسعيد بن توفيل . واشتهر منهم كذلك عدد كبير في البلاط الفاطمى . [٢]

واذا جئنا الى دواوين الحجابة والكتابة والخراج نجد جمعا وافرا من النصارى شغل فيها اهم الوظائف واعظمها .

قيل ان بخام أحد اثرياء النصارى قدم الى المأمون من بورا؟ Bura بمصر وطلب اليه ان يجعله عاملا على تلك المدينة . فقال له المأمون : ان اسلمت جعلتك من وكلائي وعاملا على مدينتك . فاجابه بخام : ان الخليفة أعزه الله لديه عشرة الاف عامل مسلم وليس له ولا عامل نصراني واحد . فضحك المأمون وجعله رئيسا لبورا ومنطقتها [٣] .

وفي زمن المتوكل اقصى النصارى عن الخدمة . وقد ورد من المتوكل سنة ٢٤٧ هـ كتاب الى مصر بابتناء المقياس الهاشمى للنيل وبعزل النصارى عن قياسه . وكان الذى يتولى أمر المقياس النصارى . فأمر المتوكل بكار بن قتيبة والى مصر ان لا يوليه الا مسلما يختاره . [٤] ولكن هذا الامر لم يطل العمل به .

وكان دليل بن يعقوب النصرانى سنة ٢٥١ هـ — في زمن الخليفة المستعين — صاحب أمر القائد بغا الشرابى والحاكم في الدولة . وقد تصرف بالامور كيفما شاء يعاون بغا واصحابه في الرأى والحكم . [٥]

واشتهر النصارى بالهندسة . فقد كان لدى الامير احمد بن طولون مهندسا نصرانيا ولكنه غضب عليه وضربه ورماه بالمطبق . ولما أراد ابن طولون ان يبني جامعا

---

١ — اصيبعة ج ١ ص ١٧١ ، ١٨٣ . ٢ — اصيبعة ج ٢ ص ٨٣ ، تغرى بردى ج ٢ ص ١٧ ، صيوتى ج ١ ص ٢٥٨ . ٣ — Tritton P 23 عن Eut, 2:434

٤ — الكندى ص ٢٠٣ ، ٥٠٧ . المقريزى ج ٢ ص ٤٤١ . ٥ — ابن الاثير ج ٧ ص ٨٩ .

جديدا قدر له ثلثماية عمود واشار عليه بعضهم انه لا يمكن ان يجد هذه الاعمدة الا في الكنائس فأنكر ذلك ولم يختره ورفض ان يأتي بالعمد من الكنائس . فكتب المهندس النصراني من السجن اليه يقول : انا ابنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد الا عمودى القبلة – المحراب – فأحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه . فصور له تصميم الجامع على الجلود فأعجبه واستحسنه ، فاطلقه وخلع عليه . واطلق له النفقة عليه مائة الف دينار . وبعد ان فرغ من بنائه وقامت الصلاة والاحتفالات ابتهاجا صعد النصراني وصاح : يا أحمد بن طولون يا امير الامان عبدك يريد الجائزة ويسأل الامان ان لا يجرى عليه مثل ما جرى في المرة الاولى . فقال له احمد : انزل فقد آمنك الله ولك الجائزة . فنزل وخلع عليه وامر له بعشرة آلاف دينار واجرى عليه الرزق الواسع الى ان مات .[1]

ومن نكبهم احمد بن طولون الكاتب النصراني اندونه واغتصب منه خمسين الف دينار[2] . وكان يكتب لخمارويه بن احمد بن طولون اسحق بن نصر العبادى .[3]

ولا يمنع بعض الاحيان ان يتوصل بعض النصارى الى مقام الوزارة . ففى حدود سنة ٢٨٢ هـ كان عبدون بن صاعد وزيرا في خلافة المعتضد العباسي . قيل دخل عبدون بن صاعد على القاضى اسماعيل بن اسحق فقام له ورحب به ، فرأى القاضى انكار الشهود ومن حضره . فلما خرج قال لهم : قد علمت من انكاركم ! وقد قال الله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم س٦٨ ى٨) وهذا الرجل يقضى حوائج المسلمين وهو سفير بيننا وبين خليفتنا وهذا من البر . فسكتت الجماعة .[4]

ولا حاجة الى الفات النظر ان أحكام الفقهاء واهل النظر في تفسير الاية "يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء" لم يأخذ بها الا بعض ضيقي النظر من الحكام .

وكان النصارى في ايام المقتدر قد علا شأنهم وغلبوا على اعمال الكتابة والدواوين فرفع في امرهم الى المقتدر فأمر سنة ٢٩٢ ، ٢٩٦ هـ الا يستخدم احد من اليهود والنصارى الا في الطب والجهبذة . ولكن هذا الامر لم يدم[5] . فكان ابن دليل النصراني

١– المقريزى ج ٢ ص ٢٦٥ . ٢– المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٦٩ . ٣– السيوطى ج ٢ ص ١٤٦

٤– ياقوت – ادباء ج ٢ ص ٢٥٩ – ٥– عريب ٣٠

كاتب[1] ابى الساج حاكم ارمينيا[2] وكان بيد بشر بن عبد الله بن بشر النصراني كاتب مفلح الاسود الخادم امر قصر الخليفة المقتدر وبلاطه[3] . وفي سنة ٣١٣ هـ كان مالك بن الوليد النصرانى يتولى ديوان الدار وابن القنائى النصرانى يتولى ديوان الخاصة وبيت المال[4] . وكان بنان النصرانى كاتبا لوزير المقتدر عبد الله بن محمد بن خاقان[5] . وكان الوزير محمد على بن يكرم الكاتب النصرانى ابراهيم بن ايوب وقد امره سنة ١٣٦ هـ على ديوان الجهبذة وكان يكتب كذلك للوزير على بن عيسى[6] واصبح في سنة ٣١٩ هـ للكتاب النصراى مكانة كبرى في زمن المقتدر الى درجة انه اذا اراد وزير او طالب وظيفة او عمل ان يصل الى مطلوبه تقرب اليهم ليساعدوه . فالحسين بن القاسم بن سليمان بن وهب لما سعى في طلب الوزارة كان يتقرب الى النصارى الكتاب الذين في خدمة الخليفة المقتدر والقائد مؤنس المظفر[7] . وفي سنة ٣٢٠ هـ كان بشرى النصراني كاتب ابى سليمان داوود بن حمدان ، احد حكام الموصل ، واسطة بين آل حمدان ومركز الخلافة في بغداد .[8] وكان ابن دنجا النصراني خصيصا بسيف الدولة بن حمدان[9]

وقد تولى بعض النصارى قيادة الجيوش العربية ففي سنة ٣٦٨ هـ كان من جملة قواد عضد الدولة ابو العلاء عبيد الله بن الفضل بن نصر النصراني ، جهزه المقتدر لمنازلة ابا تغلب صاحب قلعة الرحبة . وانفذه مرة اخرى لقتال بني شيبان العاصين في شهر زور والاكراد[10]

وقد تقلد منصب الوزارة في سنة ٣٦٩ هـ في بغداد نصر بن هارون النصراني . وفي تلك السنة اذن له الخليفة في عمارة البيع والديرة بعد ان خربت واطلق الاموال لفقرائها .[11]

وقد اخذ على الوزير ابن الفرات انه وضع على قيادة احد الجيوش نصرانيا ، واحتج على ذلك فان الخلفاء المتقدمين قد استخدموا النصارى في جميع الاعمال وكان المسلمون يحترمونهم ويجبرون على تقبيل ايديهم .[12]

(٢-٦) عريب : ٣١ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٢٥ ، ١٢٥ ، ١٣٥ . ابن تغرى بردى ج ٣ ص١٦٥

٧ — عريب ص١٦٤ ٨ — المصدر نفسه ص١٦٦ ٩ — ابن الاثير ج ٨ ص٤٠٦

١٠ — مسكويه ج ٢ ص٣٩٢ ، ٣٩٨ ١١ — المصدر نفسه ج ٢ ص٤٠٨

١٢ — كتاب الوزراء — آمدروز — عن Tritton P 28.

وفي سنة ٣٨٧ هـ في زمن المقلد بن المسيب العقيلي كان رجلان نصرانيان قد تمكنا من بلد دقوقا - قرب الموصل - وحكما فيه واستعبدا أهله . فاجتمع جماعة من المسلمين الى جبرائيل بن محمد الذى قدم ليتسلم البلد وشكوا اليه امرهما وتحكمهما فيهم ، ووعدوه بالمساعدة فيما لو كفاهم شرهما . فقبض عليهما وأخذ مالهما .[١]

وكان ابن عيسى بقطر ابن شعا الكاتب القبطي المعروف بالبولس يتولى خراج مصر للدولة الاخشيدية .[٢]

وكتب ابو سعيد العلاء بن الحسن بن وهب بن الموصلايا لجماعة من الخلفاء خمسا وستين سنة وكان نصرانيا اسلم على يد المقتدى (٦٦٧- ٦٨٧ هـ)[٣]

ويقول الجغرافي المقدسى الذى عاش في القرن الرابع الهجرى ان اكثر الاطباء والكتبة في مصر والشام من النصارى . والغالب على الطبابة في الشام النصارى كما ان الغالب على الكتابة في مصر النصارى كذلك .[٤]

اما الخلفاء الفاطميون في مصر فقد قربوا النصارى واليهود اليهم وفوضوا اليهم أمور الدولة من وزارة وكتابة وحجابة ولكنهم أساءوا التصرف وجحدوا النعمة الجزيلة فحقد عليهم الناس ورفعوا الشكاوى واضطر الخلفاء الى مقاصصتهم وابعادهم عن مراكزهم .

ففي سنة ٣٨٠ هـ ولى الخليفة العزيز بالله عيسى بن نسطورس وزارته وكتابته واستناب بالشام يهوديا اسمه منشا ، فاعتز بهما النصارى واليهود وآذوا المسلمين . فعمد اهل مصر وكتبوا منشورا جعلوه في يد صورة عملوها من قراطيس جاء فيها :

" بالذى أعز اليهود بمنشا والنصارى بعيسى بن نسطورس واذل المسلمين بك الا كشفت ظلامتى " . واقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز والقصة بيدها . ففهم الخليفة ماذا أريد بذلك . وقيل انه قبض عليهما واخذ من عيسى ثلاثمائة الف دينار ومن اليهود شيئا كثيرا ، الا انه كان كثير العفو . وعلى هذا قال الشاعر معرضا بالوزير يعقوب بن كلس وبالقائد فضل :

تنصر فالتنصر دين حق	عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا	وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا	العزيز ابن وروح القدس فضل .[٥]

١- ابن الاثير ج ٩ ص٩٦ ٢- المقريزى ج ١ ص٧٣ ٣- السيوطى ج ٢ ص١٤٦
٤- أحسن التقاسيم ص١٨٣ ٥- ابن الاثير ج ٩ ص٩٥ ، ٨١- ٨٢ .

وفي سنة ٣٩٣ هـ كان عيسى بن نسطورس وفهد بن ابراهيم في خدمة الحاكم بامر الله ، وسنة ٤٠٠ هـ كان منصور بن عبدون النصراني كاتبا له . وتولى الكتابة في سنة ٤٠١ هـ زرعة بن عيسى بن نسطورس .[1] وكان كثير من النصارى قد تمكن في اعمال الدولة حتى صاروا كالوزراء وتعاظموا الاتساع احوالهم وكثرة اموالهم فاشتد بأسهم وتزايد ضررهم ومكايدتهم للمسلمين مما اغضب الحاكم بامر الله ذلك فاضطهدهم ونكبهم[2]

يقول السيوطي كان الخلفاء الفاطميون يعتمدون كثيرا على اهل الذمة لحذاقتهم في الكتابة . وقد لوحظ في سنة ٤١٨ هـ وسنة ٤٣٦ هـ كثرة استخدامهم لليهود فقال شاعر انذاك وكان الذى يتولى امور الدولة ابو سعيد التستري اليهودي :

يهود هذا الزمان قد بلغوا	غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم	ومنهم المستشار والملك
يا اهل مصر اني نصحت لكم	تهودوا فقد تهود الفلك ...[3]

وظل خلفاء الدولة الفاطمية يختارون بلغاء الكتاب ما بين مسلم وذمي .[4] على اننا نلاحظ في كل الفترات سيئة سيرة بعض الحكام النصارى وتحكمهم في الناس نصارى ومسلمين . ففي سنة ٥١٩ هـ كان الامر باحكام اللو الفاطمي بغير وزير فاقام لديه صاحبى ديوان احدهما جعفر بن عبد المنعم والاخر سامري يقال له ابو يعقوب ابراهيم ومعهما مستوفى (كاتب خاص) يعرف بابن ابي نجاح وكان راهبا . فتحكم هذا الراهب في الناس وتمكن من الدواوين وابتدأ في مطالبة النصارى وفرض عليهم الاموال الكثيرة وحملهما اولا فاولا . ثم اخذ في مصادرة بقية المباشرين والمعاملين والضمناء والعمال وزلد الى ان عم ضرره جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة بحيث لم يخل احد من ضرره . فلما تفاقم امره قبض عليه الخليفة الامر وضرب بالنعال حتى مات بالشرطة[5] .

وفي ايام الامر بالله قدم من تكريت رجل نصراني سرياني تاجر اسمه طيب بن يوسف ومعه احمال كثيرة من الثياب والابراد الحريرية المصنوعة بالهند واليمن فقدم للخليفة من اجودها ما يصلح لمثله فخلع عليه واحسن اليه واقطعه ضيعة واعفاه من رسوم التجارة . فاشتغل ابنه في صناعة الكتابة وتصرف في الخدم الديوانية ورزق ولدا

١ـ المقريزى ج ٢ ص٢٨٦ ـ ٢٨٧ ، ابن خلدون ج ٤ ص٥٥ ، ٥٦
٢ـ المقريزى ج ٢ ص٢٩٥ ، ابن الراهب ص٨٢ ٣ـ حسن المحاضرة ج ٢ ص١٢٦ ـ ١٤٦
٤ ـ حسن المحاضرة ج ٢ ص١٤٦ ٥ـ المقريزى ج ٢ ص٢٩١

سماه ابو الطيب باسم جده وكان كاتبا حاذقا لبيبا ورحل الى القاهرة واجتمع بالاحابر وخدمهم وبرد له اليهم فاستخدم وجعل صاحب ديوان العربية [١] .

كان قبط مصر منذ زمن الفتح يتولون جباية الاراضى واول من استعملهم على جباية الروم عمرو بن العاص . وللجباية قواعد وانظمة بقيت دارجة حتى عصور متأخرة . فاذا ما انحط ماء النيل عن الاراضى وتعلقت نواحى مصر باصناف الزراعات ندب من الحضرة (قصر السلطان) من فيه نباهة وخرج معه عدول (شهود) يوثق بهم وكانت لهم معرفة بعلم الخراج . وكثيرا ما كان هذا الكاتب من النصارى الاقباط ويخرج الى كل ناحية من ذكر ليحررون مساحة ما شمله الرى من الاراضى مما لعله بار او شرق ويكتب بذلك مكلفات واضحة بالفدن والقطائع على جميع الاصناف المزروعة ويحضر الى دواوين الباب فاذا مضى من السنة القبطية اربعة اشهر ندب من الاخبار من عرف بالصرامة وقوة البطش ويعين معه من الكتاب العدول من قد اشتهر بالامانة وكاتب نصراني من القبط غير من خرج عند المساحة وساروا الى كل ناحية كذلك .. [٢]

ومن غريب ما يروى عن افعال بعض الكتاب النصارى انه في حكم الخليفة الحافظ لدين الله خرج من انتدب بعد انحطاط النيل من العدول والنصارى والكتاب الى الاعمال لتحرير ما شمله الري وزرع من الاراضى وكتابة المكلفات . فخرج الى بعض النواحي من يمسحها من شاد وناظر وعدو . وتاخر الكاتب النصراني ثم لحقهم واراد التعدية (العبور) الى الناحية الاخرى فحمله ضامن تلك المعدية (السفينة) الى البر وطلب منه اجرة التعدية فنفر منه النصراني وسبه وقال : انا ماسح هذه البلدة وتريد منى حق التعدية ؟ فقال له الضامن : ان كان لى زرع خذه ، وقلع لجام بغلة النصراني والقاه في معديته . فلم يجد النصراني بدا من دفع الاجرة اليه حين اخذ لجام بغلته . "فلما تم مساحة البلد وعمل مكلفة المساحة ليحملها الى دواوين الباب - وكانت عادتهم حينئذ كتب في البياض الذى تركه ازر اللجام باسم ضامن المعدية عشرين فدانا قطيعة كل فدان اربعة دنانير ، عن ذلك ثمانون دينارا وحمل المكلفة الى ديوان الاصل . وكانت العادة اذا مضى من السنة الخراجية اربعة اشهر ندب من الجند من فيه حماسة وشدة ومن الكتاب العدول وكاتب نصرانى ، فيخرجون الى سائر الاعمال لاستخراج تلك الخراج على ما تشهد به المكلفات المذكورة فيتفق في الاخبار فان لم يكن حينئذ للاجناد انطاعات ... وكان من العادة ان يخرج الى كل ناحية من ذكر من لم يكن

١- المكين ص ٢٩٩ ٢- المقريزى ج ١ ص ٨٦

خرج وقت المساحة ، بل ينتدب قوم سواهم . حتى خرج الشاد والكاتب والعدول لاستخراج ثلث مال الناحية استدعوا ارباب الزروع على ما تشهد به المكلفة ومن جملتهم ضامن المعدية فلما حضر الزم بستة وعشرين دينارا وثلثى الدينار عن نظير ثلث المال الثمانين دينارا ... عن خراج ارض اللجام . فأنكر الضامن ان تكون له زراعة بالناحية وصدقه اهل البلد فلم يقبل الشاد ذلك وكان عسوفا وامر به فضرب بالمقارع . واحتج بخط العدول على المكلفة ، وما زال به حتى باع معديته وغيرها واورد ثلث المال ... وسار الى القاهرة موقف تحت السقيفة* واعلن بما تقدم ذكره . فأمر الخليفة الحافظ باحضاره فلما مثل بحضرته قص عليه ظلامته مشافهة وحكى له ما اتفق منه في حق النصراني وما كاد به" . وبعد ان حقق الحافظ في ذلك من مراجعة المكلفات السابقة واستشارة ارباب الدواوين لم يوجد لارض اللجام ذكر البتة . فأمر الخليفة حينئذ باحضار ذلك النصراني فعذبه ومثل به بان أمر ان يطاف به في سائر الاعمال وهو مسمر في مركب وكف ايدى النصرانية كلها بعد ذلك عن الخدم في سائر المملكة ، فتحملوا مدة ساءت بها احوالهم .[1] وسعى النصارى جهدهم لاسترجاع مكانتهم الاولى عند الخليفة الحافظ . ولا ندرى نصيب هذه الرواية من الصحة : قيل ان الحافظ كان مغرما بعلم النجوم وله عدة منجمين من جملتهم شخص يظهر ان عديم الرأى والتدبير ، قدم اليه مرة عدد من اكابر النصارى بعد ان بلغ الحيف بالنصارى ما بلغ اليه في زمن الحافظ "ودفعوا اليه جملة من المال ومعهم رجل منهم يعرف بالاخرم ابن ابى زكريا وسألوه ان يذكر للحافظ في احكام تلك السنة حلية (صفات) هذا الرجل فانه ان اقامه في تدبير دولته زاد النيل ونما الارتفاع وركت الزروع ونتجت الاغنام ودرت الضروع وتضاعفت الاسعار وورد التجار وجرت قوانين المملكة على اجمل الاوضاع . فطمع ذلك المنجم في كثرة ما عاينه من الذهب وعمل ما قرره النصارى معه . فلما رأى الحافظ ذلك تعلقت نفسه بمشاهدة تلك الصفة فأمر باحضار الكتاب من النصارى وصار يتصفح وجوههم من غير ان يطلع احد على ما يريده ، وهم يؤخرون الاخرم عن الحضور اليه قصدا منهم وخشية ان يفطن بمكرهم ، الى ان امتد الزامهم باحضار سائر من بقى منهم ، فاحضروه بعد ان وضعوا من قدره ، فلما رآه الحافظ رأى فيه الصفات التى عينها منجمه ، فاستدناه اليه وقربه وآل امره الى ان ولاه امير الدواوين . فاعاد كتاب النصارى اولو

---

* ـ السقيفة : موضع في قصر الخليفة يقف عنده المتظلمون .

[1] ـ المقريزى ج ١ ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦

ما كانوا عليه وشرعوا في التجبر وبالغوا في اظهار الفخر وتظاهروا بالملابس العظيمة وركبوا البغلات الرائعة والخيول المسومة بالروح المحلاة واللجم الثقيلة ، وضايقوا المسلمين في ارزاقهم واستولوا على الاحباس الدينية والاوقاف الشرعية . واتخذوا العبيد والمماليك والجواري من المسلمين والمسلمات ، وصودر بعض كتاب المسلمين فالجأته الضرورة الى بيع اولاده وبناته ويقال انه اشتراهم بعض النصارى . وفي ذلك يقول ابن الخلال :

اذا حكم النصارى في الفروج	وغالوا بالبغال وبالسروج
وذلت دولة الاسلام طرا	وصار الامر في ايدي العلوج
فقل للاعور الدجال هذا	زمانك ان عزمت على الخروج [١] .

واستوزر الحافظ لدين الله سنة ٥٢٩ هـ تاج الدين بهرام وكان نصرانيا ارمنيا فتمكن في البلاد واستعمل الامن وعزل المسلمين واساء السيرة فيهم وعزلهم واهانهم هو والارمن من الذين ولاهم . مشى رضوان ابن ولخشي به الى الحافظ فهرب وقبض على اصحابه [٢] .

وقد لوحظ استخدام النصارى في زمن صلاح الدين الايوبي والعداء مستحكم حينذاك بين الصليبيين النصارى وبين المسلمين . فكان سنة ٥٦٠ وسمعان بن كليل على ديوان الجيش في ايام الناصر صلاح الدين وتميز عنده واعطاه اقطاعا . وكان سمعان خال والد المؤرخ المكيني بن العميد . ويذكر المكيني ان اباه شغل ديوان الجيش بعد وفاة خاله واشتهر بالامانة عند الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب [٣]

ولما تآمر المصريون سنة ٥٦٩ هـ مع افرنج صقلية ضد صلاح الدين استعمل صلاح الدين رجلا نصرانيا ليأتي له بما سرارهم [٤] .

ولما كان صلاح الدين يحاصر عكا سنة ٥٨٦ هـ كان على خزانة ماله قوم من النصارى وقد اهملوا تجنيد الرجال وانصافهم فصعب امر عكا حينذاك [٥] .

وقد استخدم كثير من الامراء كبني ملهم وبني منقذ الكتاب النصارى منهم زوهة بن موسى ابو العلاء الطبراني [٦] .

١- المقريزي ج ١ ص٤٠٦ ٢- ابن الاثير ج ١١ ص٢١ ٣- المكين ص٢٠٠

٤- ابن الاثير ج ١١ ص٢٣ ٥- ابن الاثير ج ١٢ ص٢٦ ٦- ابن عساكر ج ٥ ص٣٧٣

على ان النصارى خدموا الدولة – طوعا ام كرها – في بعض امور الدولة الداخلية والخارجية وكانوا واسطة او سفراء بين الخلفاء العباسيين او امراء الاقطاع وبين من جاورهم من الامم الاجنبية او بينهم وبين الثائرين على الدولة . فالمأمون ارسل سنة ٢١٦ هـ البطريرك ديوناسيوس الى مصر الى بعض الثائرين ليحلهم الى الطاعة . [١]

وفي سنة ٣٨١ هـ ارسل لؤلود صاحب سعد الدولة ملقوت السرياني يطلب مساعدة من الامبراطور باصيل البزنطي [٢] وقد اجبر جاثليق بيت المقدس وبطريرك انطاكية ليستعملا نفوذهما عند الامبراطور البزنطي ليعامل الاسرى المسلمين بالحسنى [٣] .

وبعث جمال الدين وزير قطب الدين في الموصل سنة ٥١٠ هـ بالمفريان اغناطيوس رسولا الى جورج ملك جورجيا ليفدى الاسارى المسلمين [٤] .

لم ينفصل النصارى اذن عن الكيان الادارى والسياسى في العصر العباسى بل كانت لهم فيه خدمات تضاهي خدمات المسلمين الا انهم كما قد اساؤوا التصرف في احيان كثيرة ولم يخدموا الدولة باخلاص فترى احدهم عندما يتولى حكما او مركزا له اهميته يعمل لتثبيت اقدام انصاره واعوانه ، وابتزاز اموال الناس مسلمين ونصارى ، ويستغل لين الخليفة وعطفه في سبيل غاياته الخاصة . مع ان هذا يخالف وضعيتهم الحرجة في تلك العصور والتي تقتضي مراعاة الشعور العام والعدل في الناس بأقصى معانيه . فخطأ واحد يرتكبه احدهم كان يكفي لجر جميع النصارى الى انواع من الاضطهاد والمصادرة والنفي والتشريد . ويجب ان لا نقارن بين اعمال حكامهم واعمال الحكام من المسلمين الذين لم يتورعوا هم كذلك في ارتكاب الاضطهاد الكثير ورعاية الاعوان والانصار وسلب الناس اموالهم للاسباب التي قدمنا .

١– S.A. 2, 266 ff عن Tritton P 35

٢– مشكويه ج ٣ ص ٢١٨ – الترجمة الانكليزية عن Tritton

٣– نشوارالمحاضرة ص ٣ عن Tritton P 35

٤– Tritton cf Bar Heb. Chronicle P 328

الباب الخامس

اثر النصارى العلمي والادبي

الباب الخامس

- الاثر العلمي والادبي -

يتجلى اثر النصارى العلمي في حركة الترجمة والتعريب ونقل العلوم من اليونانية والسريانية الى اللغة العربية ، وهي خدمة كبرى عادت على الثقافة العربية خاصة بالفائدة الغزيرة بل كان لها الفضل الاكبر في اطلاع العرب على مآثر اليونان ومخلفاتهم العقلية التي صبغت ثقافتهم بصبغة خاصة كان لها تأثير كبير في الشكل وفي الموضوع ٠ اذ انهم في الشكل قد اتبعوا في بحثهم طريقة الجدل والتعبير والتدليل ، اما في الموضوع فقد كان لها اثر كبير في تعاليم المتكلمين ، وبعض الاثر في التصوف الاسلامي ٠ (1)

عني النصارى بترجمة الكتب الطبية والفلكية وكتب الآلهيات والحساب والمنطق والموسيقى والهندسة والرياضيات والهيئة ٠ وبذل لهم الخلفاء والامراء المال الكثير واكرموهم واحسنوا اليهم في سبيل تلك الغاية ٠ وكان اكثر هؤلاء التراجمة من السريان النساطرة ،لانهم اقدر على الترجمة من اليونانية واكثر اطلاعا على كتب الفلسفة والعلم اليوناني ، ولانهم كانوا زعماء المدارس التي كانت وظلت منبعا للثقافة اليونانية كجنديسابور وحران ، ثم الاسكندرية التي كان يتزعمها اليعاقبة من النصارى ٠ فالفكر اليوناني ظل حيا في بلاد الشرق الادنى نظرا للمنازعات الدينية بين فرق النصارى مما يدفعهم دائما الى الاستمرار بمطالعة العلوم اليونانية ليدعموا بها حججهم وارائهم الدينية ، وصادف هذا رغبة العرب الملحة في الاطلاع على تلك العلوم وبذلوا الاموال الكثيرة في سبيل تلك الغاية ٠

والتاريخ يحدثنا عن طائفة كبرى من العلماء النصارى واصحاب الترجمة الذين ضربوا بسهم وافر لا في النقل والتعريب فحسب وانما في الابتداع والابتكار ، فقد نبغ منهم جماعة في الطب والهندسة والتنجيم والفلسفة وكان لهم مآثر حميدة في كل تلك العلوم ٠

---

(1) راجع احمد امين - ضحى ج ١ ، ص : ٢٧٩ ٠

وليس من شاننا الان ان نعنى بتفصيل تلك العلوم ومآلها لان هذا من اختصاص تاريخ العلم وانما غايتنا الوحيدة ان نطلع القارئ على سيرة اولئك العلماء ونضع يده على عظم الاثر الذى خلفوه بين ايدى العرب . واليك الآن اشهر اولئك العلماء والنقله في العصر العباسي .

آل بختيشوع :-

وهم من السريان النساطرة وقد كنا ذكرنا خدمتهم للدولة ومقامهم فيها . اولهم كما قلنا جورجس بن جبرائيل كان له خبرة بصناعة الطب ومعرفة بالمداواة وانواع العلاج . وكان طبيبا للمنصور حظيا عنده رفيع المنزلة ، نقل للمنصور كتبا كثيرة من كتب اليونان الى العربي . وقد كان جورجس هذا رئيسا لاطباء جنديسابور فاستقدمه المنصور اليه . ومن كتبه المشهورة : كناشه المشهور وقد نقله حنين بن اسحق من السرياني الى العربي .[1]

ثم بختيشوع بن جورجس ابنه استقدمه كذلك الرشيد من جنديسابور وكان عالما غزير المعرفة . قيل لما دخل على الرشيد وهو طريح الفراش دعا له بالعربية والفارسية ، فضحك الخليفة وقال ليحيى بن خالد : انت منطقي فتكلم معه حتى اسمع كلامه . فقال له يحيى بل ندعو بالاطباء فدعا بهم وهم ابو قريش عيسى وعبدالله الطيفورى وداود بن سرابيون وغيرهم . فلما راوه قال ابو قريش : "يا امير المؤمنين ليس في الجماعة من يقدر على الكلام مع هذا لانه كون الكلام وهو واوه وجنسه فلاسفة ." وله من الكتب كناش مختصر الفه لابنه جبرائيل الذى خلفه في المنزلة وبلغ مكانا رفيعا عند الخلفاء لم يبلغه احد قبله . ولجبرائيل من الكتب رسالة الى المامون في المطعم والمشرب ، وكتاب المدخل الى صناعة المنطق ، ورسالة مختصرة في الطب (الكناش) وكتاب في صنعة البخور الفه للخليفة المامون .

ومنهم بختيشوع بن جبرائيل وكان يضاهي الخليفة المتوكل في اللباس وكثرة المال . نقل حنين ابن اسحق لبختيشوع كتبا كثيرة من كتب جالينوس الى اللغة السريانية والعربية . وله من الكتب ايضا كتاب الحجامة على طريقة المسئلة والجواب .

ثم جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع وكان متقنا لصناعة الطب له تصانيف جليلة فيها . وقد خدم بصناعة الطب الخليفة المقتدر . فمن كتبه : كناشه الكبير الملقب بالكافي في خمس

---

(١) اصيبعه ج ١ ص ١٢٣ - ١٢٥ .

مجلدات الفه للصاحب بن عباد على طريقة المسألة والجواب ، وكناشه الصغير ، ثم رسالة في عصب العين ، ومقالة في الم الدماغ بمشاركة فم المعدة والحجاب الفاصل بين الآت الغذاء والآت التنفس المسمى ديافرغما . ومقالة في ان افضل اسطقسات البدن هو الدم ، وكتاب المطابقة بين قول الانبياء والفلاسفة وغيرها .

ومن آل بختيشوع كذلك عبيدالله بن جبرائيل وكان جيد المعرفة بعلم النصارى ومذاهبهم وله عناية بالغة بصناعة الطب وتصانيف كثيرة فيها (توفي سنة ٤٥٠ هـ .) وله من الكتب : مقالة في الاختلاف بين الالبان ، وكتاب مناقب الاطباء ، وكتاب الروضة الطبية ، وكتاب التواصل الى حفظ التناسل ، ورسالة في بيان وجوب حركة النفس ، وكتاب نوادر المسائل مقتضبة من علم الاوائل في الطب ، وكتاب طباع الحيوان وخواصها ومنافع اعضائها وغيرها كثير .

على ان آل بختيشوع لم يشتهر منهم في الترجمة الا جرجس الاول الا انهم كانوا من مهرة الاطباء الذين الفوا في الطب كتبا قيمة مفيدة .(١)

جورجس بن جبرائيل
|
بختيشوع
|
جبرائيل .... عبدالله
| |
بختيشوع   جبرائيل

آل حنيـــــن :-

على ان اشهر التراجمة العلماء آل حنين الذى يرجع اليهم الفضل الاكبر في نقل مجموعة كبرى من الكتب اليونانية الى اللغة العربية . واشهرهم حنين بن اسحق العبادى وهو شيخ المترجمين بلا جدال . ولد سنة ١٩٤ هـ . من اب عربي من قبيلة العباد النصرانية التي تقطن الحيرة . وكان والد حنين والد اسحق صيدلانيا فنشأ على حب العلم وطلب المعرفة واحذق اللغة الفارسية واليونانية والعربية والسريانية . دخل بغداد وحضر مجلس يوحنا بن ماسويه. وجعل يخدمه ويقرأ عليه . وكان حنين يكثر السؤال مما يحرج صدر يوحنا . فغضب يوحنا منه وقال له : "ما لاهل الحيرة والطب عليك ببيع الفلوس في الطريق ". وامر به فاخرج من داره ، فخرج حنين باكيا . يقول القفطي "وهذا عمله يوحنا لان هؤلاء الجنديسابوريين

---

(١) راجع عن آل بختيشوع طبقات الاطباء -ابن ابي اصيبعه ج ١ ص ١٢٥ - ١٤٨ . القفطي ص ١٠٠ - ١٠٢ ، ١٣٢ ، ١٤٦ ، ٣٥٦ ، ابن النديم ص ٤١٣ .

كانوا يعتقدون انهم اهل هذا العلم ولايخرجونه عنهم وعن اولادهم وجنسهم .(١)

نهض حنين من بغداد الى ارض فارس ودخل البصره ولزم الخليل بن احمد حتى برع في اللسان العربي وادخل كتاب العين الى بغداد . ورحل كذلك الى بلاد الروم وتعلم لسان اليونانيه وحذقه . وجد في تحصيل كتب الحكمة وتوصل في تحصيلها غاية امكانه واحكم اليونانيه عند دخوله الى تلك الجهات وحصل نفائس هذا العلم . "ولم يزل امره ينمو وعلمه يتزايد وعجائبه تظهر في النقل والتفاسير حتى صار ينبوعا للعلوم ومعدنا للفضائل".(٢)

اتصل حنين بالخليفه المامون اولا وكان فتي السن وامره بنقل مايقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى العربي واصلاح ما ينقله غيره . ثم ترجم للمعتصم والواثق ثم اختاره الخليفه المتوكل واعلى منزلته وائتمنه على الترجمة وجعل له كتابا نحاريرعالمين بالترجمة كانوا يترجمون ويتصفح ما يترجموا ،كاصطفن بن بسيل وموسى بن خالد الترجماني ويحيى بن هارون .

ومما يدل على طول باع حنين بالترجمة واتقانه لها ان يوحنا بن ماسويه قرا مرة قطعة من ترجمته المسماة "بالجوامع" او الفاعلات . فتعجب وقال : "ترى اوحى الله تعالى في دهرنا الى احد ؟" فقيل له كيف ؟ قال : "ليس هذا الا اخراج مؤيد بروح القدس" فقيل له : هذا اخراج حنين بن اسحق الذي طردته من مجلسك وامرته ان يبيع الفلوس ." ثم بعد هذا اصطلح حنين وماسويه فاقبل عليه يوحنا واحسن اليه . وترجم له حنين كتبا كثيرة .(٣)

وكانت اكثر الكتب اليونانيه التي نقلها حنين الى اللغة العربية كتبا طبية وخصوصا كتب جالينوس . حتى انه في غالب الامر لايوجد شيء من كتب جالينوس الا وهي من نقل حنين او باصلاحه لما نقل غيره . وينقل الاستاذ احمد امين عن الاستاذ مايرهوف ان حنين "ترجم الى السريانيه من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتابا . وترجم الى العربية منها تسعة وثلاثين . واصلح ما ترجمه تلاميذه وهي ستة الى السريانية ، ونحو من سبعين الى العربية ، واصلح معظم الخمسين كتابا التي كان قد ترجمها الى السريانية سرجيس الراسعيني

---

١) تاريخ الحكماء ص ١٧٤ .

٢) المصدر نفسه ص ١٧٥

٣) المصدر نفسه ص ١٧٥ ، اصيبعه ج ١ ص ١٨٦

وايوب الرهاوي وسواهما من الاطباء المتقدمين.(١)

ولحنين من الكتب التي الفها سوى ما نقله من كتب الحكماء في الطب وفي الطبيعة وفي الهيئة وفي فلسفة افلاطون وارسطو : ككتاب الاغذية وكتاب تقاسيم العسيين كتاب المد والجزر، كتاب في افعال الشمس والقمر، كتاب في خلق الانسان، مقالة في قوس قزح ، ومقالة في تولد الفروج بين فيها ان تولد الفروج انما هو من بياض البيضة واغتذاؤه من المح اغذى فيها ، كتاب تاريخ العالم والمبدا والانبياء والملوك والام والخلفاء والملوك في الاسلام . ومقدمة لكتاب فرفوريوس في المنطق ، كتاب ناطيغوريا على مذهب تامسطيوس(٢) وغيرها من الكتب التي لو ذكرناها لخرجنا عن القصد ، وتراها مثبتة في تاريخ الاطباء للقفطي وطبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة .

مات حنين سنة ٢٦٤ هـ وكان له ولدان داوود واسحق . فاما داود فانه لم يشتهر بين الاطباء ولايوجد له من الكتب ما يدل على براعته . اما اسحق فانه اشتهر وتميز في صناعة الطب وله تصانيف كثيرة . ونقل من الكتب اليونانية الى اللغة العربية كتبا عديدة الا ان جل عنايته كانت مصروفة الى نقل الكتب الحكمية مثل كتب ارسطو ثامسطيوس وغيره من الحكماء الخ و من الكتب كتاب الادوية المفردة ، كتاب في النبض ، كتاب المقولات ، كتاب ايساغوجي وهو المدخل الى صناعة المنطق ، كتاب اداب الفلاسفة ونوادرهم ، مقالة في التوحيد وغيرها(٣)

ويلحق بال حنين حبيش الاعسم الدمشقي وهو ابن اخت حنين ابن اسحق ومنه تعلم صناعة الطب ، وكان يسلك مسلك حنين في نقله وفي كلامه واحواله الا انه كان يقصر عنه . وحبيش هو الذي تمم مسائل حنين في الطب الذي وضعه للمتعلمين وجعله مدخلا الى هذه الصناعة . ولحبيش من الكتب : كتاب اصلاح الادوية المسهلة ، كتاب الادوية المفردة ، كتاب الاغذية ، كتاب في الاستسقاء ، مقالة في النبض على جهة التقسيم وغيرها .(٤)

وعلى الجملة فقد كان حنين ومدرسته خير من قدم الى تراث العربية نتائج

---

١) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٨٤

٢) راجع اصيبعة ج ١ ص ١٩٦ - ١٩٨ ، القفطي ١٧١-١٧٩

٣) اصيبعة ج ١ ص١٨٨ ، ٢٠٠

٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٠٢ .

القرائح اليونانيه " وجعلوا الثقافة اليونانيه في مختلف فروعها بين اعين العلماء من المسلمين والنصارى يقتبسون منها ، وينتفعون بها ، وكان عملهم هم وامثالهم غذاء للمتكلمين في مذاهبهم ولفلاسفة المسلمين الذين نبغوا في العصور التالية .(١)

ومن المترجمين العلماء قسطا بن لوقا البعلبكي وهو من نصارى الشام . كان طبيبا حاذقا وفيلسوفا ماهرا ومنجما وعالما بالهندسة والحساب وبارعا في كثير من العلوم ، فصيحا في اللغة اليونانيه والسريانية جيد العبارة بالعربية . اشتغل بنقل العلوم من اللغة اليونانية الى العربية وكان جيد النقل ، اصلح نقولا كثيرة . وفضلا عما نقله من الكتب له مؤلفات كثيرة في الطب والتاريخ والفلسفة والفلك والجبر والهيئة والهندسة والمنطق والادب والدين مايزيد على مائة كتاب اثبتها ابن ابي اصيبعه في كتابه طبقات الاطباء (٢) رحل كثيرا الى بلاد الروم وحصل من تصانيفهم الكثيرة . يقول ابن العبرى : " لو قلت حقا لقلت انه افضل من صنف كتابا لما احتوى عليه من العلوم والفضائل وما رزق من الاختصار للالفاظ وجمع المعاني ".(٣)

البطريق : كان في ايام المنصور امره بنقل اشياء من الكتب القديمة ولم نقل كثير جيد الا انه دون نقل حنين بن اسحق . وقد وجدت بنقله كتبا كثيرة في الطب من كتب ابقراط وجالينوس .

ومنهم بن ناعمة الحمصي نقل اثولوجيا ارسطو ، وزروبا بن ناعمة وكان قريب النقل وما هو بدرجة من قبله .

واسطفن بن باسيل وكان يقارب حنين بن اسحق في النقل الا ان عبارة حنين افصح واجلى .

ثم سرجيس الراسي من اهل مدينه راس العين ، نقل كتبا كثيرة وكان متوسطا في النقل ، وكان حنين يصلح نقله .

وعبد يشوع بن بهريز مطران الموصل وكان صديقا لجبرائيل بن بختيشوع وناقلا له

---

١) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٨٦

٢) اصيبعه ج ١ ص ٢٤٤ ، ابن النديم ص ٤١٠ ، قفطي ص ٢٦٢

٣) مختصر الدول ص ٢٥٩

ثم ماسرجيس وابنه عيسى كانا ينقلان من السرياني الى العربي ٠ اشتهرا بالطب ولهما فيه كتبا كثيرة ٠ (١)

ثم ابو بشر متى بن يونس من اهل ديرقنى ٠ واليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره ٠ وله تفسير من السرياني الى العربي ٠ فمن تفسيره : كتاب تفسير الثلاث مقالات الاواخر من تفسير ثامسطيوس، كتاب نقل الكون والفساد ، كتاب البرهان وغيرها كثير ٠ وفسر متى الكتب الاربعة في المنطق باسرها وعليها يعول الناس في القراءة ٠ وله من الكتب كتاب مقالة في مقدمات صدر بها كتاب انالوطيقا ، وكتاب المقاييس الشرطية ٠ وتوفي سنة ٣٢٨ هـ (٢)

ويحيى بن عدي النصراني اليعقوبي المذهب على خلاف المترجمين السريان وقد قرأ على متى بن يونس والفارابي ٠ وكان سريعا في النسخ يكتب في اليوم والليلة مئة ورقة ٠ وله كثير من الكتب والتفاسير والنقول : كتاب تفسير طوبيقا لارسطاليس ورسالة في ان الافعال لله تعالى والاكتساب للعبد ٠ (٣)

ثم آل ماسويه : يوحنا بن ماسويه ، وماسويه بن يوحنا ، وميخائيل بن ماسويه وكان لهم فضل كبير في ترجمة الكتب الطبية ٠ والفوا كذلك كتبا كثيرة في مختلف العلوم ٠ (٤)

وهناك كثير من النقلة والمترجمين العلماء في العصر العباسي قد يضيق بنا المقام ان اوردنا جميع سيرهم ، وقد اثبتهم ابن النديم في كتاب الفهرست ٢٤٠ ، ٢٤١ وابن ابي اصيبعة في الجزء الاول من كتابه طبقات الاطباء ص ٢٠٣ الى ٢٠٦ ٠

على ان من النصارى من اشتهر بغير النقل كما نقلنا وبرع في علوم مختلفة وخلف آثارا قيمة فيها على امتداد العصر العباسي ٠ من اطباء وعلماء وفلاسفة وبلغاء ومنجمين ٠

فمن الاطباء في العراق والجزيرة نجد الى جانب مما ذكرناهم من الاطباء المؤلفين : ابن بطلان ، ابن صفيه ، يحيى بن سعيد ، عيسى بن ماسه ، يحيى بن التلميذ، هبة الله التلميذ ، ابو سهل المسيحي ، يحيى بن عيسى جزله ، خصيب النصراني وغيرهم (٥)

---

١) راجع ابن ابي اصيبعه ج ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٦

٢) ابن النديم ص ٣٦٨ ، القفطي ٣٢٣ ، اصيبعه ج ١ ص ٢٣٥

٣) ابن النديم ص ٣٦٩ ، اصيبعه ج ١ ص ٢٣٥

٤) ابن النديم ص ٤١١ ، اصيبعه ج ١ ص ١٧٥ ، ١٧١ ، ١٨٣ ، القفطي ص ٣٨٠

٥) راجع اصيبعه ج ١ ص ٢٤١ ، ٢٥٨ ، ٢٣٩ ، ١٨٤ ، ٣٢٧ ، ٢٥٥ ، القفطي ص ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ابن خلكان ج ٢ ص ٢٥٢ ، ٣٤٥ ، الاغاني ج ١٢ ص ٩٩

وفي الشام نجد من الاطباء النصارى موفق الدين بن المطران ، ابو النجم النصراني ، ابو الفرج النصراني ، موفق الدين يعقوب ، عيسى بن حكم الدمشقي الطبيب النسطوري ، ابومنصور النصراني وكان في خدمة صلاح الدين [١]

ومن الاطباء في مصر ، بليطيان ، ونسطاس بن جريج وابنه ، وسعيد ابن البطريق بطريرك الاسكندرية ، وسهلان ويوسف النصرانيين ، وسعيد بن توفيل وغيرهم .[٢]

ومن العلماء الاطباء الذين برعوا في علوم كثيرة ، عيسى بن اسيّد النصراني ، وعبد الله بن مسرور النصراني ، واصطفن الراهب ، وابو الفرج ابن الطيب (+ ٤٠٦ هـ) كان كاتب الجاثليق ومتميزا في النصارى ببغداد يقرئ صناعة الطب في البيمارستان العضدى . وهو من الاطباء المشهورين في صناعة الطب وكان واسعا العلم كثير التصنيف خبيرا بالفلسفة كثير الاشتغال فيها . وقد شرح كتبا كثيرة من كتب ارسطاطاليس في الحكمة ، وكتب ابقراط وجالينوس .[٣]

ومن الفلاسفة واهل المنطق ابن زرعه وابن الخمار .[٤] وابو ذكريا دنجا النصراني . وله كتاب في ذكر ملوك الروم واليونانيين وفلاسفتهم وسيرهم واخبارهم . يقول المسعودى : "وكان متفلسفا جدلا نظارا جرت بيني وبينه مناظرات كثيرة ببغداد وبمدينه تكريت في الكنيسة المعروفة بالخضراء " وكان مدار البحث في الثالث وغير ذلك [٥] .

ومن المنجمين ابو علي النصراني المعروف بالدنداني ويوحنا القس ، وعبدالله ابن مسرور النصراني .[٦]

ناهيك عن زمرة كبرى من العلماء والكتاب والمؤرخين والبلغاء كيعقوب بن زكريا الكاتب من النصارى العباد وقد عاصر المسعودى المؤرخ ، وله كتاب يشتمل على انواع من العلوم كتاريخ الامم والبلدان وملوك الارم وغيرهم وهو كتاب يزيد على غيره من كتب النصارى[٧] ثم سعيد

---

١) اصيبعه ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٨٣ ، ٢١٤ ، ياقوت ــ الادباء ــ ج ٢ ص ١٥٧

٢) اصيبعه ج ٢ ص ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، المكين ٢٠٨ ، السيوطي ج ١ ص ٢٥٨

٣) اصيبعه ج ١ ص ٢٣٩ ، القفطي ص ٢٤٦ ، ابن النديم ص ٣٨٠ ، ٣٨٧

٤) ابن النديم ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، القفطي ص ٣٦١ ، ٢٤٥ ، اصيبعه ج ١ ص ٢٣٥

٥) التنبيه والاشراف ص ١٥٥

٦) ابن النديم ص ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، القفطي ٦٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٣٨٠

٧) المسعودى ــ تنبيه ص ١٥٥

ابن البطريق المعروف بابن الفراش المصرى وقد ذكرناه طبيبا • له كتاب في التاريخ انتهى بتصنيفه الى خلافه الراضي .[١] واثناسيوس الراهب المصرى له تاريخ رتب فيه ملوك الروم وغيرهم من الام وسيرهم واخبارهم من ادم الى قسطنطين • وابو زكريا دنجا النصراني وقد الف كتابا في سيرة ملوك الروم والبونانيين وفلاسفتهم واخبارهم • وقيس الماروني له كتاب حسن في التاريخ وابتداء الخليقة والانبياء والكتب والمدن والام وملوك الروم وغيرهم واخبارهم انتهى بتصنيفه الى خلافة المكتفي [٢].

وابو الفرج بن العبري صاحب تاريخ مختصر الدول • وابن الراهب • والمكين بن العميد صاحب تاريخ المسلمين • وابن البطريق وغيرهم • ثم ابراهيم بن عيسى النصراني وابن التستري وابن سريح وابو يوسف ايشع القطيعي وابو سعيد وهب ٨ بن ابراهيم النصراني [٣] • ومن بلغائهم ال ثوبه بن يونس، والفضل بن مروان بن ماسرخس،[٤]

على ان للنصارى ثقافة خاصة كان لها بعض الاثر على العلم والادب في العصر العباسي وقد تسرب الى المسلمين شيء منها لما كان بينهم وبين المسلمين من الاختلاط والاحتكاك وتبادل الاراء والمناظرات الدينية والعلمية • يتبين هذا الاثر في البدء في اطلاع العرب على الانجيل والاستشهاد باياته ونقل القصص الكثيرة منه كقصص الانبياء، زكريا ويحيى وعيسى ثم الحواريين وامثالهم • وكذلك ادخل مسلمة النصارى اقوالا من الانجيل دست على انها احاديث لرسول الله وقد انكرها بعض علماء المغرب وقبلها بعضهم .[٥]

وقد كانت المناقشات الدينية بين المسلمين والنصارى اكبر منبع لتسرب الثقافة • فالمسلمون كانوا يدعون الى الاسلام فيضطرهم ذلك الى ذكر الحجج والبراهين على صحة هذا الدين • وكان رؤساء النصرانية وعلماؤهم يقابلون هذه الحجج بحجج اخرى، فنشاء من هذا جدل كثير •

فمن هذه المناظرات تلك التي جرت في مجلس المامون بين عبد الله ابن

---

١) المسعودى — تنبيه — ص ١٤٥

٢) المصدر نفسه ص ١٥٤ — ١٥٥

٣) ابن النديم ص ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ •

٤) المصدر نفسه ص ١٨٧ ، ١٨٤ • معجم الادباء ج ٢ ص ٣٦٠

٥) ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٤٠

اسمعيل الهاشمي وعبد المسيح بن اسحاق الكندى عندما وجه الهاشمي الى عبد المسيح رسالة يدعوه فيها الى الاسلام فرد عليه عبد المسيح برسالة يدعوه الا فيها الى النصرانية . ورسالة عبد المسيح مطبوعة اليوم فى اللغة الانكليزية ومأخوذة من عدة نسخ واوراق مخطوطة نقلت من الهند ومصر والقسطنطينية . انتقد فيها عبد المسيح الاسلام انتقادا كبيرا ودرس حياة محمد وحروبه وازواجه وسجل بعض الاخطاء فيها . وتطرق الى كثير من الابحاث كاثبات نبوته ، ومادة القرآن والحج والجهاد وغيرها من الابحاث الدينية الاخرى الاسلامية وغير الاسلامية .(١)
وقد اشار الى هذه المناظرة البيروني فى كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية .(٢)

ومنها المناظرة التي جرت بين متى بن يونس القنائي الفيلسوف وبين ابي سعيد السيرافي فى مجلس الوزير ابي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات (٣) . وكان مجلس الوزير المذكور يومئذ يضم نخبة كبرى من العلماء والفقهاء منهم الخالدى وابن الاخشيد والكندى وابن ابي بشر وابن رباح وابن كعب وابو عمرو قدامة بن جعفر والزهرى وعلى بن عيسى بن الجراح وابو فراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهاشمي وابن يحيى العلوى ، ورسول ابن طغج من مصر ، والمرزباني صاحب بن سامان . فقال الوزير للحضور : اريد ان ينتدب منكم انسان لمناظرة متى بن يونس في حديث المنطق " فانه يقول لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشبه والشك من اليقين الا بما حويناه من المنطق وملكناه من القيام واستفدناه من واضعه على مراتبه وحدوده واطلعنا عليه من جهة اسمه على حقائقه ." فاحجم القوم واطرقوا . فقال ابن الفرات : والله ان فيكم لمن يفي بكلامه ومناظرته وكسر ما يذهب اليه ، واني لاعدكم فى العلم بحارا وللدين واهله انصارا وللحق وطلابه منارا ، فما هذا التغامز والتلامز اللذان الا تجلون عنهما . فرفع ابو سعيد السيرافى راسه وقال اعذر ايها الوزير فان العلم مصون فى الصدور وغير العلم المعروض فى هذا المجلس على الاسماع المصيخة والعيون المحدقة والعقول الجامدة ، والالباب الناقدة . لان هذا يستصحب الهيبة والهيبة مكسرة وتجلب الحيا والحيا مغلبة . وليس البراز فى معركة غاصة كالصراع فى بقعة خاصة . فقال ابن الفرات انت لها يا ابا سعيد ".

---

١) راجع The Apology of Al Kindy

٢) ص ٢٠٥

(٣)

لبابتدات المناظرة على طريقة السوال والجواب فى تعريف المنطق اولا وابوابه ونصوله وما يتعلق به تطرقوا منه الى اللغة والالفاظ والمعاني وصدق دلالتها حسبه . وهى مناظرة طويلة ذكرها باسنادها ياقوت الحموى فى معجم الادباء .(١)

ثم المناظرة التى جرت فى مجلس الامير احمد بن طولون فى مصر ولاندرى مبلغ صحتها . قال المسعودى : "وقد كان احمد بن طولون بمصر بلغه فى سنه نيف وستين ومايتين ان رجلا باعالي بلاد مصر من ارض صعيد له ثلاثون ومائة سنه ، من الانباط ممن يشار اليه بالعلم من لدن حداثته ، والنحر والاشراف على الاراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من اهل الملل ؟ وانه علامة بمصر وارضها من برها وبحرها واخبار ملوكها ....

امر السلطان احمد بن طولون فى بعض الايام ، وقد حضر مجلسه بعض اهل النظر ان يساله عن الدليل على صحة دين النصرانية فساله عن ذلك ، فقال القبطى : دليلي على صحتها وجودى اياها متناقضة متنافية تدفعها العقول وتنفر منها النفوس لتباينها وتضادها لانظر يقويها ولاجدل يصححها ولابرهان يعضدها من العقل والحس عند التامل لها والفحص عنها ... قال له السائل : وما التضاد الذى فيها ؟ قال : وهل يدرك ذلك او يعلم غاية من قولهم بان الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ووصفهم الاقانيم والجوهر وهو الثالوث ، وهل الاقانيم فى انفسها قادرة عالمة ام لا ، وفى اتحاد ربهم القديم بالانسان المحدث وماجرى فى ولاده وصلبه وقتله ، وهل فى الشنيع اكبر وافحش من اله صلب وبصق فى وجهه ووضع على راسه اكليل الشوك وضرب راسه بالقضيب وسمرت يداه ونخس بالاسنة والخشب جنباه ، وطلب الماء فسقي الخل فى بطيخ الحنظل ." فامسكوا عن مناظرته وانقطعوا عن مجادلته لما قد عظاهم من تناقض مذهبه وفساده ووهانته (٢)

ومنها المناظرة التي جرت كما ذكرنا انفا بين المسعودى وبين ابي ذكريا دنجا النصراني المتفلسف حول الثالث .

وهناك مناظرات عديدة التقى فيها المسلمون والنصارى بصورة مباشرة وغير مباشرة اهتم لها اكابر علماء المسلمين كالمسعودى وابن حزم والغزالي وابن جزلة وغيرهم (٣)

---

١) الجزء الثالث ص١٠٥ — ١٢٤

٢) مروج الذهب ج ٢ص ٣٧٢ ، ٣٨٧ وما بعد

٣) راجع Arnold: Appendix II p: 436.

وقد احصى الاستاذ "اردمان فريتش" Erdmann Fritsch في كتابه : "الاسلام والنصرانية في القرون الوسطى" Islam und Christentum im Mittelalter.
عدة كتب ورسائل وابحاث اسلامية في الرد على النصرانية في العصر العباسي منها :
رسالة عبد الله بن اسماعيل الهاشمي الى عبد المسيح بن اسحق الكندى (٨٢٠م)
وكتاب الدين والدولة لعلى بن صالح بن ربان الطبرى (٨٥٥م)
وكتاب الرد على النصارى لقاسم بن ابراهيم الحسني (+ ٨٦٠م)
ورسالة في الرد على النصارى لعمرو بن بحر الجاحظ (+ ٨٦٩م)
ورسالة حسن بن ايوب (٩٨٨م)
وبحث في كتاب الفصل في الملل والنحل لابن حزم (+ ١٠٦٤ م)
وكتاب "بيان الواضح والمشهود من فضائح النصارى واليهود "لصالح بن الحسين الجعفرى (١٢٠٠م) ؛ وغيرها .

ولم يحدثنا المؤرخون عن رسائل مدونة كتبها علماء النصارى غير رسالة ابن اسحق الكندى . ولا تدل تلك المناقشات والمناظرات وذلك الجدل الا على معرفة المسلمين لكتب النصارى وعقائدهم ومعرفة النصارى لكتب المسلمين ومعتقداتهم .
وعلى الرغم من ان العلماء المسلمين قد سجلوا على انفسهم عموما نقصا كبيرا في معرفة النصرانية وادابها فهناك بعض الاستثناءات . في التاريخ عني المسلمون بتاريخ النصارى ودينهم . فاليعقوبي قد ذكر في تاريخه مقتبسات من الانجيل . وفي تاريخ الطبرى طرف من تاريخ النصارى ، فيه خبر الحواريين وخبر جرجيس ، واخبار اصحاب الكهف ، ونبذ من الكتاب المقدس . وكذلك فعل المسعودى في كتابه التنبيه والاشراف . فقد اشار الى ترجمة التوراة السبعينيه وعرض خلاصة تاريخ القسطنطينيه مع الماعة دينه بالمجامع العامة والمذاهب النصرانية المختلفة وعلم اللاهوت وعلمائه . والبيروني في كتابه " الاثار الباقية اورد فصولا عديدة عن فرق النصارى واعيادهم المختلفة وتقسيم الشهور وبرهن على اطلاع واسع في تلك الامور . وابن حزم كانت له معرفة جيدة بالكتاب المقدس وعلم اللاهوت النصراني .
والقزويني كذلك يستعرض الاعياد النصرانية ومواقفتها حسب الايام والشهور في كتابه "عجائب المخلوقات " والمقريزى في كتابه الخطط والاثار يتوسع كثيرا في ذكر النصارى واصفا اعياده ، واحتفالاتهم ملما بمذاهبهم المختلفة مستعرضا اسماء بطاركة الاسكندرية

واخبارهم باسطا على سبيل الايجاز تاريخ النصرانية .

ويذهب بعض الكتاب المعاصرين كفون كريمر Von Kremer ونيكلسون Nicholson وتوماس ارنولد T.Arnold الى ان فرقة المعتزلة نشات من النصرانية ، لان اباء الكنيسة كانوا يتجادلون في حرية الارادة وان الانسان مجبور او مختار . وبعبارة اخرى في مسالة القدر ، كما كانوا يتجادلون في صفات الله . وقد تسربت هذه العقائد الى المعتزلة من طريق النصارى (١) ولكن الاستاذ احمد امين لا يرى هذا الراى . بل يرى ان مسالة القدر صدرت عن المسلمين انفسهم . وسبب ذلك ان القرآن الكريم فيه ايات ظاهرة الجبر وايات ظاهرة الاختيار . ووردت احاديث كثيرة عن النبي تتعرض للقدر . ففكرة القضاء والقدر فكرة تحدث حول كل دين تقريبا . وقد كان المعتزلة اكثر ما يتجادلون مع مجوس الفرس (٢)

<u>الاثـر الادبـي :</u>

اما في الادب العربي فلم يكن اثر النصارى جليا فيه لان اكثر النصارى انقطعوا في الخلافة العباسية الى العلوم الفلسفية كالفلسفة والطب وقد اكبوا على درس الاثار القديمة فاهتموا بنقل تاليف اليونان والرومان والسريان الى اللغة العربية . على ان النصارى اهتموا ولو الى حد ما ، باللغة العربية وفنونها الانسانية من نثر وشعر . وادخل الشعراء النصارى في شعرهم العربي شيئا من اداب النصرانية .ولم يشتهر في العصر العباسي كثير من النصارى بالشعر العربي . وقد حشر الاب شيخو في كتابه "شعراء النصرانية بعد الاسلام" طائفة كبرى من الرجال النصارى زعم انهم شعراء مجيدون وهم ابعد ما يكون عن الشعر . وكان يكفي للاب المذكور ان يقول الرجل منهم البيت او البيتين او الثلاثة او القصيدة المتكلفة لكي يحشره في عداد الشعراء . فضلا عن ان هؤلاء الناس الذين ادعى شيخو انهم شعراء هم ارباب صناعة وعلم ، كاسحق بن حنين الطبيب ويحيى بن عدي المنطقي وابن البطريق المترجم ، وابن بطلان المتطبب وابو الفرج يحيى بن التلميذ الحكيم المتطبب ، وهبة الله بن

---

(١) راجع ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٤٤ — Arnold p. 74

(٢) ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٤٦

التلميذ الحميم وعبرة كثيرون ومن شاء برهانا على ذلك فليتصفح القسم الثالث من كتاب شيخو المذكور .

ومن الذين اشتهروا في الشعر في العصر العباسي ابو نابوس النصراني . قال في العمدة : " قال ابو نابوس رجل نصرانيا من اهل الحيرة منقطعا الى البرامكة " (١) يمدحهم فيجزلون له العطاء . قال ابو نابوس : " دخلت على جعفر بن يحي في يوم بارد فاصابني البرد فقال : يا غلام الق عليه كساء من اكسية النصارى . فطرح علي كساء من خز قيمته الف دينار . قال : فانصرفت الى منزلي فاردت ان البسه في يوم عيد فلم اصب له في منزلي ثوبا يشاكله فقالت لي بنية لي : اكتب الى الذي وهبه لك حتى يرسل اليك بما يشاكله من الثياب فكتبت اليه ....

ابا الفضل لو ابصرتنا يوم عيدنا   رايت مباهاة لنا في الكنائس

فلا بد لي من جبة من جبابكم   ومن طيلسان من خيار الطيالس ..(٢)

ومن شعره ما رواه ابو الفرج الاصفهاني على اثر مهاجاة كانت بينه وبين ابي العتاهية الشاعر قال : " لما هاجى ابو نابوس النصراني كلثوم بن عمرو العتابي جعل ابو العتاهية يشتم ابا نابوس ويضع منه ويفضل العتابي عليه ، فبلغه ذلك فقال فيه :

قل للمكنى نفسه   متخيرا بعتاهية

والمرسل الكلم القبيـــح وعته اذن واعيـــة

ان كنت سرا ســوتني   او كان ذاك علانيـــة

فعليك لعنة ذى الجلا   ل وام زيد زانيــة

يعني ام ابا العتاهية وهي ام زيد بنت زياد " ...(٣)

ولما اوقع الرشيد بجعفر البرمكي صنع ابو نابوس ابياتا وانشدها الرشيد يشفع عنده للفضل بن يحي :

امين الله هب فضل بن يحي   لنفسك ايها الملك الهمام

وما طلبي اليك العفو عنـــه   وقد قعد الوشـاة به وقاموا

ارى سبب الرضى عنه قويـا   على الله الزيادة والتمام ...(٤)

---

(١) ابن رشيق ص٣٣

(٢) البغدادي ــ تاريخ بغداد ــ نسخة باريس ص ٨٢ عن شيخو شعراء النصرانية ص ٢٤٢

(٣) الاغاني ج ٣ ص١٢٩

(٤) العمدة ص ٣٣ ، زيادة للايضاح راجع شيخو شعراء النصرانية ص ٢٤١ ــ ٢٤٢ .

ومن الشعراء النصارى بشر بن هارون (+ ٢٨٥ هـ) يقول ابن تغري بردي انه كان
شاعرا هجاء خبيث اللسان . كتب * مرة الى ابراهيم الصابي :

حضرت بالجسم وقد كنت لو   بالنفس لما ترني حاضرا
انطقني بالشعر حبي لكم   ولم اكن من قبلها شاعرا

فكتب اليه الصابي تحت خطه ، ولا بعدها (١)

اما في النثر فالنصارى الذين كانوا يكتبون اما في اللغة السريانية او القبطية التي
لا تدركها العوام وانصاف المتعلمين . وقد شذ عن هذه القاعدة وخرج عن التقليد الادبي
ساويرس بن المقفع فكتب بالعربية الدارجة مما انسبه استحقاق العلماء المتعصبين بان ينسب القديم .
على ان النصارى ساعدوا على الاحتفاظ بكيانهم الادبي المستقل عن الكيان الادبي العربي بان
كتبوا الاداب العربية ولكن باحرف قبطية او سريانية . وعلى الرغم من انهم استخدموا اللغة
العربية في كتاباتهم فيما بعد الا ان عملهم الادبي بقي بعيدا عن المجرى الادبي العربي العام(٢)
على ان الاثر الذي تركه النصارى في النثر والشعر يتمثل اولا بتلك المواعظ القصيرة
التي كان يتعاطاها ويتلقفها ادباء العرب عن الرهبان وعن الكتب النصرانية ، وثانيا بتلك الاشعار
العربية التي تضمنت المفردات النصرانية من اعياد واقسام .

يقول ابن قتيبه " قال بعضهم : اتيت الشام ، فمررت بدير حرملة ، وبه راهب
كان عينيه عدلا مزاد ، فقلت : ما يبكيك ؟ فقال : يا مسلم ، ابكي على ما فرطت فيه من
عمري ، وعلى يوم مضى من اجلي لم يتبين فيه عملي . قال : ثم مررت بعد ذلك فسألت عنه ،
فقالوا اسلم وغزا فقتل في بلاد الروم " . (٣) ويقول ابن قتيبه كذلك ، نقلا عن الانجيل : " لا
تجعلوا كنوزكم في الارض حيث يفسدها السوس والدود وحيث ينقب السراق ، ولكن اجعلوا كنوزكم
في السماء فانه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم . ان العين سراج الجسد فاذا كانت عينك
صحيحة كان جسدك كله مضيء . وانه لا يستطيع احد ان يخدم ربين اثنين الا ان يحب احدهما

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ق ٢ ص ٥٩ طبعة اميرئية .

(٢) Tritton p: 172

(٣) عيون الاخبار ٢ ص ٢٩٧

ويبغض الآخر ويؤثر احدهما ويهين الآخر ، فكذلك لا تستطيعون ان تعملوا لله وللمال ...
لا تعطوا القدس للكلاب ولا تلقوا لؤلؤكم للخنازير ، سلوا تعطوا وابتغوا تجدوا ، واستفتحوا
يفتح لكم ، وانظروا الذين تحبون ان يأتي الناس اليكم فأتوا مثله اليهم ...(١) وجاء في العقد :
قال عيسى عليه السلام للحواريين : " لا تنظروا في اعمال الناس كأنكم ارباب وانظروا في اعمالكم كأنكم
عبيد فان الناس رجلان مبتلى ومعافى فارحموا اهل البلاء واحمدوا الله على العافية (٢)
ولقي رجل راهبا فقال : "يا راهب صف لنا الدنيا فقال الدنيا تخلق الابدان وتجدد الامال
وتباعد الامنية وتقرب المنية . قال : فما حال اهلها ؟ قال : من ظفر بها تعب ومن فاته نصب
قال : فما الغنى عنها ؟ قال : قطع الرجاء منها . قال فاين المخرج ؟ قال : في سلوك
المنهج . قال : وما ذاك ؟ قال : بذل المجهود والرضا بالموجود (٣) " . الى غير ذلك من امثال
هذه القطع النثرية التي تبعثرت هنا وهناك في بطون الكتب العربية وخاصة في كتاب عيون الاخبار
لابن قتيبه والعقد الفريد لابن عبد ربه .

فلما ان الاديار كانت محطا للخلعاء من الشعراء والمجان والادباء يخرجون
اليها للتنزه الى فتيانها وفتياتها والتغني بهم ، بشعر ماجن عذب . وقد رأينا تلك الصورة
الاجتماعية التي تعكسها لنا الحياة في الاديار . ولما كانت هذه الاديار مباءة لذوي الصبابة
من الشعراء الماجنين نشأ حولها ادبا غزيرا وشعرا كثيرا له قيمة ادبية رائعة واثر فني ممتع وقد
عرضنا في فصل سابق لنماذج من تلك الاشعار (٤)

على ان القصيدة التي تفردت من بين الاشعار التي قيلت في الديارات اجمعها
هي قصيدة مدرك بن علي الشيباني التي يتغزل بها بفتى من فتيان الاديار . وهي قصيدة
طويلة زاخرة بالمفردات النصرانية ابتداها بالناموس والمستعطفات وبعض الصليب والزنار يستجلب
ميله وعطفه ويقسم بها جميع الاقسام النصرانية يستحلفه بها ليرد لمقته : بالناموس والبيعة
والناقوس ومارت وبولس وشمعون وبطرس ، وبالاعياد ؛ بالشعانين وعيد شعيا والحواريين ومارعبد .

---

(١) عيون الاخبار ج ٢ ص ٢٧٠
(٢) ابن عبد ربه ج ١ ص ٣٥٦
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٧١
(٤) راجع فصل الكنائس والاديرة من هذا الكتاب .

وبحرمة الاسقف والمطران والجاثليق والقس والشماس والبطرك الابير والرهبان والى اخر ذلك مما يدل على معرفة غزيرة بالحياة النصرانية الدينية ·

قال ياقوت : كان مدرك بن علي الشيباني "شاعرا اديبا فاضلا وكان كثيرا ما يلم بدير الروم في الجانب الشرقي ببغداد · وكان بدير الروم غلام من اولاد النصارى يقال له عمرو بن يوحنا وكان من احسن الناس صورة واكملهم خلقا ··· فعشقه مدرك وهام به "ومن شعره فيه المزدوجة المشهورة » وهذه هي بعض اجزاء القصيدة »

من عاشق ناء هواه داني   ناطق دمع الجسد بالافصاح

معذب بالصد والهجران   موثق قلب مطلق اللسان

الى غزال من بني النصارى   عذار خديه سبى العذارى

رئم بدار الروم رام قتلي   بمقلة كحلاء لا من كحل

الى ان يقول :

يا ليتني كنت له صليبا   اكون منه ابدا قريبا

ابصر حسنا واشم طيبا   لا واشيا اخشى ولا رقيبا

يا ليتني كنت له قربانا   الثم منه الثغر والبنانا

او جاثليقا كنت او مطرانا   كيما يرى الطاعة لي ايمانا

يا ليتني كنت له زنارا   يديرني في الخصر كيف دارا

حتى اذا الليل طوى النهارا   صرت له حينئذ ازارا

يا عمرو ناشدتك بالمسيح   اذ سمعت القول من فصيح

يخبر عن قلب له جريح   باح بما يلقى من التبريح

يا عمرو بالحق من اللاهوت   والروح روح القدس والناسوت

ذاك الذي في مهده المنحوت   عوض بالنطق عن السكوت

بحق محي صورة الطيور   وباعث الموتى من القبور

ومن اليه مرجع الامور   يعلم ما في البر والبحور

بحق قوم حلقوا الرؤسا   والجموا طول الحياة بؤسا

وقرعوا في البيعة الناقوسا   مشمعلين يعبدون عيسى

بحق مطران مريم وبولس   وحق شمعون الصفا وبطرس
بحق دانيل بحق يونس   بحق حزقيل وبيت المقدس
بحق اعياد الصليب الزهر   وعيد اشموني وعيد الفطر
وبالشعانين العظيم القدر   وعيد مرماري الرفيع الذكر
بحق ما في محكم الانجيل   من محكم التحليل والتحريم
وخبر ذي نبأ جليل   يرويه جيل قد مضى عن جيل
بحرمة الاسقف والمطران   والجاثليق العالم الرباني
والقس والشماس والديراني   والبطرك الاكبر والرهبان
بحرمة المحبوس في اعلى الجبل   ومار نقولا حين صلى وابتهل
وبالكنيسات القديمات الاول   وبالسليح المرتضى وما فعل
بحرمة الاسقونيا والبيرم   وما حوى مفرق رأس مريم
بحرمة الصوم الكبير الاعظم   وحق كل كاهن مقدم
بكل قداس على قداس   قدسه القس مع الشماس
وشربوا يوم الخميس الناس   وقدموا الناس لكل حاسي
الا رغبت في رضا اديب   باعده الحب عن الحبيب
فذاب من شوق الى المذيب   اعلى [illegible] ماء ايسر التقريب .. (١)

ومن هذه الاشعار كذلك قول احدهم :

يا ليلة ليس لها صبح   وموعدا ليس له [illegible]
من شانني مرض وعنده ا[illegible] وا[illegible] و وا[illegible]
وفي الشعانين لواني به   و[illegible] انفس الموعد [illegible]
بالله استعدى على ظالم   لم يغن عن الصوم والفطر (×)

---

(١) معجم الادباء ج ٧ ص ١٥٢ - ١٥٨

(×) الميلاد والسلاق والذبح اعياد النصارى .

وعلى الجملة كان للحضارى ثقافة خاصة هي غير التي رأيناها متمثلة فيما نقلوه او فسروه او شرحوه من العلوم اليونانية والرومانية ، تسربت الى المسلمين في العصر العباسي وتركت اثرا في ثقافتهم وكانت عنصرا من عناصرها في ذلك العصر ، وقد ظهرت هذه الاثار في التفسير والحديث والعلوم الدينية والعادات الاجتماعية والمجارى الادبية وغيرها .

- - - - - - - - - - -

- - - - - - - -

- - - -

- -

-

الباب السادس

شعور النصارى نحو الدولة

اذا كان المؤرخون يختلفون حول حادثة وقعت في زمان ومكان ما ويعللونها تعاليل متباينة ويخضعونها لاحكامهم العصرية ، فكيف بهم اذن لو حاولوا ان يشرحوا آمال وما تطويه ضمائرهم من عواطف ومشاعر ؟ وقد يصعب علينا والحالة هذه ان نقدر شعور قوم نحو قوم اخر فصلهم عنا الزمان السحيق وربما لا نعرف من اخبارهم واعمالهم الا نتفا قليلة مشعثة خلفها لنا الاخر لا نعلم مقدار عواطفهم وحبهم وتوجيههم الحقيقة فيما ينقلون ويدونون .

وسيكون سبيلنا في تقدير شعور النصارى نحو الدولة الرجوع الى الروايات القليلة العامة التي لا يمكن ان نتخذها اساسا لحكم عام نخرج منه ونحن واثقون من صدق القول وعدالة الحكم .

وجد العرب في فتوحهم لبلاد الشام ومصر والسواد وباقي البلاد اراضي قوميات مختلفة دينية وجنسية . وكان لا بد وان ينشأ بين الشعب والمسود او بين القاهر والمقهور بعض التمرد والحقد ، ويثور الاضطراب . ولكن يظهر ان نصارى تلك البلاد الذين لم يكونوا يملكون من امرهم شيئا ولا نفعا لسيطرة الاسياد الروم البيزنطيين عليهم — قد تعبوا من سطوة هؤلاء وشدة وطأتهم وضغطهم ما جعلهم يستكينون لحكم العربي وينصرون القوم ويساعدون العرب على الروم . وعصر الراشدين حافل باخبار تلك المعونة التي قدمها اهل البلاد المفتوحة من نصارى العرب او من نصارى الاجناس الاخرى الى العرب الفاتحين وقد بينا فيما سبق من الفصول نتفا منها . فقد صار اهل الذمة اشداء على عدو المسلمين وعونا لهم وترى رجالا كثيرين منهم يتجسسون الاخبار لحسابهم لما راوه من وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم (1) وقد حفظ العرب هذه المنة وذلك الجميل فتساهلوا في شروط الصلح واخذوا على انفسهم العهود والمواثيق بالوفاء لهم ورعايتهم وتركوا اهل البلاد يتمتعون بعاداتهم وتقاليدهم الموروثة ورموز عباداتهم بكل حرية .

---

(1) ابو يوسف ص ١٦٥

ولكن كما قلنا انه على الرغم من تلك العهود فسياسة الفاتحين المحتلين تختلف باختلاف الظروف والمناسبات وباختلاف الحكام واهوائهم الخاصة . فاذا كان العرب قد ضمنوا للنصارى احوالهم الشخصية والمدنية فالرابطة الدينية التي تصل النصارى بالروم لم تزل بعد من النفوس . وكان بعض نصارى الشام مثلا يعترفون لصاحب القسطنطينية بسيادته عليهم واذا حدث ما يمس تلك السيادة احتج اباطرة الروم على ذلك . فالوليد بن عبدالملك صعد المنبر مرة فسمع صوت ناقوس منبعث من بيعة فامر بهدمها . فكتب اليه الاخرم ملك الروم ان هذه البيعة قد اقرها من كان قبلك فان يكونوا اصابوا فقد اخطأت وان تكن اصبت فقد اخطأوا . (١) ولما اسر عبدالله بن كليب وهو يحارب مع القائد مسلمة بن عبدالملك تحت ابواب القسطنطينية ، اراد القيصر قتله . فقال : والله لئن قتلتني لا تبقى بيعة في الاسلام الا هدمت (٢)

فيجب ان نلاحظ ان الشقة مهما تباعدت بين نصارى البلاد المفتوحة وبين الروم الذين يختلفون عنهم في العنصر فالرابطة الدينية في تلك الايام هي من اهم العوامل التي كانت تحدث التفرقة بين الناس اكثر مما تفعل الجنسية او العنصر . وما دام العرب قد اندفعوا الى فتح البلدان بقوتهم المؤيدة بروح الاسلام ، وما دامت الدولة المسيطرة اسلامية في الدرجة الاولى تحكم بتعاليم الاسلام ، فلا بد وان ينزع بعض النصارى على الاقل بعواطفهم الى الروم اعداء العرب ويكونوا لهم عيونا يبثون اليهم الاخبار والوثائق ويدلونهم على مواطن الضعف في الدولة العربية وهذا القول لا يصدق على النصارى العرب الذين اتجهوا بعواطفهم نحو اخوانهم العرب المسلمين بدافع العصبية التي كان لها شأن يذكر في تلك الايام .

وقد كان للسياسة التي انتهجتها الدولة الاموية نحو رعاياها ما ادى الى الحسن في تخدير الاعصاب واستهواء الناس واكتساب عطفهم . فالدولة الاموية كانت دولة عربية لم يهمها من الدين الا ما يخدم شعار الدولة المسيطرة . وهذا لا يمنع - الى جانب ما يقوم به بعض

---

(١) المسعودي - مروج ج ٥ ص ٣٨١

(٢) ابن رسته ص ١٩٣

النصارى من اظهار الروم على عورات المسلمين — ، ان نرى النصارى كذلك يثور على الدولة الاموية ويتمردوا عليها النصارى لاسباب اهمها اشتداد عسف الحكام واثقال كاهلهم بالضرائب ·

وقد تنبه العرب منذ البدء الى ما كان يقوم به بعض النصارى من التجسس لحساب الاعداء الخارجيين · فعمرو بن العاص استحث مال قبطي من نهب مصر لانه استقر عنده انه يظهر الروم على عورات المسلمين ويكتب اليهم بذلك · (١) والذي يقرأ في الكتب والعهود التي اعطاها العرب للنصارى يرى انها بكاملها تقريبا تشترط فيما تشترط على النصارى ان لا يكونوا عيونا للروم على المسلمين ينقلون اليهم اخبارهم · فاشترط على اهل قبرص ان يعلموا المسلمين بسير عدوهم من الروم · (٢) وكان اهل مدينة عربسوس وهي ثغر قرب المصيصة يظهرون الروم على عورات المسلمين في زمن عمر بن الخطاب فاجلوا عنها وخربت المدينة · (٣) وابو عبيدة صالح الجراجمة على ان يكونوا اعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح · ولكنهم رغم ذلك بقوا يكاتبون الروم ويمالئونهم الى ان فرقهم القائد مسلمة بن عبد الملك سنة ٨٩ هـ واخرب مدينتهم (٤) ومما يجب ان ننبه اليه ان اكثر هذه الروايات اسلامية وانه تعوزنا المصادر النصرانية للتأكد من حقيقة تلك المواقف على الضبط ·

ومهما يكن من امر فان الشدة التي اخذ بها النصارى في اواخر العهد الاموي كانت كافية لتوتر الاعصاب واثارة ما انطمر من الضغينة التي سببها الاختلاف الديني ·

قامت الدولة العباسية فقويت شوكة الدين الاسلامي لان مؤسسي هذه الدولة هم من احفاد العباس عم النبي محمد · وبعد ان كانت الدولة الاموية تسير سياسة عربية وتعمل على اعلاء شأن العرب ، اتبعت الدولة العباسية نهجا آخر · وما دامت هذه الدولة قد قامت على اكتاف المسلمين من غير العرب فهي مسوقة الى ان تجعل سياستها دينية صرفة تجمع رابطة الاسلام بين شعوبها المختلفة · وكان من المتوقع ان يصير اصحاب المذاهب الاخرى شزرا الى الدولة الجديدة ويستوجسوا خيفة منها وينفروا منها في السر والعلانية · وما النزاع الذي حصل بين العرب والبربر بعد ذلك الا من جراء النزعة الحربية التي كان ينزعها

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٨٧.

(٢) البلاذري ص ١٥٢.

(٣) ابو عبيد — الاموال ص ١٦٩

(٤) البلاذري ص ١٥٩ — ١٦١

بعص الخلفاء . وجل ما كان يشغل الرأي العام الفارسي غموض سياسة العباسيين ، فا لدولة اما ان تكون مسلمة بكل ما في هذه الكلمة من معنى فيحق لهم ولغيرهم من المسلمين ان يساهموا في مستقبل الدولة ويشاطروها بالحكم ، واما ان تكون دولة عربية فيصدوا عنها وهم الذين نضوا على سلطة الامويين وناوءوها . وكانت هذه المنازعات تختفي وتظهر بين حين واخر طبقا للسياسة التي ينتهجها ولاة الامر .

اما الحال مع النصارى فمختلف نوعا ما . فالفرس كانوا ينازعون العباسيين على السلطة سرا وعلانية ، والنصارى انما تغيروا على الدولة لان الدين الاسلامي اصبح له المقام الاول ، واصبح المسلمين معه الشأن الاعلى . ولكن مع هذا التغيير لم يبلغ رد الفعل عندهم من العنف ما بلغ اليه عند الفرس . والذي وسع الشقة كذلك بين الدولة العباسية وبين النصارى او بين المسلمين وبينهم ، ان الاسلام وهو العصمة الدينية السياسية كان يحصر الى الكنيسة النصرانية كدولة ضمن دولة ويسمح لها ان تحتفظ بحقوقها الدينية والمدنية ، مما يدفع هؤلاء لان يولوا وجوههم شطر القوى الكبرى التي تدين بالنصرانية وان اختلف عنهم في المذهب . هذا ان لم يكونوا منقسمين على انفسهم حسب المركز الذي هم فيه .

والعلاقات كذلك كانت بطبيعة الحال تتبدل مع كر الايام والسنين فاشتداد الروح الرجعية في العصور المتأخرة من العصر العباسي ، والحروب الصليبية عملت على توسيع الخلاف بين الدولة والنصارى .

ويجب ان نلاحظ ونحن نقدر شعور النصارى نحو الدولة ما المفهوم من الدولة عامة . فالدولة العباسية لم تبق على وحدتها وانما تجزأت الى امارات ودويلات عديدة انفصلت عن الكيان المركزي واستقلت عنه . لكن على الرغم من هذا كله بقي للخليفة القابع في بغداد سلطة روحية على جميع تلك الدويلات ، معترف بها من اصحابها في حينه كل حين . واذا ما رأينا تحدد السلالات الحاكمة على تلك المناطق وتعاقبها في كل الاحوال ، واذا ما رأينا اصحاب المطامع والمطامح يقومون بين حين وآخر ضد هذه الامارة او تلك او حتى في الاستيلاء على تلك ، فانما هم لم يثوروا على الدولة العباسية المتمثلة في الخليفة وانما على زعيم هذه المنطقة او صاحب الاخرى ليجردوه من النفوذ ويصبحوا هم اصحاب السيطرة والسلطان .

وعلى كل حال فشعور النصارى نحو الحكومة المركزية او نحو ولاياتها المستقلة ليس

بشعورين متباينين وانما هو شعور واحد تابع لشعورهم العام نحو رمز الدولة العباسية ، ويختلف بحسب اختلاف سياسة الحكام والملوك المستقلين نحوهم .

لا شك ان بعض النصارى لم يخلصوا للدولة وقد خلف لنا التاريخ نبذا قليلة تشهد بتنكرهم عليها وتجسسهم لحساب دولة خارجية عدوة ومساعدتهم لها . فالخليفة هارون الرشيد يأمر بهدم الكنائس في الثغور الاسلامية واخذ النصارى بلباس خاص يخالف لباس المسلمين على اثر عودته من حرب جرت له مع الروم البزنطيين سنة ١٩١ هـ . واكثر الظن ان نصارى تلك الثغور كانوا يمالئون الروم ويساعدونهم خفية . (١)

وكثيرا ما كان بعض النصارى يسهلون للروم الفتح والغزو في بلاد المسلمين . من هذا ما حدث سنة ٣٥٩ هـ عندما ملك الروم مدينة انطاكيه . "وسبب ذلك انهم حصروا حصنا بالقرب من انطاكيه يقال له حصن لوقا وانهم وافقوا اهله وهم نصارى على ان يرتحلوا منه الى انطاكيه ويظهروا انهم انما انتقلوا منه خوفا من الروم ، فاذا صاروا بانطاكيه اعانوهم على فتحها . وانصرف الروم عنهم بعد موافقتهم على ذلك . وانتقل اهل الحصن ونزلوا بانطاكيه بالقرب من الجبل الذي بها . فلما كان بعد انتقالهم بشهرين وافى الروم مع اخي نقفور الملك وكانوا نحو اربعين الف رجل . فاحاطوا بسور انطاكيه . وصعدوا الجبل الى الناحية التي بها اهل حصن لوقا . فلما رآهم اهل البلد قد ملكوا تلك الناحية طرحوا انفسهم من السور وملك الروم البلد ووضعوا في اهله السيف" . وحملوا منهم سبيا يزيدون على عشرين الف انسان . (٢)

وقد تضعف الرابطة الدينية بعض الاحيان او يمحي ذكرها وتهب عليها الخواطر فتوقظها الحروب التي تقع بين المسلمين وبين الروم او بينهم وبين الافرنج فيندفع نصارى الشرق الشمس ، تهدم كنائسهم وتصادر اموالهم وهذا حري بان يجعلهم يضمروا الحقد للمسلمين ويكيدوا لهم سرا وجهرا . ففي زمان الحاكم بامر الله كانت حرب بين الروم وبين المسلمين فاخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان لهم في القسطنطينية . فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على اهل مذهبهم في بلاده . فهدمت كنائس عديدة . ولما تولى الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله الحكم بعد الحاكم عقدت الهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ... هـ . واتفقا

---

(١) الطبري المجلد الثالثة ص ٧١٢ . Tritton p.108 S.A, II,3

Muir: Califate p. 475.

(٢) ابن الاثير ج ٨ ص: ٤٤٤ .

على اعادة بناء جامع القسطنطينية وان يعاد بناء ما هدم من الكنائس.[1] وامثال هذه الحادثة كثير في شتى العصور.

ومما لا شك فيه ان النصارى قد لعبوا دورا هاما في مساعدة الصليبيين الافرنج. فكان بعض النصارى الشرقيين يشعر بانه اقرب ما يكون الى الصليبي الغربي وان اختلف عنه في الجنس والعنصر والعادات والتقاليد وفاقه في اختلاف الاهواء والمشارب، وقد لا يجمع برابطة الاجتماع واللغة واتفاق المصالح العامة مع العربي المسلم الذي يشاطره الحضر ويقاسمه الخيرات في ارض واحدة وتحت سماء واحدة. ففي سنة ٤٩١ هـ. لما حاصر الفرنج مدينة انطاكيه وكان صاحبها ياغي سيان "خاف من النصارى الذين بها فاخرج المسلمين من اهلها وليس معهم غيرهم وامرهم بحفر الخندق. ثم اخرج من الغد النصارى لعمل الخندق ايضا ليس معهم مسلم. فعملوا فيه الى العصر. فلما ارادوا دخول البلد منعهم وقال لهم: انطاكيه لكم تهبونها لي حتى انظر ما يكون منا ومن الفرنج. فقالوا له: من يحفظ ابناءنا ونساءنا؟ فقال: انا اخلفكم فيهم. فامسكوا واقاموا في عسكر الفرنج".[2] وجدير ان نلاحظ ان بعض المدن كانت تحوي عناصر اجنبية. فانطاكيه مثلا كانت فيها جالية يونانية وافرة العدد وربما فعلت هذه الجالية غير ما هو صالح للدولة المسلمة الحاكمة.

واكثر من أعان الصليبيين من نصارى البلاد كما كانوا قد اعانوا الروم ضد المسلمين من قبل،[3] نصارى المردة والموارنة. وقد كانوا لهم خير عون على المسلمين. فبعد ان رتب الافرنج امور انطاكيه وهموا بالمسير الى بيت المقدس ليملكوه، اتاهم قوم من المردة من جبل سير والضنية وبلاد جبيل وتلك التخوم ورحبوا بهم. وسار معهم جماعة منهم يهدونهم الطرقات والمسالك حتى اوصلوهم الى القدس. وكانوا ينجدونهم في مواقعهم مع المسلمين ويمدونهم بالميرة والذخائر وما لديهم من صنوف السلاح.[4] وفي سنة ٥٠٤ هـ. (١١١٠ م) حاصر ملك الفرنج بيروت برا وبحرا ولما تعذر عليه فتحها استنجد بافرنج السواحل وامراء المردة فانجدوه. ودخلوا البلد فنهبوه واحرقوه وقتلوا واسروا من وجدوه من التاجر والامراء.[5]

---

(١) المقريزي ج ١، ص ٣٥٥ (٢) ابن الاثير ج ١٠، ص ١٨٧، ابن القلانسي ص ١٣٤ - ١٣٥ (٣) ابن القلاعي عن الدويهي ص ٩٩.

(٤) الدويهي ص ١٠١

(٥) الغرر الحسان - حيدر الشهابي، ج ١، ص ٣١٧.

وبقى الموارنة يوالون الافرنج ويمدون لهم يد المساعدة طيلة الحروب الصليبية . فلما اسر المصريون الملك لويس التاسع في وقعة دمياط ٦٤٨هـ (١٢٥٠)م حزن النصارى عليه . قال ابو شامه : " بلغني ان النصارى ببعلبك سودوا وسخموا وجوه الصور في كنيستهم حزنا على ما جرى على الافرنج . فعلم بهم الوالي فجباهم جناية شديدة وامر اليهود بصفعهم وسرجهم واهانتهم "(١) وتتجلى مساعدة الموارنة للصليبيين في الكتاب الذي ارسله لويس التاسع وهو بعكا الى عامة الشعب الماروني يشكرهم فيه على الامدادات التي قدموها له من رجال وسلاح . وقد عرضنا لهذا الكتاب في مبدا الرسالة .

ويجب ان لا ننسى ان النصارى قد خدموا الدولة وبرهنوا في اعمال كثيرة على اخلاصهم نوعا ما . يتجلى ذلك في جمهرة الاطباء الذين خدموا الخلفاء العباسيين واصبحت لهم سطوة كبرى بخلفهم ، وباولئك الكتاب الذين كانوا يديرون امور الدولة الداخلية وبالوزراء والسفراء الذين استخدمهم العباسيون ووضعوهم في شؤون الدولة . والخلفاء الفاطميون كذلك كانوا يعتمدون كثيرا على اهل الذمة لحذاقتهم في الكتابة . حتى ان انتشار الخصام والنفور الذي سببته الحروب الصليبية بين النصارى والمسلمين نراهم يحتلون في زمن صلاح الدين وخلفائه وظائف الحسبة والكتابة والتسجيل وكان منهم من توصل لان يكون على راس ديوان الجيش في ايام صلاح الدين او على راس خزانة الديوان . وقد بسطنا ذلك في الباب الرابع بتفصيل عندما درسنا ما قدم النصارى من خدمات للدولة .

وعلى الجملة فالرعايا النصارى في الدولة العباسية كان قد مضى عليهم زمان طويل كيفوا به انفسهم في الحكم العربي واستسلموا اليه وربطوا مصيرهم بمصيره وشاركوا العرب المسلمين في ادارة امور البلاد واتقنوا على اعمالهم . واذا كنا نراهم بين حين واخر يثورون وينقمون على الدولة ويمالئون العناصر المعادية فما ذلك الا من تيقظ الشعور الديني عندهم واحساسهم بالرابطة الدينية التي تجمعهم مع القوى الصليبية الخارجية . وفي فترات الشدة والضعف الذين اخذا بهما في بعض الاحايين . ومما لا شك فيه ان بعض النصارى لم يخلصوا للدولة وعملوا على مناهضتها والكيد لها سرا وعلانية . فكان منهم من يتجسس للروم وكان منهم من يشهر السلاح ضد العرب المسلمين انتصارا لهم كما فعل بعض بقايا المردة والموارنة في لبنان . الا انهم على العموم كانوا يشعرون في احوال كثيرة ان مصيرهم مرتبط بمستقبل الدولة العباسية وهم انما كانوا يتجهون الى الروم في عواطفهم في فترات الضيق والشدة .

---

(١) ذيل الروضتين . باريس (٥٢ ، ٥٨) ص ٢٠٢ عن حبيب الزيات المشرق ٣٦ ٤ عدد ١٧٢)

خاتمة

خاتمــــة

سيسائل القارئ نفسه بعد ان اطلع على حياة النصارى في العصر العباسي ووقف على مختلف ظروفها ودرس شتى احوالها عن الخطوط الكبرى للسياسة التي اتبعها العرب المسلمون نحو رعاياهم من اهل الاديان والاجناس الاخرى بصورة عامة والنصارى بصورة خاصة ، ويحاول ان يتمثل امام عينيه صورة توضح له على قدر الامكان هوية اومدى تلك السياسة التي نهجها العرب .

ومما لا شك فيه ان درس علاقات الدولة العباسية مع اتباعها الذين لا يدينون بدين الاسلام يستدعي حيرة وبلبلة الى الذهن . ففي بعض الاحيان يظهر اهل الذمة كفئة مهملة مضطهدة ضارة . وكانوا في احيان اخرى كهيئة لها قيمتها الكبرى ومركزها الاجتماعي اللائق . وكثيرا ما كان الحكام العرب يتشبثون بالقوانين التي يصدرونها حبا في تقييد تلك الفئة ولكن هذه القوانين كانت يرمى جانبها الى زمن ما تهمل بعده وتنسى حتى يخرجها الى حيز العلن حادث ما ، فليس هناك سنة متبعة نظامية ، والحوادث تسير في اتجاهات كثيرة متباينة لا في مجرى عام مستقيم ثابت .

فسياسة الامويين كما راينا نحو الاتباع قد تميزت بظاهرتين تسامح ورضى اولا ، ثم ضيق وتشديد ثانيه . وكانت الظاهرة الاولى اعم واشمل . والعصر العباسي قد يشابه العصر الاموي في بعض ادواره اما في الادوار الاخرى فقد كانت الظاهرة الثانيه ابرز واشد مما كانت عليه في العهد الاموي . وقد خضع النصارى في بعض الفترات كما شاهدنا لسلسلة من الاضطهادات شملت كل ضروب حياتهم . على ان هذه الاضطهادات ليست دينية كما يدعي بعض الباحثين قام بها المسلمون ليكرهوهم على تحويلهم عن عقيدتهم ، فكثيرا ما نرى بعض النصارى يتمتعون بعطف الخلفاء والولاة في الوقت الذي يوءخذ به غيرهم او عامتهم بالتضييق والشدة . وهذه ظاهرة برزت بشكل واضح في العصر العباسي وعلى امتداده .

وقد تمتع النصارى في الدور العباسي الاول خاصة وفي بعض الفترات من الادوار الاخرى بعطف الخلفاء والولاة واصبحوا يضاهون المسلمين وينافسونهم بالثروة والجاه وخدم هوءلاء العباسيين بعقولهم واقلامهم لما انسوه من تسامحهم واطلاق حرية الدين

لهم . فاستخدمهم العباسيون في دواوينهم وولوهم خزائنهم وضياعهم . واحتل بعضهم اعلى المناصب في الدولة وتوصلوا الى تقلد ديوان الجيش والوزارة . هذا الى جانب ما كان الخلفاء والامراء يستخدمونهم في الطبابة وفي نقل العلوم من اليونانيه والسريانية الى العربية . حتى ان بعض الخلفاء كان يكرم الاساقفة ويجالسهم ويحاورهم في الدين ويبحث معهم ويناظرهم . واجتمع النصارى والمسلمون كذلك في الكنائس والجوامع وتناظروا في الدين واللاهوت والامور الحيوية .

وقد تغاضى العباسيون في الصدر الاول من حكمهم وفي بعض الفترات ـ الى حد ما ـ عن بعض التقيدات التي اخذ بها النصارى من قبل كمنعهم من احداث الكنائس او الاحتفال بالاعياد اومنعهم من خدمة الدولة وسهلوا لهم الاختلاط بهم واظهروا احترام مذهبهم وشاركوهم في احتفالاتهم بالاعياد الكبرى ، وكانوا يخرجون معهم الى اماكن النزهـة لا فارق بينهما . واشتغلوا واياهم في التجارة . وشغلوا الصناعات الكثيرة والمهن وتعاملوا تعاملا حسنا معهم .

جاء في وصية القاضي ابي يوسف الى الخليفة هارون الرشيد : "ينبغي ياامير المؤمنين ايدك الله ان تتقدم في الرفق باهل ذمة نبيك وابن عمك محمد (صلعم) والتفقد لهم حتى لايظلموا ولا يؤذوا ولايكلفوا فوق طاقتهم ولايؤخذ شيء من اموالهم الا بحق يجب عليهم ."(١) على ان الرشيد مع ما عرف عنه من العدل والرفق باهل الذمة قد امر بهدم الكنائس في الثغور الاسلامية وامر النصارى بمخالفة هيأة المسلمين في لباسهم وركوبهم . وما ذلك الا ان الرشيد كان يومئذ عائدا من حرب له مع الروم اذوا فيها المسلمين كثيرا اولان نصارى الثغور كانوا يعملون لحساب الروم .

وابتداء رد الفعل في زمن الخليفة المتوكل الذى كان شديد الوطأة لا على النصارى فحسب بل على المسلمين ايضا . ولعله كان اشد الخلفاء العباسيين . ولاتستغرب هذه الشدة من المتوكل لانه كان رجعيا نقم على سائر اهل الدولة وغيرهم وشدد النكير عليهم . فاذا رايناه يامر بهدم بعض الكنائس فقد امر كذلك بهدم قبر الحسين بن علي وحرثه والتنكيل بشيعته .

---

١) الخراج ص ١٤٩

وقد تفاقم هذا الضغط في الادوار الاخرى العباسية لما ضعفت الدولة وازداد تعصب العامة من المسلمين على غيرهم لما داخل العرب المسلمين من العناصر الاخرى والقوميات المختلفة التي اعتنقت الاسلام وتعصبت له وكانت معروفة بضيق عقليتها وتعصبها الاهوج . على اننا يجب ان نشير مرة ثانية الى ان هذا الضغط ربما كان نشأ عن سوء تصرف الموظفين النصارى واستبدادهم بالوظائف وانتهاكهم حرمة المسلمين مما كان يهيج الجماهير الاسلامية عليهم ، اومن تجسس بعض النصارى لحساب دولة خارجية اومن تحاسدهم فيما بينهم ووشايتهم ببعضهم . وقد لاحظنا مع كل هذا ان كل شيء كان يرجع الى هوى الخلفاء والحكام وليس الى قوانين موضوعة ثابتة . فكان النصارى يرتعون في بحبوحة من العيش في ظل هذا الخليفة او ذاك الوالي ويضيق عليهم ويصادرون في حكم خليفة اخر او حاكم غيره .

وكان حظ النصارى كذلك في العهد الفاطمي في مصر كحظهم في بغداد بظل بني العباس . نجدهم في بعض الفترات يعيشون في عهد تسامح وعهد سيادة ويتمتعون بالحرية الدينية ويحتلون المراكز الرفيعة . ثم نراهم في فترات اخرى يضطهدون ويضيق عليهم ويحد من حريتهم ويعزلون عن وظائفهم . واذا ما رجعنا الى ما قبل الفاطميين نرى ان من تعاقب على مصر من السلالات الطولونية والاخشيدية قد حاولوا بقدر الامكان استمالة النصارى اليهم وفسحوا لهم المجال للتربع في كل مرافق الحياة ، ليستندوا اليهم في تدعيم مركزهم وتثبيت سلطتهم ازاء العباسيين في بغداد . وسار الفاطميون كذلك على نهج هذه السياسة الرشيدة ، فبلغ الامر لبعض النصارى ان توصلوا الى مقام الوزارة والقيادة كعيسى بن نسطورس وابنه في زمن العزيز بالله والحاكم وامثالهما كثيرون .

ولم يبدأ رد الفعل باشد صوره الا في عهد الخليفة الحاكم بامر الله الذى انزل بالنصارى ضروب الاضطهاد وامر بهدم كنائسهم وقتل عددا كبيرا منهم كما تقدم . والسبب كما قال بعض المؤرخين يعود الى تعاظمهم واستبدادهم بالوظائف ونيلهم من المسلمين واحتقارهم لهم . الا ان الحاكم لم يتبع هذه السياسة طيلة حياته بل عرف عنه بعض اللين والتسامح ، لكن مسحة الاضطهاد والتقييد كانت ابرز في سياسته . على ان النصارى في الفترات الاخرى التالية استعادوا ما فقدوه في السنين السابقة نوعا ما .

والاسباب التي عادت بالتضييق على النصارى الانباط هي بعينها التي رايناها

عند العباسيين . وكانت ترجع الى ميول الخلفاء الخاصة والى الراى العام الاسلامي الذى كان يستاء من وجود هؤلاء الانباط فى المراكز العليا يتصرفون فى امور المسلمين فيفرض على الخلفاء ان ينهجوا نهجا شديدا نحو النصارى ، ثم الى انحطاط الدولة فيما بعد ، ذلك الانحطاط الذى كان ينشر الفوضى فى البلاد فيضطرب حبل الامن ويعم الشغب .

ولم ينصرف المسلمون عن تسامحهم حتى فى اشد حالات النزاع والخصام بين الغرب المسيحي والشرق الاسلامي ابان الحروب الصليبية . فقد كان بعض نصارى الشرق فى زمن صلاح الدين الايوبي يشغلون المراكز والمناصب الادارية ويتمتعون بكل عطف وحماية .

دخل الصليبيون الى بيت المقدس سنه ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) فاقاموا المذابح والمجازر فى كل اطراف المدينه وانتهبوا المال وسبوا النساء وقتلوا الاطفال وجمعوا من فيه من اليهود الى كنيسة اليهود فاحرقوهم فيها ، وقتلوا من المسلمين ما يزيد عن سبعين الفا واعملوا السيف فيهم اياما عديدة فجرت الدماء غزيرة وارتكبوا فى الفظائع ما يجل عنها الوصف(١) واستعاد صلاح الدين بيت المقدس منهم (٥٨٣ هـ) ١١٨٧ م) فامن الجميع على ارواحهم واموالهم وعفى عن الفرنج واطلق اساراهم . وقد اظهر السلطان صلاح الدين اثناء ذلك الاحتلال التاريخي لبيت المقدس تسامحا كبيرا . وقد امر قواده وامراؤه ان يحفظوا الامن فى الشوارع خوفا من حدوث شغب مفاجسىء وحتى لايتذمر النصارى المقيمين فيه . اما النصارى الذين ليسوا من الفرنج فانهم طلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من المقام فى مساكنهم وياخذ منهم الجزية فاجابهم الى ذلك .(٢)

وينقل سيد امير علي عن ميلز Mills الكاتب الانكليزى فى كتابه تاريخ الحروب الصليبية ، " ان كثيرا من المسيحيين الذين غادروا بيت المقدس وصلوا الى انطاكيه غير ان بوهيمون اميرها لم يحرمهم الضيافة فحسب بل سلبهم ايضا اموالهم ، فى حين كان هؤلاء البائسون اينما ساروا فى بلاد المسلمين يلاقون ضروب العطف والكرم ".(٣) ويسوق ميشو Michaud بعض الادلة المدهشة عن قسوة قلوب النصارى المحليين نحو منفي بيت المقدس فيقول : "ان هؤلاء المساكين المنكودى الحظ بعد ما لاقوا صدا من اخوانهم نصارى الشرق

---

١) المكين ص ٢٩٣ ، ابن العبرى ص ٣٤٢ Lane-poole p. 233

٢) ابن الاثير ج ١١ ص ٣٦٤ و ٣٦٥ ، ابوشامة ج ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، وراجع Lane Pool p.232 Stevensen p.254

٣) مختصر تاريخ العرب ص ٣٠٧

هاموا على لا وجوههم فى الشام ، حتى عضهم الجوع بأنياب الضروس ، ومات الكثيرون منهم جوعا وكمدا ، كما اغلقت طرابلس ابوابها دونهم ، حتى بلغ اليأس باحد النساء مبلغا عظيما والقت ابنها الطفل فى اليم ، وهي تلعن النصارى الذين رفضوا مساعدتها . "(١) وهذا لايقارن طبعا لما فعله صلاح الدين مع النصارى حيث شملهم برعايته وعطفه يوم امتنع اكثر امراء الصليبين عن تلقيهم ونهولهم فى البلاد التى يحتلونها . حتى ان المراكب الايطالية فى الاسكندرية رفضت ان تنقل اللاجئين الى بلادهم الا بدفع اموال كثيرة .(٢)

وقليلا ما كان الفرنج يدركون تسامح المسلمين وحسن رعايتهم فيتاثرون بما يرونه ويصانون المسلمين فى اوقات السلم ويبادلونهم عطفا بعطف . فيقول ابن منقذ كل "من هو قريب العهد لا بالبلاد الافرنجية اجفى اخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين ." ثم يسوق حادثة ونعت له مع هؤلاء تبين الغرض المقصود .(٣)

ويمكننا ان نقول على العموم ان التسامح هو الصفة البارزة التى درج عليها العرب فى سياستهم مع النصارى فى اكثر العصور : تسامح فى معناه الضيق وهو الترخيص لديانة اخرى ان تمارس طقوسها وتقوم بعاداتها التقليدية الى جانب ديانة مسيطرة حاكمة . ولكنه ليس تسامحا فى معناه الواسع الذى يفترض المساواة فى الحق والدرجة . فالاسلام قد سمح للمذاهب الاخرى ان تعيش وتبقى ولكن تحت حدود معينة دوما . وهذه الحدود تختلف شدتها حسب المناسبات والاحوال . وربما بلغت فى بعض الاحيان من الشدة ما يجعلنا لانقدر ان نفرق بينها وبين الاضطهاد . ومع ذلك يعني هذا التسامح عادة ان ترخص دولة تعتنق او تتعصب لديانة او مذهب ما لرعاياها الذين لايدينون بما تدين به ان يمارسوا عقائدهم المفضلة ولكن مع بعض التقييدات وتحت مضايقات محددة .

هناك ثلاث سياسات يمكن ان تتبعها ديانة مسيطرة : اضطهاد ، وتسامح ، وحرية . ففى السياسة الاولى تحاول ان تخضع الناس الى عقيدتها الخاصة ، وهذا ما كان من سياسة العرب نحو المشركين فى الجزيرة العربية وغيرهم . لكن سياسة التسامح تختلف باختلاف الحاجة والمصلحة واهواء الحكام وافضل درجاتها مابنى على التراضى لقاء ضريبة

---

١) راجع سيد امير علي مختصر تاريخ العرب ص٣٠٧ و٣٠٨ Histoire des Croisades T. II. p. 350 Stevenson p. 254

٢) Stevenson p. 254

٣) الاعتبار ص ١٣٤ (حتي)

معينه يدفعها اهل هذا المذهب او ذاك لاصحاب العقيدة السائدة . وهذا ما كان من امر المسلمين مع النصارى واليهود . والسياسة الثالثة الحرية الدينية والمساواة لكل المذاهب على السواء . (١) ولكن هذه السياسة العلمانية لم ينتهجها الاسلام مع احد مطلقا ولاينتظر منه ذلك في تلك العصور .

يقول الاستاذ ميتز Mez : "ان ما يميز المملكة الاسلامية عن اوروبا النصرانيه في القرون الوسطى ، ان الاولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الاديان الاخرى غير الاسلام ، وليست كذلك الثانيه ، وان الكنائس والبيع ظلت في المملكة الاسلامية كانها خارجة عن سلطان الحكومة ، وكانها لاتكون جزءا من المملكة معتمدة في ذلك على العهود وما اكسبتهم من حقوق . ولقضت الضرورة ان يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فاعان ذلك على خلق جو من التسامح لاتعرفه اوروبا في القرون الوسطى . كان اليهودي او النصراني حرا ان يدين بدينه ، ولكنه ان اسلم ثم ارتد عوقب بالقتل . وفي المملكة البيزنطية كان عقاب من اسلم القتل ." (٢)

وقد تكون فكرة التعصب التي اعتاد كثير من كتاب الغرب اطلاقها على المسلمين فكرة واهية لاتؤيدها الوقائع ولا تقرها تعاليم المسلم . فالاسلام لايبث في نفوس متبعيه الاحقاد والتعصب على المخالفين الذين لايدينون بدينهم كما يقول اللورد كرومر (٣) ولم يجبروا احدا على تغيير دينه او يضغطوا على معتقده . ومن الخطاء الفاضح ان يعتقد ان الضيق والشدة اللذين اخذ بهما النصارى في بعض الفترات من العصر العباسي ترجع الى الحقد او العداء الديني بين المسلمين والنصارى . ولا حاجة لان نبرهن بعد ان استطلعنا الوقائع فيما مضى ، انها كانت حوادث دورية لاترجع اسبابها الا الى ضيق عقلية بعض الخلفاء او الولاة او رجعيتهم وتعصب العامة والغوغاء في فترات الضعف والانحطاط الى غيرها من الاسباب الاخرى التي قدمناها .

وقد اخطاء الاستاذ حتي كثيرا عندما قال انه في ايام المتوكل ابتداء اضطهاد المسيحيين على صورة منظمة واخذ الاهلون من المدن السورية والعراقية يدخلون في الدين الاسلامي للنجاة من شارات التحقير . وليس عندنا ما يؤيد ذلك كما اسلفنا . ولم تتخذ

---

١) Shedd : p. 96

٢) Mez p. 32 راجع ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٢٢

٣) راجع الغلاييني — الاسلام روح المدنيه ص ١٢٦

هذه الاضطهادات شكلا دينيا كما يعتقد كذلك الدكتور حتي ، وقليل من التفكير ومن مراجعة الحوادث المثبته فى فصول هذه الرسالة يظهر ضعف استنتاجه ، من ان الباعث على هذه الاضطهادات كما يقول العوامل الاقتصادية ، واهمها التنافس الصناعي المالي بين المسلمين وابناء البلاد الاصليين . فى حين اننا نعلم ان العرب ظلوا زمنا طويلا لايكرهون اصطناعات فحسب بل يحتقرونها . اوان الباعث عليها كما يصرح كذلك ، " ان الخلفاء الذين قاموا بها كانوا فى الغالب من الصنف المنغمس بالملذات والمساوئ ، والذين لجأوا الى هذه الواسطة لذر غبار فى اعين المؤمنين وتوجيه الانظار عنهم الى غيرهم " (١) فهل كان يأتي عمر بن عبد العزيز او هارون الرشيد او المأمون او المقتدر او الحاكم بامر الله منغمسين بالملذات والملاهي ؟ لاندري !

وعلى الجملة هل يقارن فعل العرب المسلمين مع رعاياهم بما فعله الفرنج سنه ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) عندما ملكوا مدينه القسطنطينية من الروم فاحرقوا البلد ووضعوا السيف ثلاثة ايام فى اهله وقتلوا حتى الاساقفه والرهبان والقسيسين الذين خرجوا من كنيسة ايا صوفيا العظمى وبايديهم الاناجيل والصلبان يتوسلون بها ليبقوا عليهم ، وقتلوهم اجمعين ونهبوا الكنيسة . (٢)

وهل نجد فى المنشور الذى اصدره البابا انوسانت الثالث (١١٩٨- ١٢١٦ م) عند الكلام فى مصادرة الذين يخالفون العقيدة الكاثوليكية ، شبيها بما اصدره بعض الخلفاء ضد النصارى . قال : " لايجوز ان يترك لاولاد الجاحدين سوى الحياة ، وترك الحياة لهم منّ واحسان " . فلم يقصر الجزاء على الجاحدين ولكن عداه الى اولادهم بعد ترك الحياة لاولادهم يتمتعون بها ضربا من الاحسان عليهم لانهم لاحق لهم فى ان يعيشوا وقد جحد اباؤهم ." (٣)

وهل انشاء المسلمون فى العصر العباسي محاكم للتفتيش لمقاومة الاراء والمعتقدات الحرة والتشديد فى طلب اربابها كما فعل الغرب المسيحي ؟ " فكان يؤخذ الرهبان فى صوامعهم والقسوس فى كنائسهم والاشراف فى قصورهم والتجار بين بضائعهم والصناع

١) سوريا والسوريون ص ٣٥

٢) ابن العبرى ص ٢٩٧

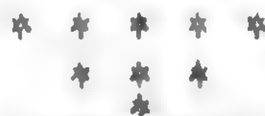
٣) محمد عبده - الاسلام والنصرانية ص ٣٦ .

في مصانعهم ، والعامة في بيوتهم ومزارعهم ، وحيثما وجدوا واينما ثقفوا ، ويوقفون امام المحكمة وتصدر الاحكام عليهم يوم اتهامهم ." وقد قامت هذه المحاكم باعمالها حق قيام " ففي مدة ثمان عشرة سنه (من ١٤٨١-١٤٩٩م) حكمت على عشرة الاف ومائتين شخصا بان يحرقوا وهم احياء فاحرقوا . وعلى ستة الاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا . وعلى سبعة وتسعين الفا وثلاثة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفة فنفذت ." هذا الى جانب ما قامت به هذه المحاكم ضد اليهود وتقتلهم والتنكيل بهم سنه ١٤٩٢م . وقد لاقى المسلمون كذلك من اهوال هذه المحاكم وفظايعهما ما تنخلع عن سماعه الاذان ففي سنه ١٥٠٢م نشر الامر بطرد اعداء الله المغاربه (المسلمين من اشبيلية وما حولها — من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد اسبانيا في مدة محدودة . فقتل وعذب ومثل بالالاف منهم .(١)

او هل يقارن صنع العرب المسلمين بصنع الكاثوليك مع مخالفيهم من الفرق النصرانية التي لم تخضع للبابا في القرن السادس عشر . والتي شنت لاجلها الحروب وسفكت الدماء وجرى بها من التمثيل والغدر ما يعجز عنه الوصف . وهل فعل العرب او العباسيون خاصة مع اتباعهم مع ما فعله الكاثوليك مع البروتستانت الذين سفك الاولون دماءهم وهم اخوان لهم في الدين ليلا على حين غرة وقتلوا النساء والرجال والصبيان في حادثة سانت بارتلمي St. Barthélemy (١٥٧٢م) المشهورة ، ودامت المذبحة عدة ايام .(٢)

على ان ما صدر من الامم المسيحية من التعصب الديني ضد بعضهم وضد غيرهم من المسلمين واليهود ، وما شنوه من الحروب الهائلة في هذا السبيل كثير لا يتسع له المجال.(٣) ومن يقابل بين ما فعله المسلمون مع النصارى وبين ما فعله النصارى انفسهم في البلاد الغربية ضد غيرهم يدرك البون الشاسع بين الفعلين . كل هذا يخفف من حدة بعض الحوادث التي سردناها في العصر العباسي تجاه النصارى .

ولا بأس اذا اجملنا القول في النهاية ان : "معاملة المسلمين للنصارى كانت تتوقف على حالة الدولة الداخلية . ففي ادوار العز والقوة كانت سياسة الدولة اميل الى اللين والتسامح وفي ادوار الشدة كانت اميل الى الضغط والتشديد ." والسلام



---

١) راجع محمد عبده ص ٤٠-٤١ ، ٤٣-٤٤ . E.B. Britannica Vol.14 p.594 f. Hulme p. 771 - 772

٢) راجع الغلاييني ص ١٤٦ و Petit Dictionnaire Larousse Art. Saint Barthélemy.

٣) الغلاييني ص ١٤٦ .

قائمة المصادر

I - المصادر والمراجع العربية الاولية حسب ترتيبها التاريخي :

القرآن - نجوم الفرقان فى اطراف القرآن — فلوكل · ليبزك ١٨٤٢ م ·
الاخطل - ديوان ابي مالك غياث بن عمروبن تغلب · بعناية الاب صالحاني ·
- بيروت المطبعة الكاثوليكيه ١٨٩١ م ·
الازدى - كتاب فتوح الشام لابي اسماعيل محمد بن عبد الله البصرى · طبع كلكته ١٨٥٤ م ...
مالك - الموطا للامام مالك بن انس · مصر مطبعة الحجر/١٢٨٠ هـ
ابو يوسف - كتاب الخراج للقاضي يعقوب بن ابراهيم · مصر المطبعة السلفية ١٣٤٦ هـ
ابو نواس - ديوان ابي نواس الحسن بن هاني · مصر المطبعة العمومية ١٨٩٨ م
الشافعي - كتاب الام لابي عبد الله محمد بن ادريس · مصر ، بولاق ١٣٢١ هـ
ابن هشام - كتاب سيرة رسول الله لعبد الملك بن هشام · غوتنجن ١٨٦٠ م
ابو عبيد - كتاب الاموال للامام القاسم بن سلام · مصر المطبعه العامرة ١٣٥٣ هـ
ابن سعد - كتاب الطبقات الكبير لمحمد بن سعد · ليدن ١٩١٧ م
ابن خرداذبة - المسالك والممالك لابي القاسم عبيد الله بن احمد · ليدن ١٣٠٦ هـ
الجاحظ - كتاب الحيوان لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ · مصر مطبعة السعاده ١٩٠٧ م
الجاحظ - البيان والتبيين للمؤلف نفسه مصر المطبعة الرحمانية ١٩٣٢ م
الجاحظ - ثلاث رسائل للمؤلف نفسه · نشر يوشع فنكل · مصر المطبعه السلفية ١٩٢٦ م ·
ابن عبد الحكم - فتوح مصر واخبارها لابي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ليدن ١٩٢٠ م
مسلم - الجامع الصحيح للامام مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابوري · مصر دار الطباعة العامرة ١٣٢٩ ·
البخارى - صحيح محمد بن اسماعيل الجعفى · مصر مطبعه بولاق ١٣١٤ هـ
ابن ماجه - السنن لمحمد بن يزيد ابى عبد الله القزويني · مصر المطبعة العلمية ١٣١٣ هـ ٨٠
ابن قتيبه - كتاب عيون الاخبار لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة · دار الكتب المصرية ١٩٢٥ — ١٩٣٠ م

ابن قتيبه = كتاب المعارف للمؤلف نفسه ، غوتنجن ١٨٥٠ م

ابن قتيبه = الامامة والسياسة للمؤلف نفسه ، مصر مطبعة الفتوح الادبية ١٣٣١ هـ

اليعقوبي = تاريخ ابن واضح اليعقوبي ، ليدن ١٨٨٣ م

اليعقوبي = كتاب البلدان للمؤلف نفسه ـ ملحق بكتاب ابن رسته ـ الاعلاق النفيسة ليدن ١٨٩٢م ،

البلاذري = كتاب فتوح البلدان لابي العباس احمد بن يحيى بن جابر ، ليدن ١٨٦٦م

الدينوري = الاخبار الطوال ـ ليدن ١٩١٢ م

المبرد = الكامل لابي العباس محمد بن يزيد الازدي ، ليبزك ١٨٧٤ م

ابن رسته = الاعلاق النفيسه لابي علي احمد بن عمر ، ليدن ١٨٩١ م

ابن المعتز = ديوان ابي العباس عبدالله بن المعتز بن المتوكل ، بيروت مطبعة الاقبال ١٣٣٢ هـ

ابن الفقيه = مختصر كتاب البلدان لابي بكر احمد بن محمد الهمذاني ، ليدن ١٨٨٥م

النسائي = السنن لاحمد بن شعيب ، مصر المكتبة التجارية ١٩٣٠ م

الطبري = تاريخ الرسل والملوك لابي جعفر محمد بن جرير ، ليدن ١٨٧٩ م ،

الطبري = تاريخ الامم والملوك للمؤلف نفسه ، مصر المطبعة الحسينية ١٣٢٦ هـ

قدامه = نبذ من كتاب الخراج لابي الفرج قدامه بن جعفر (مطبوع مع المسالك لابن خرداذبه) ليدن ١٨٨٩ م

البيهقي = كتاب المحاسن والمساوئ للشيخ ابراهيم بن محمد البيهقي ، طبعة جيسن ١٩٠٢ م

ابن عبد ربه = العقد الفريد لشهاب الدين احمد ، مصر بولاق ١٢٩٣ هـ

الصولي = ادب الكتاب لابي بكر محمد بن يحيى ، مصر المطبعة السلفية ١٣٤١ هـ

المسعودي = مروج الذهب لعلي بن الحسين ، باريس ١٨٦١ م

المسعودي = كتاب التنبيه والاشراف للمؤلف نفسه ليدن ١٨٩٣ م

ابن حوقل = كتاب صورة الارض لابي القاسم النصيبي ليدن ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ م

الاصطخري = مسالك الممالك لابي اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي ، ليدن ١٩٢٧ م

الكندي = كتاب الولاة وكتاب القضاة لابي عمر محمد بن يوسف المصري ، بيروت مطبعة الاباء اليسوعيين ١٩٠٨ م،

الاصبهاني - كتاب الاغاني لابى الفرج على بن الحسين . مصر بولاق ١٢٨٥ م الجزء ٢١ طبع ليدن ١٣٠٥ هـ .

القالي - الامالي لابى على اسماعيل بن القاسم البغدادى . مصر بولاق ١٣٢٤ هـ

عريب - صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد القرطبي . ليدن ١٨٩٧ م

المقدسي - احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم لشمس الدين ابى عبد الله محمد ابن احمد . ليدن ١٨٧٧ م

المرزباني - الموشح لابى عبيد الله محمد بن عمران . مصر المطبعة السلفية ١٣٤٣ هـ

ابن النديم - كتاب الفهرست لمحمد بن اسحق الوراق المعروف بابن النديم . مصر المطبعة الرحمانية ١٣٤٨ هـ .

مسكويه - تجارب الامم لابى علي احمد بن محمد . مصر ١٩١٥ م

الثعالبي - يتيمة الدهر فى شعراء اهل العصر لابى منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابورى . دمشق المطبعة الحنفية ١٣٠٤ هـ .

البيروني - الاثار الباقية عن القرون الخالية لابى ريحان محمد بن احمد الخوارزى ليبزك ١٨٧٨ م .

الماوردى - الاحكام السلطانية لابى الحسن على بن محمد . مصر مطبعة السعادة ١٩٠٩ م .

ابن رشيق - العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابي علي الحسن بن رشيق القيرواني مصر مطبعة امين هندية ١٩٢٥ م .

ابن صاعد - طبقات الامم للقاضي ابى قاسم صاعد بن احمد بن صاعد الاندلسي . بيروت المطبعة الكاثوليكية ١٩١٢ م

الطرطوشي - سراج الملوك لابي بكر محمد بن الوليد الفهرى المالكي . مصر المطبعة الخيرية ١٣٠٦ هـ .

ابن القلانسي - ذيل تاريخ دمشق لابى يعلي حمزه . بيروت مطبعة الاباء اليسوعيين ١٩٠٨ م

ابن عساكر - التاريخ الكبير لابى القاسم على بن الحسن . دمشق مطبعة روضة الشام ١٣٢٩ هـ .

ابن منقذ - كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ . برنستون ١٩٣٠ م
ابن الجوزي - سيرة عمر بن عبد العزيز لجمال الدين ابى الفرج عبد الرحمن . مصر مطبعة المؤيد ١٣٣١ هـ .
ياقوت - معجم البلدان للشيخ شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموى الرومي . ليبزك ١٨٦٦ / ١٨٧٠ م
ياقوت - معجم الادباء او ارشاد الاريب الى معرفة الاديب للمؤلف نفسه . مصر مطبعة هندية ١٩٢٣ — ١٩٢٥ م
ابن الاثير - الكامل فى التاريخ لعزالدين ابى الحسن علي . ليدن ١٨٦٦م
القفطي - تاريخ الحكماء لجمال الدين ابى الحسن على بن يوسف . ليبزك ١٩٠٣م
ابو شامه - كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين لشهاب الدين ابي محمد عبدالرحمن المقدسي . مصر مطبعة وادى النيل ١٢٨٧ هـ
ابن ابى اصيبعه - عيون الانباء فى طبقات الاطباء لابى العباس احمد بن قاسم . مصر المطبعه الوهبية ١٨٨٢ م .
المكين - تاريخ المسلمين للشيخ المكين جرجس بن العميد ابو الياسر . ليدن ١٦٢٥ م .
ابن خلكان - وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان للقاضي شمس الدين احمد بن ابراهيم مصر . بولاق ١٢٩٩ هـ .
ابن الراهب - تاريخ ابى شاكر بطرس بن الراهب القبطي . بيروت مطبعة الاباء اليسوعيين ١٩٠٣م
القزويني - اثار البلاد واخبار العباد للامام زكريا بن محمد . غوتنجن ١٨٤٩ م
ابن العبرى - تاريخ مختصر الدول لغريغوريوس ابي الفرج بن هارون الطبيب الملطي بيروت المطبعة الكاثوليكية ١٨٩٠ م .
البيضاوى - انوار التنزيل واسرار التاويل . للقاضي الامام ناصر الدين ابي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوى . طبعة اوروبية ١٨٤٨م .
ابن الطقطقى - الفخرى فى الاداب السلطانية والدول الاسلامية لمحمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى . كيرينزولد ١٨٥٨ م

ابن منظور - لسان العرب لابى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصرى . مصر مطبعه بولاق ١٣٠٠ هـ

ابو الفداء - المختصر فى اخبار البشر للملك المؤيد اسماعيل ابي الفداء . مصر المطبعه الحسينية ١٣٢٥ هـ

العمرى - مسالك الابصار فى ممالك الامصار لابن فضل الله العمرى . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م

ابن خلدون - كتاب العبر لعبد الرحمن بن محمد . مصر . مطبعة بولاق ١٢٨٤ هـ

الفيروزابادى - القاموس للعالم الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى مصر المطبعة الكستلية ١٢٨١ هـ

القلقشندى - صبح الاعشى للشيخ ابى العباس احمد . مصر المطبعة الاميرية ١٩١٣-١٩١٩ م .

الابشيهي - المستطرف فى كل فن مستظرف للشيخ شهاب الدين احمد الابشيهي مصر المطبعة العثمانية ١٣٠٦ هـ

المقريزى - كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار لتقى الدين احمد بن علي المقريزى . مصر دار الطباعة ١٢٧٠ هـ

المقريزى - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمؤلف نفسه . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ م .

ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين ابى المحاسن الاتابكي المعروف بابن تغرى بردى . دار الكتب المصرية ١٩٢٩-١٩٣٦ م

ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة ... الجزء الثاني - القسم الثاني للمؤلف نفسه بركيلي ١٩٠٩-١٩١٢ م .

الجلالين - قرآن كريم تفسير الامامين الجليلين جلال الدين السيوطي وجلال الدين محمد بن احمد المحلي مصر . المطبعة العامرة ١٣٤٦ هـ

السيوطي - حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة للامام الشيخ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي . مصر مطبعة الموسوعات ١٣٢١ هـ .

الشعراني - الميزان لسيد عبد الوهاب الشعراني . مصر مطبعة التقدم ١٣٢١ هـ

الدمشقي - رحمة الامة في اختلاف الائمة (بهامش كتاب الميزان للشعراني) للشيخ محمد بن عبد الرحمن الدمشقي العثماني الشافعي . مصر . مطبعة التقدم ١٣٢١ هـ .

التهانوى - كشاف اصطلاحات الفنون لمحمد علي التهانوى . كلكته ١٨٦٢ م

الزبيدى - تاج العروس من جواهر القاموس لمحب الدين ابي الفيض محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدى . مصر المطبعة الخيرية ١٣٠٧ هـ .

* * * *

II - المصادر العربية الثانوية حسب تاريخ الطبع:

الشهابي - الغرر الحسان في تواريخ حوادث الازمان للامير حيدر احمد الشهابي . مصر مطبعة السلام ١٩٠٠ م

البستاني - دائرة المعارف للمعلم بطرس البستاني . بيروت ١٨٧٦-١٨٩٨ م

البستاني - محيط المحيط للمؤلف نفسه بيروت ١٨٦٧-١٨٧٠ م

الدويهي - تاريخ الطائفة المارونية للبطريرك مار اسطفان الدويهي . بيروت المطبعة الكاثوليكية ١٨٩٠م .

لامنس الاب هنرى لامنس اليسوعي ، مقالته " تسريح الابصار في مايحتوى لبنان من الاثار " في المشرق ١٩٠٢ م المجلد الخامس ، ١٩٠٣ م المجلد السادس .

الكرملي - الاب انستاس الكرملي " مقالته الردة والجراجمة في المشرق ١٩٠٣م مج ٦

محمد عبده - الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مصر مطبعة مجلة المنار سنه ١٣٢٣ هـ .

الغلاييني - الاسلام روح المدنية للشيخ مصطفى الغلاييني . بيروت ١٩٠٨م

شيخو - النصرانية وادابها بين عرب الجاهلية للاب لويس شيخو اليسوعي . بيروت مطبعة الاباء اليسوعيين سنه ١٩١٢ م

شيخو - شعراء النصرانية بعد الاسلام للمؤلف نفسه ...؟؟

زيدان تاريخ التمدن الاسلامي للاستاذ جرجي زيدان . مصر مطبعه الهلال ١٩١٤م

زيدان — مختارات جرجي زيدان للمؤلف نفسه · مصر مطبعة الهلال ١٩١٩ م

الالوسي — بلوغ الارب فى معرفة احوال العرب للسيد محمود شكرى الالوسي · مصر المطبعة الرحمانية ١٩٢٤ م

حتي — سورية والسوريون من نافذة التاريخ للدكتور فيليب حتي نيويورك سنه ١٩٢٦م

مخلص — المسلمون والنصارى لعبد الله الا مخلص · حيفا مطبعة الزهرة ١٩٢٨م

البستاني — البستان للشيخ عبد الله البستاني · بيروت المطبعة الاميركانية ١٩٢٧—١٩٣٠ م

بتلر — فتح العرب لمصر لالفرد ·ج · بتلر (عربه عن الانكليزية محمد فريد ابوحديد) مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٣ م ·

احمد امين — ضحى الاسلام للاستاذ احمد امين · مصر مطبعة الاعتماد ١٩٣٣م

نولدكه — امراء غسان للمستشرق ثيودور نولدكه (نقله الى العربية الدكتور قسطنطين زريق والدكتور بندلي جوزى) بيروت المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣م ·

الزيات — الصليب فى الاسلام للسيد حبيب الزيات · مطبعة القديس بولس فى حريصا ١٩٣٥م ·

هيكل — حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل · مصر مطبعة مصر ١٣٥٤ هـ

الزيات — حبيب الزيات مقالته " الاسماء والكنى والالقاب النصرانية فى الاسلام " فى مجلة الخزانة الشرقية سنه ١٩٣٦ م الجزء الاول ·

غنيمة — الحيرة المدينه والمملكة العربية ليوسف رزق الله غنيمه · بغداد مطبعة دنكور الحديثه ١٩٣٦ م

الزيات — الديارات النصرانية فى الاسلام ، السيد حبيب الزيات · بيروت المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٨ م

سيد امير علي — مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي لسيد امير علي (نقله عن الانكليزية رياض رافت) · مطبعة لجنه التاليف والترجمة والنشر ١٩٣٨م ·

البستاني — فؤاد افرام البستاني مقالته " دور النصارى فى افراز الخلافة الاموية فى المشرق ١٩٣٨ الجزء الاول ·

الزيات — حبيب الزيات ، مقالته " اليهود فى الخلافة العباسية فى المشرق ١٩٣٨م الجزء الثاني

حسن — النظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن والاستاذ علي ابراهيم حسن مطبة لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٣٩ م

III- المصادر الافرنجية حسب تاريخ طبعها :

M. Michaud,"Histoire des Croisades" Paris 1825 - 1829

R. Dozy, "Supplément aux Dictionnaires Arabes," Leyde, E.J.Brill 1881

T.P. Hughes, "A.Dictionary of Islam" New York 1885 & London.

S.W. Muir, "The Caliphate its Rise,Decline and Fall" London 1892

W.A. Shedd "Islam and the Oriental Churches" Philadelphia 1904

S. Lane-Poole,"Saladin & the Fall of the Kingdom of Jerusalem" G.P. Putnam's Sons New-York, London 1906.

W.B. Stevenson,"The Crusaders in the East " Cambridge 1907.

P.H. Lammens,S.J."Etudes sur le Règne du Calife Omaiyade Mo'Awia Ier" Bayrouth, 1908

C.H. Becker, "Christianity and Islam" London,New-York Harper & Bros 1909

Rev. C.Sell, "The Historical Development of the Qur'A'n" Lon 1909.

Rev. G.W. Knox, "Christianity" in the Encyclopaedia Britannica Vol.VI 11th Edition 1910

P.D. Alphandéry "Inquisition" in the Encyclopoedia Britannica Vol.XIV, 11th.Edition 1910

S.W. Muir, "The Apology of Al Kindy" London 1911

T.W. Arnold, "The Preaching of Islam, London 1913

N.P. Aghnides, "An Introduction to Mohammedan Law and A Bibliography" New-York 1916

I. Goldziher, "Le Dogme et la Loi de l'Islam" (Trad: F.Arin) Paris 1920

P.H. Lammens, S.J. "Le Califat de Yazid Ier"
Beyrouth 1921.

S.W. Muir, "The Life of Mohammad"
Edinburgh 1923.

Ameer Ali, Syed, "The Spirit of Islam"
London 1923

Ameer Ali, Syed "A Short History of the Saracens"
London 1924

A.L. Wismar, "A Study in Tolerance"
New York 1927.

T.W. Haig "Ghiyar" in the Encyclopoedia of Islam Vol.II
Leyden 1927.

W. Björkman "Kalansuwa" in the Encyclopoedia of Islam Vol.II"
Leyden 1927

E.M. Hulme "The Middle Ages" New-York 1929.

A.S. Tritton "The Caliphs and Their Non-Muslem Subjects"
(Mysore City) London 1930.

E. Fritsch "Islam und Christentum Im Mittelalter"
1930.

P.H.Lammens "Mardaites" in the Encyclopoedia of Islam"
Vol. III. Leyden 1936.

A. Mez, "The Renaissance of Islam,"
London 1937.

IV- المصادر السريانية وغيرها التي اعتمدنا عليها ماخوذة عن : Tritton, Shedd, Arnold

B. H. "Chronicle, Bar Hebraeus," Paris

B. H.Eccl. "Ecclesiastical Chronicle," Bar Hebraeus

C. M. "Chronica Minora" C.S.C.O. Ser. III, Vol. 4.

Elias. "Elias of Nisibis" 1884

Eut. "History, Eutychius."

J.N. "John of Nikiou, Journal Asiatique" 1879.

Lang. "Michel le Syrien, Trans, Langlois."

S. "History of the Patriarchs, Severus," ed. Seybold.

S. A. "Anonymous Syriac Chronicle," C.S.C.O., Ser III. Vols. 14,15

Thomas "Book of Governors, Thomas of Marga.

Rylands "Bulletin of the John Rylands Library".

Von Kremer. Cul. Gesh.

الفهرست التفصيلي

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

XXXXXXXXXXXX
XXXXXXXXXX
XXXXXXXX
XXXXXX
XXXX
XX
X

T H E C H R I S T I A N S

in the

A B B A S I D P E R I O D.

An essay submitted to the department of history at the school of Arts and Sciences of the American University of Beirut in partial fulfilment of the requirements for the degree of :

MASTER OF ARTS

By

Abdul-Aziz A. Alluni

American University of Beirut

1942.
